الحقائق والدقائق
في المعارف الإلهية

الشيخ
فاضل الصفار

الإمامة
الجزء الثاني

دار المحجة البيضاء

الحقائق والدقائق

في المعارف الإلهية

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

ISBN: 978-614-426-478-2

الرويس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال
ص.ب: ١٤/ ٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/ ٢٨٧١٧٩ - ٠١/ ٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/ ٥٥٢٨٤٧
E-mail: almahajja@terra.net.lb
info@daralmahaja.com
www.daralmahaja.com

الحقائق والدقائق

في المعارف الإلهية

الإمامة

حقيقتها وخصائصها الإلهية وحقوقها في الأمة

الجزء الثاني

الشيخ

فاضل الصفّار

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم من الجن والإنس أجمعين.

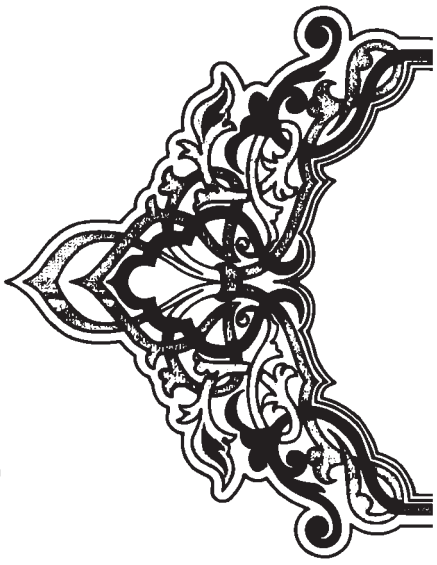

خصائص الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ومقاماته الإلهية

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: في وراثة الإمام صلى الله عليه وآله وخلافته للأنبياء عليهم السلام

المبحث الثاني: في خصائص الإمام المهدي صلى الله عليه وآله وآثارها التكوينية

تمهيد:

البحث عن خاتم الأئمة والأوصياء عليهم السلام الحجة بن الحسن المهدي عجل الله فرجه عميق ومفصل ومتنوع ويستحق دراسة مستقلة وافية، إلاّ أننا سنكتفي منه بما يتماشى مع غرضنا في هذا البحث، وباختصار؛ لأنه يتضمن محاور عديدة عمدتها عشرة:

الأول: يتعلق بوجوده المبارك وحقيقته النورية.

الثاني: عن ولادته في آخر زمان الإمامة أم في آخر زمان الدنيا.

الثالث: يتعلق بغيبته وطول عمره الشريف؛ إذ يدور البحث عن إمكان بقاء الإنسان حياً مدة تفوق الألف سنة، وعن سبب الغيبة وحكمتها.

الرابع: في وظائف المؤمنين تجاه الإمام عليه السلام.

الخامس: يبحث عن كيفية الارتباط بالإمام عليه السلام والاتصال به والكون في طاعته.

السادس: عن بركات وجود الإمام عليه السلام في زمن الغيبة وأثره على نظامي التكوين والتشريع.

السابع: عن الابتلاء والفتن التي يصاب بها الناس في زمان غيبته.

الثامن: عن ظهوره وعلائمه الكونية.

التاسع: عن حكومته وسياسته وتدبيره في زمن الظهور.

العاشر: عن مصير العالم بعد ظهوره.

وربما لا نجد حاجة إلى الوقوف على المحور الأول لسببين:

أولهما: كون المسألة من الضرورات التي تتفق عليها جميع الشرائع والأديان والمذاهب بما فيها الوضعية؛ إذ لا خلاف بين بني البشر على اختلاف توجهاتهم في ضرورة وجود مصلح عالمي يصلح ما فسد من الدنيا، وما أفسدته سياساتهم ومناهجهم، فلا خلاف بينهم في ضرورة وجود المصلح من حيث الأصل، وإنما الخلاف في مصداقه، ولا سبيل للعقل والنهج العقلي أو القوانين الأرضية لتحديده؛ لأن المسألة فوق مستوى الجميع - كما في النبوة - وينحصر طريقه بالسماء، فإذا تواتر النقل عن وجوده وتعيينه بولي الله الأعظم الحجة بن الحسن عجل الله فرجه انقطع البحث؛ لأن نتائج التواتر يقينية، واليقين حجة الحجج.

ثانيهما: كفاية الأبحاث المتقدمة من مباحث النبوة والإمامة في بيان ذلك بما لا تبقي حاجة لمزيد البيان كما عرفت تفصيله.

وذات الكلام يقال في المحور الثاني والثالث، سيما وقد استفاض العلماء والباحثون في تفصيلها في دراسات استدلالية تحليلية هامة ومتنوعة حتى باتت هي الأخرى من الضرورات التي يعد الخوض فيها من توضيح الواضح، وذات الكلام يقال في المحورين السادس والسابع، وأما المحور الخامس فقد أشارت الروايات المتضافرة إليه، ولخصت أبرز ما يصاب به

الناس من ابتلاءات في ثلاثة:

الأول: التشكيك به.

الثاني: اليأس من ظهوره ويصاب بهما حتى المؤمنون.

والثالث: في معصيته ومخالفة نهجه واتباع مناهج أهل الدنيا في الأفكار والأخلاق والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. والأبحاث الآتية تتكفل في دفعها.

وأما البحث في المحور الثامن والعاشر فسنأتي إلى تفصيلهما في مباحث المعاد إن شاء الله، فيبقى الكلام في ثلاثة محاور: وهي الرابع والخامس وسنجمعهما في مبحث واحد لتداخلهما، والتاسع وهو ما عقدنا له هذا الفصل، وكيف كان فإن الكلام في مقامات مولانا حجة الزمان ومصلحه ينعقد في مبحثين:

المبحث الأول
في وراثة الإمام عليه السلام وخلافته للأنبياء عليهم السلام

والبحث فيه يقع في مطالب:

المطلب الأول: في حقيقة العقيدة بالمهدي عليه السلام.

تقدم أن حقيقة الإمام المهدي عليه السلام من أكثر الحقائق رسوخاً في قناعات البشر من جهتين:

الأولى: فطرية، وتقريرها: أن حب الكمال والميل إلى بلوغه وتوقفهما على وجود مصلح يوصل إليه أمر تقضي به الفطرة السليمة. نعم يحكم العقل بأن المصلح لابد وأن يكون كاملاً؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

والثانية: وجدانية خارجية؛ إذ لا يشك أحد أن البشرية في نفسها قاصرة عن الإصلاح من نفسها، والعلم الحديث وحده يعجز عن إصلاح البشر، بل تؤكد الوقائع المعاشة أنه أحد أسباب الظلم والفساد في الأرض، والقانون هو الآخر أعجز منه؛ لأنه غير كامل، ويفتقر إلى تعديل وتقويم دائم وضمانات تتكفل بعدالة التنفيذ، بينما تتفاقم أزمات البشر يوماً بعد آخر، ويسود الظلم والجور كل ربوع المعمورة، وهي شاهد صدق على قصوره وعجزه، ولا أمل

في النجاة إلاّ بزعيم خارق في طاقاته ومواهبه، متجرد عن النواقص والرذائل التي أصيب بها العالم، مؤيد ومسدد من السماء كما هو عند الإلهيين، أو من قبل تأييد البشر؛ لكونه منجياً له كما هو عند الماديين يخلص العالم من الظلم والفساد المستشري فيه، وبذلك تتضح عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن حقيقة المهدي عجل الله فرجه أوسع حقيقة غيبية على الإطلاق، لاتفاق جميع البشرية عليها، فالملاحدة والمشركون واليهود والنصارى وسائر أهل الأديان فضلاً عن المسلمين كلهم يؤمنون بها، ويسلمون لها.

الحقيقة الثانية: أن الروايات حددت الشخص الذي يمثل خاتم الأوصياء بالنسب الواضح والتسمية الصريحة، وأنه من ولد فاطمة عليها السلام، كما نصت على أنه مولود وله غيبة، فمن أنكره في زمان غيبته يموت جاهلياً، والمخالفون لا ينكرون أصله ونسبه، بل ينكرون ولادته، إلاّ أن التواتر الوارد في الأخبار يبطل دعواهم.

ومن هنا قلنا إن القضية من القضايا الفطرية التي يدركها كل ذي فطرة سليمة حتى وإن لم يكن مؤمناً بالأديان السماوية، ولذا كانت من الحقائق الثابتة في النفوس، ولم ينكرها منكر مهما بالغ في المكابرة، وأما أهل الأديان فقد سلّموا لها وأذعنوا إليها؛ لورودها في كتبهم المقدسة وموروثاتهم الدينية[1].

وأما في الإسلام فتعد القضية من المسائل الضرورية التي لا تقبل الجحود والنكران، بل تسالمت كلمة أهل الإسلام على أن منكرها خارج عن الدين؛ لأن الإيمان بالمهدي عجل الله فرجه ملازم للإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وبالقرآن، فالمنكر لها

١ - نظر فلسفات إسلامية: ج٢، ص٣٣١.

منكر لهما، وهو في حد الكفر كما صرحوا به[١].

وقد دل القرآن الكريم عليها دلالة نصية أو ظهورية أو تأويلية بضميمة الأخبار الشريفة، كما هو متفق عليه بين الفريقين، والأخبار الواردة عن النبيﷺ في المهديعجل الله فرجه من طرق الخاصة والعامة تجاوزت الآلاف المؤلفة، وهو رقم نادر لم يرد حتى في مثل الصلاة والصيام والتوحيد والنبوة ونحوها من أركان الدين أصولاً وفروعاً، والملحوظ أن بعض المصنفات جمعت الروايات المخبرة عنهعليه السلام وعن اسمه وصفاته وغيبته وظهوره قبل ولادته صلوات الله عليه بحوالي المائة سنة نظير كتاب المشيخة للحسن بن محبوب الزرّاد[٢]، بل عن المحقق القميقدس سره: أن كثيراً من جوامع الشيعة ألفت قبل ولادة جنابهعليه السلام، فهذه الأخبار مضافاً إلى كونها متواترة ومفيدة لليقين تكون مقرونة بالإعجاز؛ لاشتمالها على الإخبار بتولده، ووقوع ما أخبروا به[٣] ومن هنا أقر بها حتى المعادون لأهل البيتعليهم السلام والمنكرون لمقاماتهم الإلهية، بل الذين خالفوا رسول اللهﷺ والقرآن ظاهراً وباطناً.

ففي كلمات بعض أئمة الحزب الوهابي ورد: أما إنكار المهدي المنتظر بالكلية كما زعم بعض المتأخرين فهو قول باطل؛ لأن أحاديث خروجه قد تواترت تواتراً معنوياً، وكثرت جداً واستفاضت، وهو كالإجماع بين أهل العلم[٤].

---

١ - انظر مجمع البيان ج٧، ص ١٢٠ - ١٢١؛ تفسير الأمثل: ج١٠، ص١٧٨، تفسير الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

٢ - إعلام الورى: ص٤١٦.

٣ - بداية المعارف الإلهية: ج٢، ص١٥٩.

٤ - هو ابن باز. انظر المهدي وفقه أشراط الساعة: ص٨٩؛ سيكلوجية الانتظار: ص١٢٧.

وعن آخر حينما سئل عن حقيقة خروج المهدي عليه السلام قال: «وأما ظهور المهدي في آخر الزمان فالإيمان به واجب كما هو مقرر عند أهل العلم، ومدون في عقائد أهل السنّة والجماعة، وقد تواترت بذلك الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله [١]، ومن هذه الأخبار ما ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «المهدي حق وهو من ولد فاطمة»[٢] وفي آخر: «من أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته فمات مات ميتة جاهلية»[٣].

وفي العلل عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام قال في شأن أولي العزم من الرسل: «وإنما سموّا أولي العزم لأنهم عهد إليهم في محمد صلى الله عليه وآله والأوصياء عليهم السلام من بعده والمهدي عليه السلام وسيرته، فأجمع عزمهم أن ذلك كذلك وأقروا به»[٤] إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة جداً[٥].

الحقيقة الثالثة: أن هذه الحقيقة الإلهية تصلح أن تكون جامعاً مشتركاً لإيصال جماعة المسلمين إلى تفاهم أو توافق في المعتقدات؛ لأنها أوسع حقيقة أقر بثبوتها الجميع، فيمكن الانطلاق منها لفهم باقي الحقائق ورفع الاختلاف لو شاء أهل القرار ذلك، بل يستفاد من الأدلة أن هذه الحقيقة متقررة في علم الملكوت، فهي تفوق عالم الأرض، وتصل إلى كل الموجودات؛ لأنه عليه السلام آخر الحجج الإلهية، وبه ينسد باب الكمال واتصال الأرض بالسماء، ومثل

١ - المهدي المنتظر حقيقة أو خرافة: ص١٨٨؛ الإمام المهدي: ص٥٢- ٥٣.
٢ - تهذيب الكمال: ج٩، ص٤٣٧، الهامش.
٣ - معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام : ج٢، ص٢٥٣، رقم ٥٥٥.
٤ - علل الشرائع: ج١، ص١٢٢، ح١.
٥ - انظر فهرستاً عاماً لما ورد في ذلك في كتاب الإلهيات (للسبحاني): ج٤، ص١٣٣- ١٣٤.

هذه الحقيقة تعرفها كل الموجودات، وتحن إليها، ومن هنا يعرف أن حب المهدي عجل الله فرجه وانتظاره هي قضية كونية يعرفها ويدركها الكون، ويتمسك بها بحسب قانون الفطرة الذي أودعه الله سبحانه في مخلوقاته، وجعلهم سائرين إلى الكمال.

المطلب الثاني: في وراثة المهدي

تتفق الآيات والروايات بل هو ما تقضي به الفطرة والعقل على أن الإمام المهدي وريث الأنبياء والأوصياء، وهذه الوراثة مادية ومعنوية، فهو يرث الأرض بما فيها من خيرات وبركات فيحكمها، وينشر العدل الإلهي على ربوعها بعد أن ملأها البشر ظلماً وجوراً، ويرث علوم الأنبياء والأوصياء، ومن هنا فإن مهامه الإلهية تتلخص في الهداية في رتبتها العليا، أي الإيصال إلى المطلوب، بمعنى أنه يوصل الخلق كله إلى كماله وهدفه الإلهي في الوجود، فهدايته للخلق ليست من قبيل إراءة الطريق أو الحث والتشويق، بل التحقيق والتطبيق، وهذه سمة خاصة يمتاز بها صلوات الله عليه عن سائر الأنبياء والأوصياء؛ إذ كانوا جميعاً مكلفين بالظاهر، وينفذون الأوامر الإلهية بحسب معادلات الأسباب والمسببات والامتحان الإلهي الأعم من مطابقة الواقع، وأما خاتمهم صلوات الله عليه فإنه ينفذ الأمر الإلهي والإرادة الإلهية بحسب الواقع.

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[1]

---

١ - سورة الأنبياء: الآية ١٠٥ - ١٠٦.

ومنطوقها صريح في جملة خبرية في مقام الأنشاء مفاده أن الأرض في آخر المطاف سيرثها عباد صالحون، وأن هذا من الوعد الإلهي الذي يتحتم وقوعه، ولا يجوز مخالفته.

وأن هذا الوعد مذكور في الكتب السماوية والقرآن الكريم، بناء على أن الزبور يراد به المعنى اللغوي، أي كل كتاب ومقال، أو يراد به المعنى الكنائي عن الكتب السماوية كما مال إليه جمع من مفسري الخاصة والعامة[1]، وهو المروي عن الأئمة عليهم السلام [2].

ولعل النكتة في ذكر زبور داود مع أنه العهد القديم بالقياس إلى التوراة والإنجيل تعود إلى أن داود أقام حكومة إلهية كانت تحكم بما أراه الله سبحانه، ولم تأخذ بشريعة محرفة أو بقانون أرضي أو مخالفة للواقع، وبذلك يتضمن إشارة إلى حقيقة الوراثة التي سينالها العباد الصالحون، أي وراثة الحكم والعلم، وهذا ما تقتضيه القرينة المقامية ومناسبة الحكم والموضوع، وحينئذ يستفاد منها أمران:

الأول: أن وراثة المهدي عجل الله فرجه للأرض وراثة الحكم والعلم.

الثاني: أن المهدي صلوات الله عليه هو خليفة الله في أرضه في خاتمة الزمان، وأن خلافته جعلية إلهية لا بانتخاب من الناس، ولا تنصيب بالقوة البشرية، فكما جعل الله سبحانه داود خليفة في الأرض وأمره أن يحكم بما أراه

١ - انظر تفسير مجمع البيان: ج ٧، ص ١١٩؛ تفسير ابن كثير: ج ٣، ص ٢١٠؛ تفسير الأمثل: ١٠، ص١٧٥.

٢ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٧٧.

الله فكذلك وليه المهدي عجل الله فرجه، فإنه يكون خليفة الأرض ويحكم بما أراه الله، وهذا ما تعضده الروايات التي نصت على أنه عليه السلام يحكم بالواقع لا بالظاهر، ولازم ذلك أن يسخر له الكون فيلين له الحديد، ويعلمه منطق الطير ونحوها من كرامات إلهية.

وفي ذلك كله كناية عن النصر الإلهي الحتمي لكي يظهر حجته على الدين، ويبطل حجج المنكرين والمعاندين، ولعل هذا المعنى يستفاد من رواية القمي حيث قال: «أعطى الله داود وسليمان عليهما السلام ما لم يعط أحداً من أنبياء الله من الآيات، علمهما منطق الطير، وألان لهما الحديد والصفر من غير نار، وجعلت الجبال يسبحن مع داود عليه السلام، وأنزل الله عز وجل عليه الزبور فيه توحيد وتمجيد ودعاء وأخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من ذريتهما عليهما السلام، وأخبار الرجعة والقائم عليه السلام»[1].

وفي زبور داود – مزامير داود – نصوص تتوافق مع مضمون الآية، ولعل من دلائل اللطف الإلهي به أن هذا المضمون لم تنله يد التحريف والتلاعب بالرغم من سعي اليهود والنصارى لإيقاعه، ففي المزمور٣٧ جملة ٩ يقول: لأن عاملي الشر يقطعون، والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض بعد قليل لا يكون الشرّير.

وفي جملة ٢٧ من ذات المزمور تكرر المضمون إذ يقول: لأن المتبركين بالله سيرثون الأرض، أما الملعونون فسينقطع أثرهم، وفي جملة ٢٩ يقول: إن

١ – تفسير القمي: ج٢، ص١٢٦.

الصالحين سيرثون الأرض وسيسكنون فيها إلى الأبد[١]، إلى غيرها من جمل وهي عديدة[٢].

ومن قوله: ﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يتضح أن الوراثة تكون للموصوفين بالعبودية لله، وواضح أن أرقى من اتصف بالعبودية هو الرسول الخاتم، واتضح من الآية أن الوصي الخاتم أيضاً يتصف بهذه الصفة، وهو ما تؤكده الأخبار المتضافرة التي نصت على شباهته صلوات الله عليه برسول الله ﷺ في خلقه وفي نهجه ومسيرته.

ويستفاد من الآية أيضاً أن مصير الأرض يكون بيد الصالحين، ومفهومه انقراض غير الصالحين وجوداً أو قوة وسلطة، وفي ذلك تأكيد لما ذكرناه من أن قضية المصلح العالمي حقيقة فطرية تقضي بها طبائع الأشياء وقواعد الفطرة البشرية.

فيتحصل: أن المهدي عجل الله فرجه هو وارث الأرض، وهو السيد والحاكم فيها؛ لأنه مدخر لإقامة الفرائض والسنن وإيصال الخلق إلى كماله وغايته الوجودية، والسؤال هو كيف يحقق الإمام عليه السلام هذا الهدف؟

والجواب يحققه عبر خطة إلهية مرسومة ذات بعدين هما العلم والقدرة.

أولاً: بُعد العلم

فإن الله سبحانه خص وليه الأعظم عجل الله فرجه بعلوم ومعارف تفوق طاقات

١ - انظر تفسير الأمثل: ج١٠، ص١٧٨.

٢ - انظر المزمور ٣٧ جملة (١١) وجملة (١٨).

البشر وقدراتهم، يفتح خزائنها، ويربي بها البشر، ويرتقي بهم إلى الكمال في عين الحال الذي يكون دليلاً تاماً على صدقه وحجيته على الخلق، وتقرير ذلك يتم ببيان ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن جميع أهل العلم يقرون بأن ما يجهله الإنسان عن الوجود أكثر مما يعلمه، وكلما تطور العلم وأبدع العلماء فإنهم لا زالوا يحبون وفي مراحلهم الأولية من العلم، ولازالت الأبحاث والدراسات تطلع علينا يوماً بعد آخر فتخطئ بعض النظريات السابقة، وتأتي بشيء جديد يأخذ برهة من الزمن وربما يثبت فشله أيضاً، وربما تصوِّب ما توصلوا إليه، ورغم ذلك فإن ما يصوّبه العلم يبقى قطرة في بحر عميق لا يبلغ غوره، وهذا مما يقضي به البرهان؛ لأن الكون كتاب الله التكويني، فهو مظهر علم الله، وعلمه سبحانه مما لا يتناهى، والبشر مهما بلغ وارتقى فهو محدود، والمتناهي المحدود يستحيل أن يبلغ اللامتناهي واللامحدود.

فعلم الإنسان بالقياس إلى علم الله سبحانه وأسراره مما لا يقاس، ولا يؤخذ بالحسبان، ويشهد القرآن الكريم بأن الإنسان مهما أوتي من العلم فهو قليل، إذ قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وهذا ما يشهد به الوجدان، فإن الإنسان يجهل حتى أسرار نفسه، بل يجهل نفسه التي هي جوهره وحقيقته، ويجهل مستقبله، ومما يزيد الأمر عظمة أن أسرار الوجود في تجدد وتطور دائم ودائب، ولم تتوقف عند حد زماني أو مكاني أو غيرهما؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

١ - سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٢ - سورة النحل: الآية ٨.

ومن الواضح أن ما يتوصل إليه البشر من المعلومات ويثبت صوابها يستغرق وقتاً طويلاً؛ لاستحالة الصدفة والطفرة، بينما خلق الله سبحانه مستمر ودائم، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فهل توجد وحدة قياسية يمكن أن يعرف بها مدى التفاوت بين ما يحتويه العالم من أسرار وما يعلمه البشر منها، ومعلوم أن القوانين والأسرار لا تختص بالعلوم التقنية، بل تشمل حتى العلوم المادية، وهو ما يشير إليه قوله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1] والمراد من الأيدي القوة، وهي صريحة الدلالة على أن بناء السماء الذي هو أدق وأعمق من الأرض في حال توسع دائم، وهذا ما أقره علم الفلك الحديث[2]، بل وعلوم الفيزياء والكيمياء والأحياء الحديثة.

والخلاصة: أن البشر في نفسه قاصر عن بلوغ أسرار الوجود وطاقاته وقوانينه، ومهما بلغ من علم نظري أو عملي أو تجربي فإنه قطرة في بحر لجي.

الحقيقة الثانية: أن ما وصل إليه الإنسان اليوم من علم ومعرفة بنى عليهما حضارته الحديثة فتح عينه وقلبه وعقله على الكثير من الحقائق المعرفية، وأخرجه من طور الجهل المطلق، ووضع أقدامه في طريق العلم، وأنار حياته بالمعارف المختلفة، وهذا ما لا يمكن إنكاره، إلاّ أن ما ربما يغفل أو غفل عنه الكثير أمران:

الأول: أن ما توصل إليه الإنسان من العلم والمعرفة لم يكن من نفسه

١ - سورة الذاريات: الآية ٤٧.

٢ - انظر تفسير الأمثل: ج١٧، ص٩٣- ٩٤ تفسير الآية المزبورة.

فقط، بل تدخلت الإرادة الإلهية في تعليمه عبر طريقين هما: الأنبياء والأولياء والإلهامات الربانية، فما من عالم أو عبقري أو باحث أو شاعر إلاّ وعلمه الباري عز وجل علمه إما مباشرة عبر إلهامه المعاني والحقائق أو الصور الشعرية، أو عبر تسخير العلم إليه بإيجاد المقتضيات للتعلم في نفسه ورفع الموانع وتهيئة أدوات العلم وأسبابه، أو بهما معاً، والحق أن جوهر العلم والتعلم هو الإلهامات الربانية، وأما الأسباب فهي معدات وليست بعلل، فلولا الإلهام والإفاضة على العقل أو القلب أو المشاعر لاستحال على الإنسان أن يصنع شيئاً، أو يبدع شيئاً، وهذا من الحقائق التي يشهد بها الوجدان، وتواترت به الأدلة النقلية، وقام عليها برهان العقل، وقد مر عليك في المباحث السابقة ما يدل عليها.

وبهذا الاعتبار يصح نسبة العلم إلى الله سبحانه، وأما الإنسان فليس إلاّ واسطة أو مظهر للعلم الإلهي، وأما تعلمه ودراسته وبحثه وتحريه فهي عوامل مساعدة لإفاضة العلم والتعليم لولاها لم يتعلم إنسان، ولا يكون عالماً، فمثل فعل الإنسان في تحصيل العلم والمعرفة مثل من يضع مرآة في وجه الشمس لينعكس شعاعها عليها، فالذي لا يملك مرآة ولا يسعى لتحصيلها لا ينعكس عليه شيء من نورها.

الثاني: أن كل ما حصله البشر من العلوم والمعارف وبنى على أساسها حضارته الحديثة التي بهرت العقول واغتر بها أهلها ليست في معادلة العلوم الإلهية المودعة عند محمد وآل محمد عليهم السلام إلاّ نقطة صغيرة؛ لأن مرايا البشر وقلوبهم وعقولهم ضيقة محدودة قاصرة عن استيعاب الفيوضات الإلهية من دون وساطة محمد وآل محمد عليهم السلام، إلاّ أن هذه العلوم المودعة عندهم لم

يظهروها جميعاً إلى الناس، وإنما أظهروا منها ما اقتضته الحكمة والمصلحة.

وأما باقيها فهو مدخر عند ولي الله الأعظم وخاتم الأئمةعليهم السلام ليظهرها في آخر الزمان، وبها يعلم البشر، ويرتقي بهم إلى الكمالات الإلهية، وهذا ما تؤكده الروايات المتضافرة عنهمعليهم السلام نظير قول الصادقعليه السلام: «العلم سبعة وعشرون حرفاً، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفاً فبثها في الناس، وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفاً»[١].

والحرف في كل شيء طرفه وحده وجانبه[٢]، وهو صريح في أن الإمامعليه السلام ينشر هذه العلوم والمعارف بين الناس، ولعل تحديد العدد بسبعة وعشرين يراد به أصول العلوم والمعارف بناء على حمل العدد على المعنى الحقيقي، أو يراد منه المعنى الكنائي أي إنهعليه السلام يفتح أبواباً كثيرة للعلم لم يعرفها الناس من قبل فيرتقون بها ويزدادون، ولعل وجه تحديد العدد بسبعة وعشرين لأنها تقارب أو تساوي الحروف الأبجدية، فتكون أقرب إلى أذهان الناس، أو أن هذا العدد هو أصول العلوم والمعارف بالفعل، ومنها تشتق سائر العلوم وإليها تعود.

ويدل على ارتقاء البشر في عهده صلوات الله عليه قول الباقرعليه السلام: «وتؤتون الحكمة في زمانه حتى أن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٦، ح ٧٣.

٢ - مجمع البحرين ج٥، ص٣٦، (حرف)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٢٨، (حرف)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٦٧، (حرف).

وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله»[١] وصيغة المبني للمفعول (تؤتون) ظاهرة، بل صريحة في أن تعلم الناس لا يكون بالأسباب الطبيعية، بل تتدخل فيه يد الغيب، ولعل تسمية العلم هنا بالحكمة للإشارة إلى تنعم البشر بالخير الكثير، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢].

وقضاء المرأة في بيتها إما يشير إلى أن المرأة وهي في بيتها تتلقى العلم بالقضاء، فلا تطلبه عبر الوسائل التعليمية المعهودة لدى البشر، وهذا ما يتوافق مع صيغة المبني للمفعول.

وإما إلى أن الناس يستغنون عن القضاء؛ لأن كل واحد منهم يصبح قاضياً على نفسه في الوقوف عند حد الاعتدال في السلوك أو الإيقاف عليه حتى المرأة تقضي بين أهلها في بيتها، وربما يؤيده قوله: «وتؤتون الحكمة» فإن إيتاء الحكمة للجميع بلسان العموم الاستغراقي ظاهر في بلوغ البشر مكانة من المعرفة حتى يعرفوا الحق من الباطل، ويفصلوا بينهما، ولا تنافي بين المعنيين، فالحمل عليهما بلا محذور، ويستفاد من بعض الأخبار الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام أن مفتاح العلم بيده صلوات الله عليه، وخاتمته بيد ولي العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف، مما يدل على أن البشر يبلغون في عهده غاية كمالهم في المعرفة، وأن العلوم في الأرض وبمعايير الدنيا تتوقف، فلا زيادة فيها لانتفاء الغرض منها.

قال عليه السلام: «يا كميل! ما من علم إلاّ وأنا أفتحه، وما من شيء إلاّ والقائم

١ - مكيال المكارم: ج١، ص١٥٤.
٢ - سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

يختمه»[١] وبناء على قرينة السياق يحمل (شيء) على العلم، وأما بناء على الإطلاق فإنه يحمل على ما هو أوسع من العلم، فيشمل الكمالات النفسية والفضائل والعلوم المادية وسائر العلوم والمعارف التي أظهرها الأنبياء والأئمةعليهم السلام و غفل عنها الناس، أو نسيها، أو لم تصل إليهم. هذه جميعها تختتم بظهوره صلوات الله عليه.

وورد عن الكاظمعليه السلام ما يشير إلى بعض حدود هذه العلوم، ففي حديث الراهب الذي سأل الإمام عليه السلام فقال: اخبرني عن ثمانية أحرف نزلت، فتبين في الأرض منها أربعة، وبقي في الهواء منها أربعة على من نزلت تلك الأربعة التي في الهواء؟ ومن يفسرها؟

قالعليه السلام: «ذاك قائمنا ينزلها الله عليه فيفسرها، وينزل عليه ما لم ينزل على الصدّيقين والمرسلين والمهتدين»[٢].

وفي ذلك إشارة إلى أفضليته صلوات الله عليه على سائر الأنبياء والمرسلين والأئمة إلاّ ما استثناه الدليل، وهو جده المصطفىصلى الله عليه وآله وعلي أمير المؤمنونعليه السلام وجدته الصديقة الكبرىعليها السلام والحسن والحسينعليهما السلام، وهو ما يستفاد من جملة من الأخبار.

منها: قولهعليه السلام: «إن القائم المهدي من نسل علي أشبه الناس بعيسى

١ - مكيال المكارم: ج١، ص١٣٩.
٢ - مكيال المكارم: ج١، ص١٣٩.

بن مريم خلقاً وخلقا وسيماء وهيئة، يعطيه الله عز وجل ما أعطى الأنبياء، ويزيده ويفضله»[١].

أو إشارة إلى خصوصية من خصوصياته الغيبية، والأول أقوى، وهو ما يقضي به العقل والبرهان، لوضوح أن سعة الفيض النازل كاشف عن سعة القابل، وإلاّ لزمت الجزافية واللغوية في الإنزال، والتضييع للنازل، والظلم بالمنزل.

ولعل السر في عدم ظهور هذه العلوم والمعارف إلاّ في زمانه صلوات الله عليه وعلى يديه يعود إلى وجهين:

الأول: قصور القابل؛ لأن البشر قبل عهده عليه السلام محدودون قاصرون، فلا يتحملون ثقل العلوم والمعارف الواقعية، وبالتالي فإن إظهارها للناس مع قصورهم يؤدي إلى اتهام الأنبياء والأئمة في دينهم، أو المغالاة بهم، أو تعريض البشر إلى الكفر والجحود، والكل يتنافى مع الغرض والحكمة الإلهيين، وهذا ما يستفاد من مثل قول أمير المؤمنين: «إن هاهنا لعلماً جماً لو أصبت له حملة»[٢] وقول الإمام زين العابدين عليه السلام:

إني لأكتم من علمي جواهره ... كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٢٢٦، ح٨٩.
٢ - نهج البلاغة: ج٤، ص٣٦، الخطبة ١٤٧.

ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا[1]

وواضح أن هذه العلوم المودعة عندهم لابد لها من ظهور، وحيث لا استعداد في البشر فلابد من العمل على ترقية البشر ليتهيأ لتلقي هذه العلوم، وذلك ما يقع في عصر الولي الخاتم صلوات الله عليه.

والثاني: لأن البشر في دار الدنيا ممتحنون مبتلون، والتمايز والتفاضل بينهم يكون على حسب العمل والجهد والمثابرة، فلو أظهر الله سبحانه سائر العلوم والمعارف بطلت سنة الامتحان، بل إن الأنبياء والأئمة عليهم السلام قبل عصر الظهور مكلفون بهداية الخلق إلى التوحيد، وتعليمهم الشرائع، وإقامة الحجة لهم وعليهم، ولذا لم يقيموا حكومات، ولم ينشئوا دولاً في الغالب مع أنهم لو أرادوا لاستطاعوا، إلاّ أنها لم تكن وظيفتهم؛ إذ كانوا مكلفين بالظواهر لا بالواقعيات، والظواهر محكومة بالقيود المادية الدنيوية، وعاجزة عن التحرر منها إلاّ بمقدار الجهد والترويض واتباع الأسباب والمسببات، فلو أظهروا العلوم الواقعية ضاعت بين قصور الدنيا وقصور البشر عن دركها، بينما في زمانه صلوات الله عليه يرتفع القصور؛ لكون زمانه محطة تربط بين عالم الدنيا وعالم الآخرة فتحظى بالقابلية من الجهتين الملكية والملكوتية، وتكون جديرة بتحملها.

الحقيقة الثالثة: أن التحضر البشري بمعناه الحقيقي لا يتحقق إلاّ في عصره صلوات الله عليه؛ لأن التحضر بمعناه العرفي أو المصطلح مرحلة سامية من

١ - كتاب الأربعين: ص٣٤٥؛ الغدير: ج٧، ص٣٥- ٣٦؛ طرائف المقال: ج٢، ص٦٠٣- ٦٠٤.

مراحل التطور الإنساني يتمظهر بالرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر مقابل البداوة وما تتصف من صفات تناقض الحضر[١]، وذلك يتقوم أولاً بالإنسان، وأما العلم والأدب والفن ونحوها فهي نتاج مستواه وفهمه وتفكيره ثم عمله.

ومن هنا يتضح أن الحضارة ليست هدفاً بذاته، بل هي طريق كاشف عن كمال الإنسان ورقيه، وإذا عرضنا الحضارة البشرية اليوم على هذا المعيار نجد مفارقة عجيبة؛ لأن الحضارة المعاصرة تمكنت من العمل على تطور الإنسان وتغيير حياته إلى الأحسن، وأعطته من إنتاجها الشيء الكثير، ولكن كل ذلك يدور على جسد الإنسان ومظهره وشكله ونمط معيشته.

فإذا نظرنا إلى عقل الإنسان وقلبه وضميره نجدهما على العكس تماماً، إذ تراجعت الإنسانية في الإنسان، وتبدلت موازينها إلى المادة، والمادية فحياته وموازينه ومواقفه تحكمها المصالح والماديات فقط ، والنظرة الفاحصة إلى الواقع الخارجي وما يجري على الأرض من ظلم وجور وفساد يكفي لإثبات هذه الحقيقة، فالحضارة الحديثة لها أثران إيجابي يقتصر على الشكل والمظهر، وسلبي يعود على العقل والقلب والضمير بالتردي والانحطاط.

ومن الواضح أن إنسانية الإنسان ليست في جسمه، ولا في ثيابه، ولا في سيارته أو قصره أو طعامه أو شرابه؛ وإنما في رجاحة تفكيره ونظافة قلبه وطهارة ضميره وسمو القيم الإنسانية في أفعاله ومواقفه، فالحضارة الحديثة بعلومها ومعارفها تمكنت أن تصنع حضارة مادية مبهرة، ولكنها عجزت من

١ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١٨١، (حضر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢٧٢، (حضر).

أن تحضر الإنسان نفسه، بل تراجعت به إلى الوراء حتى صار بنهجه العام متوحشاً في تفكيره ومواقفه؛ لأن هذه الحضارة عوراء شوهاء تعرف كيف تطعم الإنسان وتشبع غريزته، ولكنها لم تتمكن أن تملأ عقله نوراً وقلبه رحمة وسلوكه نبلاً وشهامة، فالمعادلة التي تقوم عليها هذه الحضارة هي المادة فقط، وأما المعنى وقيم المعنى فالناتج عندها صفر؛ إذ يعيش العالم في فقر مدقع في أبعاد المعارف والأخلاق، ولذا ضج المجتمع البشري بالمشاكل والأزمات الإنسانية المستعصية، وتزداد الجرائم والجنايات والحروب والدمار وتكبر، وقد اتفق عقلاء العالم على هذه الحقيقة، وصار الكل ينتظر المصلح الذي ينجي البشر من هذه المخاطر المهلكة.

وهذا الذي عجزت عنه الحضارة الحديثة سيحققه ولي الزمان وحجته عليه السلام، أي إنه يكمل البشر، ويرقيهم ويرفع من مستواهم الإنساني ويبني حضارة تقوم على الإيمان والعدل والرحمة والمحبة، أي حضارة يقودها تحضر الإنسان لا المصالح والشهوات.

وبهذا الاعتبار يصح أن نسلب عن الحياة اليوم صفة الحضارة الحقيقية، ونعطيها التسمية مجازاً وتسامحاً؛ لأنها - من حيث القيم - حضارة فاسقة فاجرة خارجة عن السنن الإلهية، وبعيدة عن تحضر الإنسان وفطرته؛ بداهة أن الإنسان مركب من الجسد والروح، فحاجاته ثنائية الأبعاد، إلاّ أن الروح هي حقيقته وجوهره، وأما جسده فهو وسيلة موقتة يطوي الإنسان به مراحل حياته الدنيوية، ثم يتركه ويرحل إلى ما هو أسمى من الدنيا، وبالتالي فإن الجسد ليس هو الإنسان بل روحه.

والحضارة الحديثة وفرت للجسد ما يحتاجه - إن صح هذا القول - إلاّ أنها أفقرته في جوهره وروحه، وعليه فتسميتها بالحضارة بالمعنى الدقيق بعيد عن الواقع.

ومتى ما رجعت البشرية إلى سنن الله سبحانه واستطاعت أن ترتقي بالإنسان إلى مستوى الإنسانية وتضعه متوازناً مع السنن الإلهية في الوجود يصح أن تتصف بالمتحضرة، وتكون قادرة على إنشاء الحضارة.

وهذه هي مهمة ولي الزمان صلوات الله عليه، فإنه صلوات الله عليه بالعلوم التي يفتح خزائنها والمعارف التي يحملها سيعلم البشر، ويرفع من شأنهم عقلاً وقلباً وضميراً، ويصل بهم إلى كمالهم اللائق فيعدهم إلى حياة الملكوت.

ولذا لا يقاس عهده بأي عهد ولا زمانه بأي زمان؛ لأنه صلوات الله عليه سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وهذا ما لم يتحقق في أي مرحلة من مراحل حياة البشر إلاّ في عصره صلوات الله عليه.

ولعل من هنا وصف صلوات الله عليه بالنهار؛ إذ ورد في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾[1] أن الشمس رسول الله صلى الله عليه وآله لأنه أوضح للناس دينهم، والقمر أمير المؤمنين عليه السلام إذ تلا رسول الله صلى الله عليه وآله في الرتبة والمسيرة والنهار هو الحجة القائم صلوات الله عليه؛ لأنه يجلو دين رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما أصابه التضييع والتلاعب بسبب الحكام

١ - سورة الشمس: الآيات ١-٣.

الظلمة، وحب الدنيا، وينشر نور الإسلام في أرجاء الأرض، ويقيم دولة العدل، والروايات فيه متضافرة[١].

ثانياً: بُعد القدرة

فإنه صلوات الله عليه بما له من مقام إلهي عظيم يتصرف بمقتضى ولايته الكلية على الكون، فيسخر الأشياء وتطيعه، وهذه الخصوصية وإن كانت مشتركة مع جميع الأئمة عليهم السلام إلاّ أنهم عليهم السلام وبمقتضى ما تقدم كانوا يظهرون هذه الولاية في الموارد الاستثنائية وعند الحاجة والضرورة من باب التخصيص في القانون، وأما في زمانه صلوات الله عليه فإنه يجعل هذا التصرف أصلاً وهو ما يقضي بضرورته العقل من جهتين:

الأولى: جهة الغاية، وتقريرها يتم ببيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: أن الله سبحانه خلق الكون لأجل الإنسان؛ لأنه أشرف مخلوق فيه، فلابد وأن يكون الأشرف هو الغاية، ولولا ذلك يلزم العبث أو الخلف أو ترجيح المرجوح، ووجه غائية الإنسان لوجود الكون هو احتياجه إليه بدنياً وروحياً، فلابد وأن يسخره له لتوقف حياته المادية والمعنوية عليه.

المقدمة الثانية: أن الإنسان لا يتمكن من الاستفادة من الكون إلاّ بتسخيره إليه، فالتسخير إليه ضرورة؛ لأنه ممكن ذاتاً ووقوعاً، فلابد أن يقع؛ إذ لولاه لتعذرت الاستفادة، وبطلت الغائية، ولزم الخلف.

---

١ - انظر الكافي: ج٨، ص٥٠، ح١٢؛ تفسير القمي: ج٢، ص٤٢٢؛ تأويل الآيات: ج٢، ص٨٠٥، ح٣؛ ص٨٠٦، ح٥.

ويتلخص أن الحاجة إلى التسخير ضرورية، فوقوعه ضروري، لأن ما يتوقف عليه الضروري ضروري.

وبما أن المقتضي له موجود والمانع مفقود فلابد من وقوعه، والنتيجة أن الكون في زمان ولي الزمان صلوات الله عليه يكون مسخراً له وطوع أمره يتصرف فيه كيفما يشاء، ومن ذلك هو تسخير القلوب والعقول للهداية والاستجابة للحق، ولعل ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام من أنه عجل الله فرجه يمسح على رؤوس الخلائق فتكتمل عقولهم وأخلاقهم[١] يشير إلى هذا المعنى.

وقد شهد القرآن إلى هذه الحقيقة في آيات عديدة بعضها أشار إلى تسخير الزمان[٢]، وبعضها إلى تسخير الفضاء[٣]، وبعضها إلى تسخير الأرض وما عليها كالأنهار[٤] والبحار[٥].

وواضح أن التسخير الكامل لم يحصل قبل عصر الظهور؛ لعدم تحقق الغاية الأصلية منه، وهي كمال الإنسان وارتقاؤه وتطابقه مع السنن الإلهية، فما تمكن الإنسان من تسخيره من عناصر الوجود فهو ناقص، وبقاؤه على هذا الحال محال؛ لاستلزامه انفكاك المعلول عن العلة، باعتبار أن الكون في تغير وحدوث مستمر، ويتنافى مع حكمة الخالق؛ لأن الغاية الناقصة لا تغني

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٦، ح٧١، وفيه «إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم، وأكمل به أخلاقهم».
٢ - انظر سورة إبراهيم: الآية ٣٣.
٣ - انظر سورة الزمر: الآية ٥.
٤ - انظر سورة إبراهيم: الآية ٣٢.
٥ - انظر سورة الجاثية: الآية ١٢.

عن الكاملة، فلابد وأن تكتمل الغاية في زمان ما، وهو زمان الولي الخاتم صلوات الله عليه.

ويتحصل: أن كمال التسخير يتوقف على كمال الإنسان، فيكون كماله وبلوغه ضرورة لابد منها كونياً دفعاً لمحذوري الاستحالة الذاتية والعرضية.

الثانية: جهة الحقائق والآثار، فإن الكون يشتمل على نوعين من الحقائق والآثار مادية ومعنوية غيبية، والإنسان بحسب علمه وعمله تمكن من الوصول إلى بعض الحقائق والآثار المادية فبدل حياته إلى الأفضل صناعياً وزراعياً، وصنع لنفسه حضارة مادية ظاهرة.

ولكن الحقائق والآثار الغيبية فهو عاجز عن الوصول إليها إلاّ بدليل متصل بالغيب، ومطلع على أسراره يرشده ويعلمه ويفتح عيونه عليها، وليس ذلك إلاّ ولي الله الأعظم صلوات الله عليه. هذا فضلاً عن الحقائق والآثار المادية الأخرى التي يقصر البشر عن معرفتها، أو عن معرفتها بالنحو الأتم.

فالحاجة إلى الولي الأعظم لكمال الإنسان مادياً ومعنوياً ضرورة تقتضيها الحكمة، ولولاها لزم الخلف والعبثية في الخلق، وحيث إن ذلك يتوقف على التسخير الكوني وتذليل قوانينه يصبح هو الآخر ضرورة؛ لأن ما يتوقف عليه الضروري ضروري.

ويتحصل: أن الإمام صلوات الله عليه بقدرته الربانية يسخر الكون لإكمال البشر وإيصالهم إلى رقيهم الإنساني، وحيث إن التسخير يتوقف على شرط أساس لا يحصل من دونه وهو معرفة الإمام والتسليم له؛ لأن به تتم المعرفة الكاملة بالله سبحانه والرسول والانقياد لهما، فلو تمت المعرفة الكاملة

تحققت العبودية التامة، وبها تتحقق الغاية من خلق الإنسان التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

فلا يكون الإنسان منسجماً مع السنن الإلهية في الوجود إلاّ في زمانه صلوات الله عليه، ويكون هذا الانسجام أصلاً عاماً حاكماً على بني البشر، ونتيجته هو أن الأشياء تكون طوع أمره وإرادته ما دام عارفاً مؤمناً متوازناً مع السنن، ولعل الكثير من علامات الظهور التي نسبت إلى الإنسان قدرات خارقة في الرؤية والفعل والأثر تشير إليه.

فعن الصادق عليه السلام: «وتزول بعد ذلك كل عاهة عن معتقدي الحق من شيعة المهدي»[2] وقيل: «تطوى لهم الأرض، ويذلل لهم كل صعب»[3] ولزوال العاهات أسباب عديدة:

الأول: تأثير بركة ظهور مولانا عليه السلام بما أنه موصوف بأمان لأهل الأرض، وبه يرفع البلاء.

الثاني: ظهور العلم والمعرفة وقدرتهما على رفع العاهات.

الثالث: الأثر الوضعي للعقيدة الحقة، فإن في عصره صلوات الله عليه تظهر الواقعيات، ولا يؤخذ بالظواهر، ولعل من الأثر الواقعي لها زوال العاهات، وربما يراد بها زوال العاهات النفسية والعقلية التي ما انفك الناس

---

١ - سورة الذاريات: الآية ٥٦.

٢ - الإرشاد: ج٢، ص٣٧٠؛ تاج المواليد: ص٧٤؛ كشف الغمة: ج٣، ص٢٥٦؛ عصر الظهور: ص١٦٤.

٣ - عصر الظهور: ص٢٧٣.

عن الإصابة بها، ومن الواضح أن منشأ أمراض الجسد هو مرض الروح كما وثقته الدراسات العلمية الحديثة، فحيث يأمن الناس ويستقرون ويلتزمون بالعقيدة الحقة لا يبقى سبب للعاهة.

وفي رواية حكيم قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: «إن أصحاب القائم شباب لا كهول فيهم إلاّ كالكحل في العين أو كالملح في الزاد»[1] وعن أبي جعفر عليه السلام: «أنه لو كان ذلك - أي الظهور- أعطي الرجل منكم قوة أربعين رجلاً، وجعلت قلوبكم كزبر الحديد لو قذفتم بها الجبال فلقتها»[2] والاحتمالات الثلاثة في توجيه زوال العاهة تجري هنا أيضاً.

وفي الآيات الشريفة ما يدل على أن خزائن العلوم وبركات السموات والأرض يدوران مدار المعرفة والتقوى، وأما العلم والتقدم فهو من لوازمها، وهنا يظهر الفرق بين النظرة الدينية للأمور والنظرة المادية، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾[3] دلالة صريحة على أن للسماء أبواباً يولج من خلالها إلى عوالمها وأسرارها، ولكن فتح هذه الأبواب يتعذر على المكذبين بآيات الله سبحانه، ومفهومه أن فتحها على المصدقين ممكن وواقع، وآيات الله تتحقق في أجلى معانيها وأكمل مصاديقها بولي الزمان صلوات الله عليه؛ لأنه الآية العظمى للباري بما تتجلى فيه من صفاته.

وفي آية أخرى دلالة أصرح على أن الفتح يشمل أبواب الأرض أيضاً؛

١ - معجم أحاديث المهدي عليه السلام: ج٣، ص١٠٢، الرقم(٦٤٤).
٢ - مكيال المكارم: ج٢١، ص٥٠٤.
٣ - سورة الأعراف: الآية ٤٠.

إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1] ومنطوقها الشرطي صريح في الملازمة بين الأمرين، والشرط هو المعرفة والطاعة، والجزاء هو فتح بركات السماء والأرض، والإخبار المتضمن للوعد كاشف عن حتمية الوقوع، وواضح أن هذه الحتمية لا تحصل في المراتب الدانية من المعرفة والطاعة؛ لقضاء الضرورة بحصولها قبل الظهور مع عدم ملازمة النتيجة لها.

فلابد وأن يكون في مراتبها الكاملة، وهو لا يحصل إلاّ في عصره صلوات الله عليه، وهو ما يستفاد من وصف الإمام الحسين عليه السلام في زمن الرجعة أيضاً؛ إذ قال - في حديث طويل - : «ولتنزلن البركة من السماء إلى الأرض حتى إن الشجرة لتقصف بما يريد الله فيها من الثمر، وليأكلن ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء»[2] وظاهرها أن الشجرة من نفسها بدون فعل البشر وتكييف الأجواء وإعداد المقدمات كما هو معهود اليوم، أو أن الشجرة الواحدة تنتج ثمرة الصيف والشتاء معاً، كأن تعطي شجرة الخوخ - مثلاً - البرتقال والليمون أيضاً وبالعكس.

وظهور البركة يعود إلى سببين:

أحدهما: غيبي، بأن يبارك الله سبحانه بنعم الوجود حتى تستقر وتدوم ويستفيد منها الناس غاية الاستفادة، وإليه تعود أقوال المفسرين الذين فسروا البركة بالمطر وخيرات الأرض، والذين فسروها بإجابة الدعاء وحل مشاكل

١ - سورة الأعراف: الآية ٩٦.

٢ - الخرائج والجرائح: ج٢، ص٨٤٩-٨٥٠، ح٦٣؛ مختصر بصائر الدرجات: ص٥١.

الحياة، ومن فسر بركات السماء بالمعنويات وبركات الأرض بالماديات.

ثانيهما: بشري، وذلك لأن سيادة الإيمان والتقوى على التصرفات البشرية توجب صرف الطاقات والخيرات في الموارد الإيجابية واجتناب الصرف السلبي، فالمؤمن لا يصرف أمواله في تجارة الخمر والمخدرات والأسلحة، ولا يشغل طاقاته وخبراته في صناعة الحروب وإفساد المجتمعات لأجل مزيد من بيع الأسلحة والخمور والمخدرات، وإنما يصرفها في بناء المدارس والمستشفيات وزراعة الأرض وهكذا، وهذا من شأنه أن يظهر البركة في الأرض والسماء.

وفي عصر ولي الزمان عجل الله فرجه حيث يؤمن الإنسان ويكتمل تظهر البركة بنحويها على يديه، فتزدهر الحضارة، وتعتمر الأرض بالقسط والعدل.

ويتحصل من مضمون الآيتين أن الإيمان والتقوى هما مفاتيح الخيرات والبركات الأرضية والسماوية، والمراد من الإيمان والتقوى المعنى الخاص، أي معرفة الإمام عليه السلام والتسليم لأمره؛ لأنها خلاصة العقيدة الحقة والطاعة الصحيحة المقبولة، وبما أن رسالة الإمام عليه السلام هي إكمال البشر وإيصالهم إلى غايتهم الإلهية تلازمها الخيرات والبركات، ولا يبقى فقر أو جوع أو مرض أو خوف أو عناء، وكذلك الصعوبات، وتتسخر الأشياء.

وفي رواية سورة عن أبي جعفر عليه السلام ما يشير إلى ذلك؛ إذ قال عليه السلام: «أما إن ذا القرنين قد خُير السحابين فاختار الذلول وذُخر لصاحبكم الصعب» قال: قلت: وما الصعب؟ قال: «ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة أو برق، فصاحبكم يركبه. أما إنه سيركب السحاب ويرقى في الأسباب أسباب

السماوات السبع والأرضين السبع»[1] وهي تدل بالدلالات اللفظية الثلاث على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الأشياء تتسخر لولي الزمان عجل الله فرجه، وينقاد لأمره الصعاب من الموجودات أجساماً كانت أو طاقات، وهي في الوقت الذي تشير إلى علو مقامه ومنزلته فإنها تشير إلى أن هذا المقام لا يناله الناس إلاّ بصعوبات ومجاهدات؛ لأن ركوب الصعب لصاحب الزمان ينعكس ذلك على أهل الزمان بالملازمة، ولا يخلو ذلك من إشارة إلى شدة الامتحان والابتلاء الذي سيمر به الناس في ظهوره صلوات الله عليه.

الحقيقة الثانية: أنه عليه السلام سيأتي بآيات كونية يسخرها له ولأهل زمانه، وبه تتحقق غايتان:

الأولى: إثبات حجيته وصدق دعوته صلوات الله عليه، فلا يبقى عذر لأحد من الناس إذا جحده أو عانده.

والثانية: إمضاء السنن الإلهية في الظهور من تكميل البشر علمياً وحضارياً وإيصالهم إلى المقامات الروحانية العالية إعداداً لعالم الآخرة.

ولا يخفى أن ركوب السحاب لابد وأن يكون خارقاً لما توصل إليه العلم اليوم من ركوب الهواء والفضاء عبر الطائرات والمركبات الفضائية ونحوها وإلاّ لم يكن ميزة له وخصوصية، ولعل ركوب السحاب سيكون عبر تسخير السحاب، فينتقل الإنسان بواسطته مباشرة من دون الاستعانة

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٢١، ح٢٧؛ بصائر الدرجات: ص٤٢٩، ح٣؛ الاختصاص: ص١٩٩.

بطائرة أو مركبة ونحوهما، أو أن يكون للسحاب فهم وشعور فيستجيب لإرادة الإنسان، ويتوجه إلى ما يريد من دون حاجة إلى قائد.

الحقيقة الثالثة: أنه عليه السلام لا يسخر الوجود بطاقته الروحانية الإلهية بما أنه ولي على الوجود وواسطة الفيض، بل يسلك سبيل الأسباب والمسببات بفتح أبواب جديدة للعلم والمعرفة لم يعرفها الناس من قبل، ولعل هذا العلم من الحروف السبعة والعشرين التي سيظهرها في ظهوره الميمون، فالعلم الذي يأتي به صلوات الله عليه يرتقي به السماوات السبع، ويخترق الأرضين السبع، وفيه دلالة على أن العلم في زمنه يستوعب كل الوجود، ولا تبقى مواضع مجهولة لا يعلمها الناس من أسباب السموات أو أسباب الأرض.

وتتوافق هذه النتيجة مع مضمون الروايات التي نصت على أنه عليه السلام يحكم بالواقعيات، وأن الناس يشاهدونه من كل مكان، ويسمعون صوته، وكل ما في الأرض يثمر وتتكلم الجمادات، وتتآلف الحيوانات، وهذا المعنى متضافر في أخبارنا، وكذا في أخبار العامة، ففي رواية أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله١: «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»[1] وهي محمولة على ساعة الظهور؛ لمناسبة الحكم والموضوع أو القرينة العقلية، لعدم الحاجة إلى النطق في القيامة، أو بقرينة الروايات الأخرى، ولعل المراد من الأسباب الحقائق الوجودية الموجودة فيهما، أو القواعد والقوانين الحاكمة في السموات والأرضين، أو كلاهما وهو الأقوى.

١ - ينابيع المودة: ج٣، ص٢٥٨، ح١٣؛ وانظر الثاقب في المناقب: ص٧٢، ح١.

إن قلت: إن ما أفادته الآية الشريفة من تعليق بركات السماء والأرض على الإيمان والتقوى منقوض بأمرين:

الأول: عدم ظهور البركات السماوية والأرضية على المسلمين مع أنهم مؤمنون.

الثاني: ظهور الخيرات والبركات في بلاد الكفار؛ إذ يتنعم شعوب تلك البلاد بالرفاه والرخاء والتقدم العلمي.

والجواب: أن النقض مبني على توهم خاطئ لا أساس له من الصحة، وذلك لأنا لا نسلّم أن الشعوب غير المؤمنة ترفل بالرفاه وتعيش سعيدة تغمرها بركات السماء والأرض، كما لا نسلم أن المجتمعات المسلمة محرومة من ذلك.

لمجهولية مفهوم البركة المقصودة هنا، وهل هي البركة المادية فقط أم تشمل المعنوية أوهما معاً بشرط الانضمام، ولا إشكال في أنها ليست الأولى وحدها ولا الثانية وحدها، فلابد وأن تكون الثالثة والمجتمعات غير المؤمنة محرومة منها؛ لأن التقدم والرفاه الحاصل مادي بحت، وكلما ازداد العالم توغلاً في المادة تراجع عن القيم والمبادئ المعنوية، وفي هذا خسارة كبرى تنفي البركة، أو تمنع من نزولها وظهورها.

والواقع الخارجي لحياة تلك المجتمعات وما يعيشه الناس في تلك البلاد من اضطراب وقلق وخوف وقتل وأمراض بدنية ونفسية كالكآبة والتوحد ومشاكل أسرية ونحوها يكفي شاهداً لهذه الحقيقة، والبركة إنما تكون كذلك على الإنسان إذا تمكن من التنعم بها في خير وسلامة وعافية منه، وإلاّ

كانت كسائر الأشياء التي يتعامل معها، ومن الواضح أن الخوف والقلق والأمراض ونحوها تسلب من الإنسان راحة البال والاستقرار النفسي بما يجعله قلقاً غير آمن على نفسه ولا على مستقبله.

فتصور أن العالم الغربي أو الشرقي عالم سعيد مغمور بالبركات السماوية والأرضية خاطئ ناشئ من التضييق في مفهوم البركة وتحديد معناها بالبعد المادي، وأما مجتمعاتنا فهي في الحقيقة ليست مؤمنة بالمعنى المصطلح وإن كانت مسلمة، وذلك لأن الإيمان بالمعنى الخاص هو معرفة حجة الله صلوات الله عليه والتسليم لأمره، وهذا ما لم يتحقق إلاّ للقليل النادر، فإن المسلمين في عقيدتهم به على أصناف: صنف يعتقد به ويواليه ولكنه لا يعرفه ولا يطيعه بناء على أن الاعتقاد غير المعرفة، وآخر قد يعرفه ولا يطيعه كما ينبغي، وصنف لا يعتقد به، فالذي يعرفه ويطيعه قليل نادر، فالأكثر من الأمة لم تأخذ بالإيمان والتقوى بالمعنى المقصود، والآية الشريفة ناظرة إلى النهج العام لا القليل النادر.

ويتحصل مما تقدم: أن مهمة إيصال الموجودات إلى كمالها وغاياتها الوجودية لا تأتي من كل أحد مهما بلغ من العلم، ولا تنهض بأعبائها جامعات العالم ولا وسائله الحضارية، وإنما هو دور إلهي عظيم مدخر لرجل إلهي يمثل مظهر الأسماء الإلهية، ويملك مفاتيح السماوات والأرض، ومطلع على أسرارهما.

فإذا بسط خلافته على الأرض بالعلم والقدرة فإن الوجود كله يتآلف وتتوافق القوانين والسنن، وتظهر البركات في السموات والأرض، وتدين

له جميع الموجودات بالمعرفة والمحبة والطاعة، فيرتقي بها أسباب السموات السبع والأرضين السبع.

وقد ضرب الباري عز وجل مثلاً مصغراً لهذه الحقيقة في قصة سليمان عليه السلام؛ إذ سخر له الجماد والحيوان والهواء، وبسط له الحكم ليضرب به المثل إلى الحكام والسلاطين والقادة الذين تغرهم الدنيا، ويأسرهم الحكم والسلطان فيبتعدون عن نهج السنن الإلهية، فيظلمون ويجورون ويضيعون رعاياهم بعد أن يضيعوا أنفسهم ويقودوا الناس إلى الدمار كما هو واقع على الأرض منذ فجر التاريخ البشري ولا زال في تنامٍ وتكاثر وتعاظم، ويذكرهم بأن الحاكم إذا عرف الله وأطاعه وأخذ بأسباب العدل فإن الله سبحانه يفتح عليه خزائن السماوات والأرض، ويسخر له الجن والطير جنوداً له فضلاً عن الأنس؛ لأن العدل سبب الكمال والاستقرار وتنامي الطاقات وظهور الخيرات، لا الظلم والفساد وأجهزة المخابرات والأعلام الكاذب؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1] وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[2] وفي أخرى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[3].

وهذا هو الواقع الذي يلازم كمال المخلوقات؛ بداهة أن كل نزاع أو صراع أو ظلم أو فساد ناشئ من النقص، وأما الكمال فهو ملازم للعلم والعدل والحكمة والرحمة، فلو أكمل ولي الله الأعظم عجل الله فرجه البشر وسائر الموجودات

١ - سورة النمل: الآية ١٧.
٢ - سورة سبأ: الآية ١٢.
٣ - سورة ص: الآية ٣٦.

لا يمكن للكون إلاّ أن يكون مترابطاً ومتكاملاً في أدواره ومهامه، ولا تملك السماء إلاّ أن تظهر بركاتها، ولا تملك الأرض إلاّ أن تظهر خيراتها، ويسود الأمن والنظام والرقي الحضاري، وهذا سبب آخر لنشر القسط والعدل في زمنه صلوات الله عليه.

وواضح أن كل ما تحقق لسليمان عليه السلام من الانجازات العظمى في تسخير الموجودات يعد صغيراً بالقياس إلى المهدي صلوات الله عليه؛ لأنه أشرف وأعظم، ورسالته أكبر وأوسع، وعلمه يفوق علم سليمان بخمس وعشرين حرفاً على ما تقدم، وبذلك يتضح أن بعض الآيات الكونية التي تظهر في زمنه كطلوع الشمس من المغرب قد تكون ناشئة من الرقي العلمي، فتدبر.

المطلب الثالث: خلافة المهدي

عرفنا أن المعصوم هو خليفة الله في الأرض، وأن هذه الخلافة ناشئة من الشخصية الحقيقية والحقوقية للمعصوم، فإن المعصوم بما هو إنسان بشر وله خصوصيات الإنسان الأرضي، ولكن من حيث إنه حجة الله على الأرض يملك خصوصيات ملكوتية أسمى من الملائكة.

ومنه نعرف أيضاً أن الأكمل الأسمى في الملكوت هو الأسمى والأكمل في الملك بالأولوية، فحكومته على عالم الملكوت أوسع وأشمل من حكومته على عالم الملك؛ نظراً إلى التفاوت بين العالمين في السعة الوجودية وفي الآثار، ويعرف أيضاً أن خليفة الله في الملكوت هو خليفته في الأرض، فلذا أجمعت الشرائع والأديان واتفقت العقول السليمة على أن لا حكومة في الأرض إلاّ حكومة الله، ولا حاكم ولا خليفة إلاّ المعصوم، ولذا جعل الله سبحانه مقام الخلافة لآدم قبل أن يخلقه، وأخضع الملائكة وهي من أشرف مخلوقاته إليه، وميزه عليها بالعلم والمعرفة، وأبان فضله ومزاياه الإلهية على سائر الخلق. كل ذلك يستفاد من قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ

إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1].

وتحقيق المعنى يتوقف على بيان معنى الخلافة، وهي في اللغة والعرف والمصطلح النيابة عن الغير، والخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه بسبب غيبة المنوب عنه أو موته أو عجزه، أو لغرض تشريف النائب والمستخلف، وعلى هذا الوجه استخلف الله أولياءه في الأرض[2]، والعقل يقضي بامتناع نسبة الثلاثة الأولى إلى الخالق عز وجل، والحق أن دواعي الخلافة عن الله سبحانه أعم مما ذكر؛ إذ تشمل التشريف والتشريع والتدبير، فالخليفة عنه سبحانه يتشرف على الخلق، ويبلغ حجته، ويشرع الأحكام، ويدبر شؤونهم تكويناً، ويهديهم سبيله، ويأمرهم بطاعته تشريعاً، ويشهد عليهم، ويحاسبهم قضاءً وجزاءً على ما مر تفصيله في بحث مقامات الأنبياء والأئمة، وهو ما يقضي به العقل؛ لأن الخلافة عنه سبحانه نيابة عنه في كل ذلك، واقتداء به، وتخلق بأخلاقه تبارك وتعالى ولعل تعريف بعض الأصحاب الخلافة بأنها الاقتداء به تعالى - على قدر الطاقة البشرية - في تحري الأفعال الإلهية[3] يريد به ما ذكرنا.

---

١ - سورة البقرة: الآيات ٣٠- ٣٤.

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٤، (خلف).

٣ - انظر الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص٢٩.

وهذا ما يقضي به العقل؛ لأن الغاية من الاستخلاف لا تتحقق إلاّ إذا كانت صلاحيات الخليفة واسعة تشمل التشريع والتكوين، ومن هنا قلنا إن الخلافة عن الله سبحانه مختصة بالمعصوم، فالخلافة المعنية بالآية هي مرتبتها العالية، أي الخلافة عن الله سبحانه لا الخلافة في مرتبتها الدانية، أي الخلافة عن مخلوق أرضي كان قبل آدم كالجن أو غيرهم انقرض وجوده، فأراد الله سبحانه أن يخلفه بالإنسان كما ذهب إليه بعض المفسرين، وحكي رواية عن ابن عباس[1]، وذلك لسببين:

الأول: اسم الفاعل (جاعل) في مادته وهيئته دال على أن الخلافة هنا مقام تشريفي بعد الخلق والإيجاد وليس ذات الخلق، فلو كان المقصود هو استخلاف الموجود السابق بالإنسان لكان الأولى التعبير (بخالق) ولذا فهم الملائكة منه أن الخليفة يمتلك سلطة على التصرف والتدبير فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ إذ لا معنى لهذا القول لو لم يفهموا منه الخلافة السلطوية لا الخلق.

الثاني: أن الملائكة فهموا أن الخلافة عن الله سبحانه لا عن مخلوق أرضي آخر، وذلك لأنهم فهموا عدم التناسب بين الخليفة وبين المستخلف عنه، فإن الإنسان بما أنه موجود أرضي ومجبول بالشهوة والغريزة فإنه سيقع في الظلم والفساد وسفك الدماء، فلا يتناسب مع مقام الخالق تبارك وتعالى المتنزه عن كل ذلك، فلما رأت الملائكة عدم التناسب بين الأمرين استغربوا استخلافه؛ بداهة أن الخليفة لا بد وأن يماثل المستخلف في الخصوصيات والصفات،

١ - انظر تفسير الرازي: ج٢، ص١٦٥.

فالأنسب بهذا المقام هم الملائكة؛ لأنهم مقدسون منزهون لا الإنسان المفسد؛ لذا قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1].

وباختصار: أن الملائكة عجبوا من أن يكون المصنوع من التراب المجبول بالنواقص خليفة رب الأرباب، والأليق بخلافته هم الملائكة؛ لأنهم منزهون مقدسون.

فالسياق والتحاور والتبرير الذي ذكره الملائكة خير دليل على أن الخلافة المعنية في الآية ليست المرتبة الدانية منها، بل أعلى مراتب الخلافة وهي الخلافة عن الله سبحانه، ولازم ذلك أن يكون الخليفة قائماً مقامه سبحانه في الأرض، ومظهراً لكماله وجلاله، ومتخلقاً بأخلاقه، وبيده مقاليد الأمور ومفاتيح الخزائن الأرضية والسماوية، والكون طوع أمره ونهيه.

ومن هنا قلنا إن المراد من الخلافة هنا أوسع من المعنى اللغوي والعرفي، بل هو معنى خاص من قبيل الحقائق الشرعية الخاصة المستفادة من النصوص، ويراد بها أن يكون الخليفة نائباً عن الله سبحانه في الأرض، وعليه تنعكس آياته الجمالية والجلالية، وله ولاية عامة على الكون، وهو لا يكون إلاّ ولياً معصوماً، ولذا وصف بالاسم الأعظم.

وواضح أن هذا المقام فوق مقام الملائكة، وأعلى من استعدادها[2]، وهذه الفوقية ناشئة من العلم؛ إذ علمه الباري عز وجل الأسماء كلها، وصيغة

---

١ - سورة البقرة: الآية ٣٠.

٢ - انظر مواهب الرحمن: ج١، ص٢١٠؛ روح المعاني: ج١، ص٢٢٣.

الجمع المحلى باللام والمؤكد بأداة الجمع الاستغراقي (كل) تدل على أنه تعلم كل شيء يمكن أن يعرفه الخليفة، أو يأذن الله به، وهذا يستدعي أن يكون علمه سبحانه حقائق الأسماء بما لها من صفات وخواص وآثار وقوانين تحكمها، أو علمه الأسماء الإلهية الحسنى التي عليها يدور الوجود ونظامه التكويني والتشريعي، أو هما معاً باعتبار الرتبة الطولية؛ لأن معرفة الأسماء الإلهية ملازم لمعرفة آثارها، أو باعتبار المظهرية.

وأما القول بأن المراد من الأسماء اللغة والألفاظ أو معاني الألفاظ ففي غاية الضعف، بل يتنافى مع مقام التشريف؛ إذ إن معرفتها لا يوجب رجحان المخلوق من طين كالفخار على الملائكة الذين خلقوا من نور وهم معصومون ومقدسون. هذا كله بحسب ما يستفاد من منطوق الآية، إلاّ أن الروايات الشريفة فسرت الأسماء بمحمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ففي كمال الدين بإسناده عن الصادق عليه السلام: «أن الله تبارك وتعالى علّم آدم عليه السلام أسماء حجج الله كلها، ثم عرضهم - وهم أرواح- على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله تعالى ذكره، فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته، ثم غيبهم عن أبصارهم، واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم»[1].

١ - كمال الدين: ص١٣ - ١٥.

ويعضد مدلول الرواية ضمير الجمع في قوله (ثم عرضهم) فإنه يطلق على جماعة العقلاء، وسكوت الملائكة وإقرارهم بعدم العلم لما وجدوه من التناسب بين الخليفة والمستخلف، والرواية دالة على ما ذكرناه من أن الخليفة عن الله هو المعصوم لا غير، وأن معرفة المعصوم ومحبته وطاعته هو سبيل الرضا والقرب من المولى وبلوغ المراتب الكمالية التي تفتح خزائن العلوم وتسخر الأشياء.

وأما ما ورد في رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام في أن الخليفة هو الجن والنسناس[1] فلا ينافي ما ذكرناه؛ لعدم التنافي بين المعنيين لكونهما مثبتين لاسيما على القول بجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى لتعلق الإرادة بهما معاً، ودخولهما في الغاية، وهو ما يشهد له قوله عليه السلام في ذات الرواية في بيان معنى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قال عليه السلام: «إني أريد أن أخلق خلقاً بيدي أجعل ذريته أنبياء مرسلين، وعباداً صالحين، وأئمة مهتدين. أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي ينهونهم عن المعاصي، وينذرونهم عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، وأجعلهم حجة لي عذراً أو نذراً»[2].

أو أن هذه تحمل على الظاهر، وأما ما ذكرناه فيحمل على التأويل أو الباطن، ومن منطوق الآية يستفاد عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الخلافة الإلهية الثابتة لحجج الله لا تختص بالأرض وإن

١ - علل الشرائع: ج١، ١٠٤ - ١٠٥، ح١.
٢ - علل الشرائع: ج١، ١٠٤ - ١٠٥، ح١.

كان الخليفة بحسب وجوده البشري موجوداً أرضياً وقد جعلت الخلافة في الأرض كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلاّ أن الأرض ظرف الخلافة ومحل ظهورها، وأما سلطتها وقدراتها وصلاحياتها فهي تشمل كل الوجود، فالأرض ليست حداً للخلافة، بل مظهراً أو ظرفاً.

وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[1] لا يقيدها؛ لأنه ناظر إلى الحكومة الأرضية بقرينة قوله: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ بخلاف آية البقرة فإنها بقرينة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[2] ناظرة إلى الخلافة بمعناها الواسع الشامل للملك والملكوت.

الحقيقة الثانية: أن اتصال الخليفة الإلهي بالله سبحانه مباشر، فلا توجد واسطة اتصال بينهما، بل هو الواسطة للغير، ولذا علمه بالأسماء تعليماً مباشراً من دون أن تتوسطه الملائكة أو غيرها، ومنه يعرف بأن مقام الخلافة أعظم من مقام النبوة والرسالة؛ لأن التعليم فيهما يتم عبر الوسائط كالوحي والملك، أو من وراء حجاب، إلاّ أن مقام الخلافة فالتعليم فيه مباشر، وهل التعليم يتم بالإلهام أم بالإحاطة الوجودية والعلم الحضوري أم بالعلم اللدني الناشئ من نورانية الذات؟ احتمالات، والاطلاق يشملها جميعاً، والقول باختلافه بحسب مراتب الخلفاء ومقاماتهم غير بعيد، فإن مثل مقام النبي المصطفى صلى الله عليه وآله تعليمه لدني، وهو أعلى المراتب، وأما المراتب الأدنى فقد تقع بالثاني أو بالثالث، أو أن التعليم يختلف بحسب الحالات، فتارة يكون بالأول، وتارة بالثاني، وأخرى بالثالث كما تقدم تفصيله في مباحث العلم.

---

١ - سورة ص: الآية ٢٦.

٢ - سورة البقرة: الآية ٣١.

الحقيقة الثالثة: أن الخلافة الإلهية ملازمة للوجود الإمكاني قبل الخليقة ومعها وبعدها كما وردت به النصوص[١] إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. تشهد لها الجملة الاسمية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢] وصيغة اسم الفاعل والإطلاق تفيدان الدوام والاستمرار، وهو ما ورد مضمونه في الأخبار الشريفة[٣].

ولو حمل السجود الذي أمر به الملائكة على الخضوع والتسليم والطاعة دلت على استمراره في جميع الأزمنة والأمكنة، فتثبت ولايته على الملائكة وخضوعها له، فسجود الملائكة لآدم لا ينحصر بهيئة السجود التي تقع في وقت دون آخر والتي هي السجود المصطلح، وإنما هو السجود بالمعنى اللغوي الذي يقتضي الدوام والاستمرار بما يدل على أنها سنّة إلهية حاكمة في نظام التكوين جُبِل عليها الوجود في أن الملائكة تكون جنوداً في تدبير هذا النظام، وأمرها بيد خليفة الله وحجته، وقد مر عليك تفصيل الكلام في أفضلية المعصوم على الملائكة حتى المقربين منهم، وتضافرت به الأخبار المعتبرة.

فعن الباقر عليه السلام: «والله ما ترك الله الأرض منذ قبض الله آدم إلاّ وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو حجة الله على عباده، ولا تبقى الأرض بغير حجة

---

١ - انظر كمال الدين: ص٢٢١، ح٥؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٨، ح٦٦.

٢ - سورة البقرة: الآية ٣٠.

٣ - نظير قولهم عليهم السلام: «إن الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق»، الكافي: ج١، ص١٩٧، ح١١.

لله على عباده»[١] وفي رواية أخرى: «ولو بقيت الأرض يوماً بلا إمام منّا لساخت بأهلها، ولعذبهم الله بأشد عذابه. إن الله تبارك وتعالى جعلنا حجة في أرضه وأماناً في الأرض لأهل الأرض لم يزالوا في أمان من أن تسيخ بهم الأرض ما دمنا بين أظهرهم»[٢].

وهذا المضمون متواتر في الروايات[٣]، إذ تتفق على أن الإمامة والإمام لا يقتصر دورهما على قيادة الأمة وهدايتها وتبليغ الأحكام كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، ولعله المعروف المشهور، وإنما دوره يتعلق بعالم التكوين، فإن وجود الكون وقيام نظامه وثبوته واستقراره يتقوم بوجود الإمام عليه السلام، فلو ارتفع من الأرض اختل نظامها، وساخت بأهلها، ونزل بالناس أشد العذاب ونزول العذاب بهم إما جملة خبرية تشير إلى ما يصيب الأرض من الدمار تكويناً بسبب غياب قطب رحى الوجود وقلب عالم الإمكان، وإما تشير إلى استحقاقهم العذاب لأنهم يموتون ضلالاً لا يعرفون إمام زمانهم، أو لأن فقدانه نشأ من خذلانهم وقتلهم له كما هو معروف من سيرة أهل الأرض في قتل الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وقد فصلنا البحث في هذه الحقيقة فيما تقدم.

ومن ذلك يتضح بطلان نظرية العامة الذين قصروا الخلافة على خلافة النبي صلى الله عليه وآله، وحددوها في فروع الدين والقيادة السياسية للمجتمع، وعلقوا

١ - علل الشرائع: ج١، ص١٩٧، ح١١؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٢، ٢٥.
٢ - كمال الدين: ص٢٠٤، ح١٤؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٧، ح٦٤.
٣ - انظر علل الشرائع: ج١، ص١٩٧، ح١٢؛ كمال الدين: ص١٣٣ - ١٣٥؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٢ وما بعدها.

مشروعيتها على إرادة الأمة وبيعتها، أو الغلبة والقوة ونحوهما، بل اتضح مما تقدم أن هذه النظرية في غاية الضعف والبعد عن مكانة الخلافة الإلهية التي أسسها القرآن والسنّة وكشف عن جوهرها تكويناً وتشريعاً، كما يتضح شدة القصور في قول من حصر الخلافة بالإمامة في بعد تبليغ الأحكام وإقامة الدين وتقويم الأمة كما عليه بعض أصحابنا المتكلمين؛ إذ عرفها بأنها رئاسة عامة في شؤون الدين والدنيا، فإن الإمامة خلافة عن الله سبحانه في تدبير العالم ببعديه التكويني والتشريعي، وما من صغيرة وكبيرة سابقة أو حادثة إلاّ وترجع إليهم بإذن الله سبحانه باعتبار مظهريتهم لكماله وجلاله ولأسمائه الحسنى، أو باعتبار مراتبهم الطولية وواسطيتهم في الفيض، فلولاهم لم يكن مخلوق ولا حكم ولا شريعة.

وهو ما يستفاد من قول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «نحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة، ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها»[1] فإن الباء سببية، وهي تحتمل المعاني الثلاثة المذكورة، سوى أن السببية في المظهرية مباشرة وفي الوساطة أعم.

الحقيقة الرابعة: أن الخليفة الإلهي لابد وأن يطلع على الموجودات، ويحيط بها إحاطة علمية وسلطوية، ويمتلك قدرة على التصرف فيها، وواضح أن هذه الإحاطة والقدرة من مقاماته المعنوية وشؤونه الروحية، فلذا لا يؤثر في

١ - الأمالي (للصدوق): ص٢٥٢- ٢٥٣، ح١٥؛ روضة الواعظين: ص١٩٩.

ذلك كون الإمام حياً في صورته الجسدية على الأرض، أو ميتاً؛ لأن المقامات الروحية لا تموت، والموت الجسدي ليس موتاً حقيقياً بمعنى الفناء، بل انفصال الروح عن الجسد وانتقال من عالم إلى عالم أرفع وأرقى، فلذا لا يؤثر الموت الظاهر أو الغياب في سلطة الإمام عليه السلام ولا في تصرفه في شؤون الكون وتدبيره، ولا يحجبه من سماعه ونظره للأشياء كون روحه في جسدها أم مفارقة له، وهو ما أكده قول الباقر عليه السلام: «إن الحجة لا تقوم لله عز وجل على خلقه إلاّ بإمام حي يعرفونه»[1] وعليه فلو فارق الإمام الخلق مفارقة حقيقية أو انقطع اتصاله بهم تبطل الحجة الإلهية، وينتفي الغرض من إيجاد الخلق وإنزال الكتب وإرسال الأنبياء.

فلا يعقل أن يفارق الإمام عليه السلام الخليقة أو يغيب عنها غياباً حقيقياً، وإنما قد يختفي عن أنظار الناس بشخصه، أو يختفي بعنوانه، فيراه الناس ولكنهم لا يعرفونه، إلاّ أن هذا الاختفاء لا يمنع من دوره التكويني والتشريعي، ولا يقطع تأثيره عن العالم، ولذا وصفه الإمام زين العابدين عليه السلام حين سئل عن فائدة الإمام في زمن الغيبة فأجاب: «كفائدة الشمس إذا سترها السحاب»[2] إذ من الواضح أن السحاب قد يحجب قرص الشمس عن الرؤية، ولكنه لا يمنع من تأثيرها في الوجود منع؛ لأن الاحتجاب الحاصل لم ينشأ من الشمس نفسها، بل من وجود المانع، فكذلك الإمام عليه السلام، وبذلك يصبح السؤال عن فائدة الغيبة وكيف يؤثر الإمام الغائب عليه السلام باطلاً في نفسه.

ويتحصل: أن الخلافة الإلهية في المنظور القرآني ليست مجرد حكومة أو

١ - قرب الإسناد: ص١٥٣؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٠، ح٤٧.
٢ - بحار الأنوار: ج٢٣، ص٦، ح١٠.

قيادة تختص بأمور الدنيا أو الدين والدنيا، بل هي حقيقة تكوينية ومقام إلهي حاكم على نظام الوجود، وإليه ترجع الحركة والفعل والتأثير والأثر في هذا العالم، وتعايش الخليقة منذ نشأتها إلى خاتمتها، وهي تمارس دورها، وتقوم بوظائفها الإلهية لا يخل بها موت أو مرض أو قتل أو سجن أو نفي، وسواء انتبه الناس لذلك أم غفلوا، وعلموا بذلك أم جهلوا، وأقروا بذلك أو أنكروا، ويترتب على هذه الحقيقة عدة نتائج هامة:

النتيجة الأولى: أن الخلافة والإمامة جعل إلهي واختيار رباني ليس للبشر فيه دور أو اختيار.

النتيجة الثانية: أن الخليفة ينوب عن الله سبحانه في تدبير شؤون الخلق والوجود تكويناً وتشريعاً، فلابد وأن يكون أفضل خلقه وأشرف موجوداته وأكملهم علماً وطاعة ونزاهة، بل لابد وأن يكون مظهر الجمال والجلال الإلهيين.

النتيجة الثالثة: أن الخليفة هو المعصوم، والخلفاء هم المعصومون، أعلاهم رتبة رسول الله ﷺ تبتدئ به، وتختتم بخاتم الأوصياء المهدي المنتظر عجل الله فرجه كما مر تفصيله، وواضح أن هذه النتيجة ليست عقلية أو اختيارية، بل هي نتيجة يرجع فيها إلى التعيين الإلهي، ولا يكشف عنه إلاّ الدليل النقلي، وقد عرفت أن النصوص الشرعية متواترة في دلالتها على أن أعلى مراتب الخلفاء هو محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله. تبتدئ سلسلة الخلافة من المصطفى ﷺ وتختتم بالمهدي عجل الله فرجه وهو آخر شخص إلهي تختتم به الرسالات السماوية، وينتهي بظهوره أمد الدنيا، ويتهيأ العالم للحشر على تفصيل ستعرفه في مباحث المعاد.

النتيجة الرابعة: أن تسمية العامة من خلف النبي صلى الله عليه وآله بالحكم بالخليفة فضلاً عن وصفه بالراشد في غاية البعد عن المفهوم القرآني للخلافة، فإن الخلافة بالمعنى المذكور مناقضة للخلافة عن الله ورسول الله صلى الله عليه وآله تمام التناقض، إلاّ خلافة مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأن شخصيته ومقاماته المعنوية تطابق شخصية النبي ومقاماته إلاّ النبوة، بل هو أخوه ونفسه ولو أنصف القوم أو احتكموا إلى الحياد العلمي أو براهين العقل أو أذعنوا للنصوص المتواترة لتوصلوا إلى هذه الحقيقة، إلاّ أن القصور يمنع بعضاً منهم، والتقصير يمنع بعضاً، والعناد يمنع آخرين، ولله الحجة البالغة عليهم.

المبحث الثاني
في خصائص الإمام المهدي عليه السلام وآثارها التكوينية

يختص الإمام المهدي عليه السلام بخصائص ومقامات إلهية عظيمة كشفت عنها الأخبار الشريفة[1]، نتعرض إلى ثلاثة منها لأنها الأبرز أو الأكثر أثراً أو وروداً في النصوص الشرعية، أو الأكثر حضوراً في الأذهان والمحافل العلمية، أو لكونها الأصل للمقامات الأخرى، أو لكونها من خصوصياته عليه السلام أو لكل ذلك وهي:

١ـ الولاية على الزمان.

٢ـ الولاية على العصر.

٣ـ الولاية على الأمر.

وتسميته صلوات الله عليه بصاحب الزمان وصاحب العصر وصاحب الأمر ناشئة منها، ومن الواضح أن هذه التسمية حيث جاءت عن المعصوم كشفت عن وجود خصوصيات خاصة ومقام إلهي ولم تأت جزافاً، وكيف كان فإن البحث في هذه المقامات ينتظم في مطالب:

---

١ - انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٩٨، (صحب).

المطلب الأول: في ولايته على الزمان

عرفنا في الأبحاث السابقة معنى الولاية والولي إلاّ أن ما يهمنا هو معرفة المقصود من وصفه صلوات الله عليه بصاحب الزمان، والآثار التكوينية المترتبة على هذا الاسم المبارك.

فنقول: الصاحب في اللغة عرف بالملازم إنساناً كان أو حيواناً أو مكاناً أو زماناً، ولا يقال في العرف إلاّ لمن كثرت ملازمته، ولذا يقال لمالك الشيء صاحبه، وكذا لمن يملك التصرف فيه[1]، وأما الزمان فمعناه في اللغة والعرف العام ظاهر ويطلق على كثير الوقت وقليله كما يطلق على مدة الدنيا كلها[2].

وأما تعريفه في الاصطلاح فقد اختلف فيه أهل المعقول، واضطربت آراؤهم كثيراً، والتعريف المشهور بينهم ما عن ارسطو إذ عرفه بأنه مقدار حركة الفلك الأعظم، ولعله يتوافق مع قول المتكلمين بأنه أمر اعتباري موهوم ليس موجوداً[3]، باعتبار أن السكون لا عد له، فإذا انطلقت حركة

---

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٧٥- ٤٧٦، (صحب)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٥٦٣، (صحب)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥٠٧، (صحب).

٢ - لسان العرب: ج١٣، ص١٩٩، (زمن)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٢٦١، (زمن)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٠١، (زمن).

٣ - انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج١، ص٩٠٩- ٩١٠؛ المطالب العالية من العلم الإلهي: ج٥،ص ٩.

الفلك في الكون الأول حسبت زماناً اعتباراً، فإذا انتقلت إلى الكون الثاني حسبت زماناً ثانياً وهكذا، وعليه فمعنى صاحب الزمان هو الملازم له كناية عن حياته الدائمة ومالكيته للتصرف فيه وقيمومته عليه.

وقد يقال بعدم الدليل على أن الروايات وصفت بقية الله بصاحب الزمان بالمعنى الاصطلاحي، فحينئذ يحمل على المعنى اللغوي على ما تقتضيه القاعدة من حمل الألفاظ على المعاني اللغوية ما لم يثبت المصطلح وضعاً، أو يثبت أن الاستعمال وقع على المعنى المصطلح. نعم كونه صلوات الله عليه ولياً للزمان بمعناه اللغوي يحمل على أحد معنيين:

الأول: أنه ولي لأهل الزمان وما يحتويه باعتبار علاقة الحال والمحل، أو الظرف والمظروف، فيكون المعنى أنه ولي أهل الزمان وإمامهم، وعليه يحمل الاسم على المجاز.

الثاني: أنه ولي على ذات الزمان بالفعل، ويكون مسخراً له، فيوظفه في خدمة أغراضه الإلهية، وبهذا يحمل على المعنى الحقيقي، ولا تنافي بين المعنيين، فحمله على الاثنين بلا مانع، وكذا حمله على المعنى المصطلح لتطابقه مع المعنى المجازي، أو لملازمته للمعنى الحقيقي للزمان الذي كشف عنه النقل، فإن المستفاد من الآيات والروايات أن الزمان حقيقة وجودية مخلوقة ولها نسبة من الإدراك والشعور، ولكن لا يدركها الإنسان؛ لأنها من اللطائف، ومن هنا يتغير الزمان من وجود إلى آخر، ومن رتبة إلى أخرى، فالوجودات الكثيفة مقيدة بالزمان، وكلما تجردت عن المادة وغواشيها قلت نسبة الزمان حتى إذا بلغت رتبة الملكوت واللطافة الذاتية ينعدم الزمان، ولذا يقولون بأنها فوق الزمان.

ومن هنا قال بعض أهل المعرفة: إن الزمان في نفسه حادث ووعاء لمحويّاته وشاهد ومشهود، وهو - من حيث هو ممكن مشخص - وإن كان ظاهر الإنية فهو خفي المهية[١]، فعلى هذا كلما علا لطف واتسعت دائرته وطالت ساعاته ولياليه وأيامه وشهوره وأعوامه[٢]، وقسم الزمان على مراتب ثلاث:

المرتبة الأولى: الزمان الكثيف، وهو ما يتعلق بالكائنات المادية المقيدة بحدودها وقيودها، ومنه الحركات الحسية، فالزمان بهذا المعنى هو مدة الحركة الحسية للماديات، وهو متغير بحسب شدة الحركة ونقل المتحرك ووزنه وكيفية الحركة، وقد اثبت علماء الفلك أن مقدار كل يوم في أي من الأجرام السماوية يختلف عن غيره؛ لأن دوران الجرم السماوي حول نفسه مرة واحدة تابع إلى فترة زمنية معينة، فلذا يقدر هذا اليوم في القمر بأسبوعين بالقياس إلى حركة الأرض، ويمكن أن تقل سرعة الحركة الوضعية للأرض بمرور الزمن فيصبح اليوم الواحد فيها كالشهر أو كالسنة أو مئات السنين[٣].

المرتبة الثانية: الزمان اللطيف، وهو مدة حركات الروحانيات المدبرة للعالم الجسماني مثل حركة الملائكة التي تدبر شؤون الوجود الجسماني بالوحي والإلهام والنصرة والانتقام، وكذا حركة الجن والأرواح المتعلقة بالأجسام، ولعل سرعة الفكر والتأثير الروحي وظهور المعاجز والخوارق على أيدي الأنبياء والأولياء منها، بناء على أنها من تأثير الروح، أو من إجابة الدعاء

١ - التراث: ج٢، شرح دعاء التحميد، ص٨٧؛ الإمام المهدي عليه السلام مظهر الخلافة الإلهية: ص١١٥.
٢ - التراث: ج٢، شرح دعاء التحميد، ص٨٥.
٣ - تفسير الأمثل: ج١٩، ص١٦.

لا استخدام القانون الطبيعي المخفي، وربما يستفاد هذا المعنى من مثل قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[1].

ومنطوقها صريح في أن تدبير أمر العالم خلقاً وإيجاداً وتبدلاً وتحولاً ينزل من السماء إلى الأرض، ثم يعرج من الأرض إلى السماء بواسطة الملائكة، ويستغرق ذلك زماناً قدره ألف سنة من أيام أهل الأرض، وهذه المعادلة تدل على أن اليوم الواحد من عالم الملائكة يعادل ألف يوم من أيام الأرض، خمسمائة للنزول وأخرى للعروج، وذلك للطافة القوى المحركة في عالم الملكوت وتجردها عن القيود المادية الكثيفة.

المرتبة الثالثة: الزمان الألطف، وهو مدة حركات الأرواح العالية والأنوار المقدسة الأكثر لطافة وتجرداً، نظير بعض الملائكة المقربين، والروح الذي يعرج عروجاً روحياً، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[2] سواء كان العروج الروحي لأجل التقرب إلى المقام الإلهي أو لأجل تلقي الأوامر الإلهية في تدبير العوالم الملكوتية، أو لتدبير المعاد والحشر على اختلاف الآراء في غاية عروجها[3].

فإن عروج الروح قرينة على أنه ليس من قبيل عروج سائر الملائكة،

١ - سورة السجدة: الآية ٥.

٢ - سورة المعارج: الآية ٤.

٣ - انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٢٩، ص٥٠٧.

سواء فسر الروح بروح الإنسان أو روح القدس أو ملك الوحي أو غيرها من الوجودات اللطيفة الكريمة عند الله سبحانه، ولذا كان مقدار عروجه خمسين ألف سنة من أيام الدنيا.

ونلاحظ أن سرعة الحركة تضاعفت أضعافاً كثيرة بالقياس إلى عروج الأجسام اللطيفة، وهو ما يستفاد من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله حينما سئل عن سر طول ذاك اليوم فقال صلى الله عليه وآله: «والذي نفس محمد بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[1] ولعل إلى هذه المراتب يشير قول أهل الحكمة القديمة إن نسبة المتغير إلى المتغير زمان، وإلى الثابت دهر، ونسبة الثابت إلى مثله سرمد[2].

بناء على أن الثابت هو عالم الملكوت فالعلاقة بين العوالم على ثلاثة أنحاء: علاقة متغير إلى متغير هو المادي، وثابت ومتغير هو مادي ولطيف، وعلاقة ثابت وثابت هو الملكوتي المحض.

ومما تقدم يتضح: أن الزمان ليس على وتيرة واحدة، فهو إما متغير ذاتاً أو متغير وجوداً، وكونه متصرم الوجود يتصف بالأمرين، ولعل تعريف المتكلمين بأنه أمر اعتباري أرادوا به ذلك في مقابل الحقائق التكوينية الثابتة.

وكيف كان فإن المدارس الفكرية اختلفت في تفسير الزمان، وكل منها أعطاه بعداً يتناسب مع مشربه العام وأدوات البحث والاستنتاج، إلاّ أن القدر المشترك الذي يتفق عليه الجميع هو أن المهدي صلوات الله عليه له

١ - مجمع البيان: ج١٠، ص٣٥٣؛ تفسير القرطبي: ج١٠، ص٦٧٦١، تفسير الآية المزبورة.
٢ - انظر شرح توحيد الصدوق (للقاضي سعيد القمي): ج١، ص١٥٢.

ولاية مطلقة على الزمان بجميع أقسامه ومراتبه، وهو محيط به ومتصرف فيه، وهو وجه تسميته بصاحب الزمان صلوات الله عليه، وتتجلى ولايته على الزمان في التصرف في الزمان ولوازمه كالمكان.

ويتم ذلك بالتصرف فيه قبضاً وبسطاً وطياً ونشراً، أي سعة وضيقاً، فهو صلوات الله عليه القابض والباسط للزمان بإذن الله تعالى، وهو بهذا المعنى مظهر اسم الله سبحانه القابض، ومظهر اسمه الباسط ، ولازم هذه الولاية أن يكون هو صلوات الله عليه فوق الزمان لا يقيده الزمان ولا المكان المادي؛ لأنه وجود لطيف من المرتبة الثالثة.

كما ثبتت له إحاطة تامة بالزمان والزمانيات، ولازم هذه الإحاطة والولاية الزمانية ثبوت الإحاطة والولاية على المكان والمكانيات، وبه يتضح وجه حضوره في كل مكان، واستجابته لدعوات الداعين وإغاثته للمستغيثن، والقرآن الكريم يشهد لهاتين الحقيقتين أي الولاية على القبض وعلى البسط في آيات عديدة:

منها: ما في قضية عرش ملكة سبأ حيث طلب سليمان عليه السلام إحضار عرشها من سبأ في اليمن إلى فلسطين موضع دولة سليمان عليه السلام، وهي مسافة طويلة جداً؛ إذ قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[1].

ونلاحظ أن المنافسة في إطاعة أمر سليمان عليه السلام وقعت بين قدرتين: قدرة

١ - سورة النمل: الآيات ٣٨- ٤٠.

الجن وقدرة وصي سليمان ووزيره وهو أصف بن بلخيا، وأما غيرهما فلم يكن جديراً بالمنافسة؛ لأن إحضار العرش بالسرعة الفائقة متعذر؛ بداهة أن إحضار مثل هذا العرش بموازين الزمان الكثيف كان يتطلب مدة طويلة يقطع فيها المسافة الطويلة بين سبأ وفلسطين، ولكن الجن حيث إنه يخضع للزمن اللطيف فإن مدة إحضاره للعرش تستغرق يوماً أو شطراً من يوم، وهي المدة التي كان سليمان عليه السلام يجلس فيها للحكم من أول اليوم إلى الزوال كما في بعض الأخبار، وهي قد تبلغ خمس ساعات أو أكثر حسب الفصول[1]، إلّا أن آصف حيث إنه من الأولياء وكان عنده علم من الكتاب التكويني وقوانينه فإنه يخضع للزمان الألطف، فلذا لا تستغرق مدة إحضاره للعرش أكثر من طرفة عين التي تبلغ الثانية الواحدة أو الأقل من الثانية في عمر الزمن المعهود. هذا ما يدل عليه منطوق الآية.

والسؤال كيف يمكن انجاز ذلك بهذه المدة الوجيزة الخارقة؟ ذكر المفسرون لذلك توجيهات عديدة، إلاّ أن الجامع المشترك الذي تتفق عليه الآراء أن ذلك كان إعجازاً، وتتم باختصار الزمان والمكان أي طيهما وقبضهما حتى لا يكاد يحسب أن العرش كان في مكان بعيد وإحضاره يستغرق وقتاً طويلاً، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام [2]، وهذا النحو من القبض وبهذه السرعة العجيبة ليس بمقدور كل أحد، وإنما بمقدور الأولياء الذين أعطاهم الله ذواتاً نورية لطيفة، وسخر الأشياء لهم بما فيها الزمان والمكان.

وما دامت القضية ترجع إلى فضل الله وقدرته كما قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ

١ - انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص١٠٥.

٢ - مجمع البيان: ج٧، ص٣٤٩، وانظر بحار الأنوار: ج٩٢، ص٢٧٣.

رَبِّي﴾ فينقطع الشك أو التعجب والذهول ولا يبقى مجال لمنكر أو مشكك.

وواضح أن ما امتلكه آصف من القدرة على قبض الزمان والمكان يمتلكه من هم أعلى منه درجة ومقاماً روحانياً، وأوسع علماً بالأولوية، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، وهو ما تواتر مضمونه في الأخبار المعتبرة.

ففي رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعون حرفاً، وإنما كان عند أصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس، ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم»[1] وقد تضافر النقل بظهور مثل ذلك على أيديهم[2] صلوات الله عليهم.

وفي رواية ابن أبي عمير عن ابن أذينه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الذي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين عليه السلام» وسئل عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم أم الذي عنده علم الكتاب؟ فقال: ما كان علم الذي عنده علم من الكتاب عند الذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ألا إن العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم

١ - بصائر الدرجات: ج٤، ص٢٢٨، ح١؛ وانظر ح٦، ح٨؛ الكافي: ج١، ص٢٢٩- ٢٣٠، ح١، ح٣، ح٥.

٢ - انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٨٢، ح٦.

النبيين في عترة خاتم النبيين»[١] وسيظهر ذلك أكثر على يد خاتمهم ومنقذ أمتهم صلوات الله عليه.

ومنها: قضية الإسراء والمعراج، التي أنزل الباري عز وجل فيها سورة كاملة هي سورة الإسراء وقد تم فيها سفر ليلي لرسول الله صلى الله عليه وآله من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف وكان هذا الإسراء مقدمة لمعراجه إلى السماء وقد تم في زمن قياسي لا يتحقق إلاّ بالإعجاز وخرق العادة إذ لم يستغرق سوى ليلة واحدة بينما المسافة تقدر بأكثر من مائة فرسخ الذي قد يتجاوز الخمسمائة كيلو متر وفي قياس وسائل ذاك الوقت وانتقال الأجسام الكثيفة فأنه كان يتطلب أياماً عديدة لكنه وقع في ليلة واحدة وذلك لا يكون إلاّ بطي الزمان والمكان وقبضهما، كما أن الانتقال العروجي إلى السماء وبلوغ سدرة المنتهى هو الآخر لا يكون إلاّ بطي الزمان والمكان.

ولا يخفى أن هذه القضية مما تواتر وقوعها في روايات الفريقين بل قال العلامة المجلسي قدس سره إن عروجه صلى الله عليه وآله إلى بيت المقدس ثم إلى السماء في ليلة واحدة بجسده الشريف مما دلت عليه الآيات والأخبار المتواترة من طرق الخاصة والعامة، وإنكار أمثال ذلك أو تأويلها بالعروج الروحاني أو بكونه في المنام ينشأ إما من قلة التتبع في آثار الأئمة الطاهرين، أو من قلة التدّين وضعف اليقين[٢]، ولو أردت استيفاء الأخبار الواردة في هذا الباب لصار مجلداً كبيراً.

---

١ - تفسير القمي: ج١، ص٣٦٧.

٢ - بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٨٩ـ أقول.

وقريب منه صرح به الطبري في تفسيره[١]، وأقر به جمع كبير من علماء العامة بما فيهم أتباع ابن تيمية[٢].

ويظهر من بعض نصوص الأديان السابقة أنها مسلمة عندهم، وواقعة للأنبياء السابقين كل بحسب درجته ومقامه أو بحسب اقتضاء الضرورة[٣]، ولعله يستفاد من بعض الأخبار الشريفة[٤].

ويعرف من هذه القضية الكونية أن قبض الزمان والمكان وبسطهما أمر ممكن عقلاً وواقع خارجاً يملك مفتاحه أولياء الله سبحانه، وحدوثه يتم إما بسلوك طريق العلوم الخاصة التي علمها الله سبحانه أولياءه كما قد يستفاد ذلك من قضية عرش بلقيس أو أنها تحدث بالإرادة الإلهية كما في قضية الإسراء والمعراج، أو تحدث بالتجرد عن البدن، أو خلعه لتتصل الروح بعالم الملكوت وتتنقل فيه كما قد يستفاد من رواية عبد الصمد بن علي قال: دخل رجل على علي بن الحسين عليه السلام فقال له علي بن الحسين عليه السلام: «من أنت؟» قال: أنا منجم. قال: «فأنت عرّاف». قال: فنظر إليه ثم قال: «هل أدلك على رجل قد مر مذ دخلت علينا في أربعة عشر عالما كل عالم أكبر من الدنيا ثلاث مرات م يتحرك من مكانه؟» قال: من هو؟ قال: «أنا وأن شئت أنبأتك بم

١ - انظر جامع البيان: ج١٥، ص٢٣، ح١٦٦٣٠؛ مجمع البيان: ج٣، ص٣٩٥.
٢ - التحذير من البدع(لابن باز): ص٧.
٣ - انظر إنجيل مرقس؛ الباب٢٤ من إنجيل لوقا؛ والباب٢١ من إنجيل يوحنا؛ انظر تفسير الأمثل: ج٨، ص٢٩٠.
٤ - انظر الاحتجاج: ج١، ص١٠٩.

أكلت وما ادخرت في بيتك»[١]. ولا تنافي بين الطرق الثلاثة، بل هي راجعة إلى شيء واحد للملازمة بينها، أو لكونها جميعاً مظاهر للقدرة والعلم، والجميع يرجع إلى إذن الله سبحانه وتعليمه.

ومثل ذلك وقع لأهل الكهف؛ إذ ظلوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً لكنهم كانوا يعدون بقاءهم يوماً أو بعض يوم، بناء على أن قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[٢] محمول على الحقيقة الواقعة، وأنهم معصومون لا يخطأون أو يتوهمون[٣].

ومثلها قضية الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه. قال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾[٤] ونلاحظ أن تحول الحمار إلى عظام بالية في ذاك الآن كان من قبيل بسط الزمان، بينما بقاء الطعام والشراب لم يتغيرا كان من قبيل قبض الزمان.

ويؤكد كل ذلك ما ورد في ولادة خاتم الأوصياء عليه السلام في خبر حكيمة عليها السلام حيث قالت: دخلت دار أبي محمد عليه السلام بعد أربعين يوماً من ولادة الحجة العظمى فإذا مولانا صاحب الزمان عليه السلام يمشي في الدار، فلم أر وجهاً أحسن من وجهه، ولا لغة أفصح من لغته، فقال لي أبو محمد: «هذا المولود

١ - بصائر الدرجات: ص٤٢٠، ح١٣.
٢ - سورة الكهف: الآية ١٩.
٣ - انظر الآيات من سورة الكهف: ٩ - ٢٠.
٤ - سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

الكريم على الله عز وجل» قلت له: يا سيدي له أربعون يوماً وأنا أرى من أمره ما أرى، فقال عليه السلام: «أما علمت يا عمتي أنا معشر الأوصياء ننشأ في اليوم ما ينشأ غيرنا في السنة»[١].

ويتلخص مما تقدم: أن بسط الزمان وقبضه وكذا بسط المكان وقبضه تبعاً له حقيقة واقعة لا مجال للشك فيها أو إنكارها، وحيث إن العقل لا يقضي باستحالتها وأخبر النقل الصادق بها وجب تصديقها، والقبض والبسط في الزمان والمكان هو نوع من الولاية عليهما، وهذه الولاية ثابتة لخاتم الأوصياء صلى الله عليه وآله، فلذا يقال له صاحب الزمان، ويراد به أنه يملك القدرة والقيمومة على الزمان فيطويه بأهله، أو يبسطه بهم، وكذا المكان.

ولعل الروايات الشريفة التي نصت على حدوث بعض الوقائع الغريبة في زمانه ناظرة إلى هذا المعنى كما ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «لا تقوم الساعة حتى تروا أموراً عظاماً لم تكونوا ترونها، ولا تحدثون بها أنفسكم»[٢].

وفي بعضها عن الصادق عليه السلام: «إن المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق»[٣] ولا يصح أن يحمل المراد فيها على وسائل الرؤية الحديثة المعهودة كالفضائيات، وذلك لسببين:

---

١ - الغيبة (للطوسي): ص٢٣٩، ح٢٠٧؛ وانظر الخرائج والجرائح: ج١، ص٤٦٦، ح١٢؛ مكيال المكارم: ج١، ص٢٣٧.

٢ - المهدي المنتظر: ص٤٨٦؛ وانظر كتاب الفتن: ص١٩؛ فتح الباري: ج١٣، ص٧٣.

٣ - مكيال المكارم: ج١، ص٢٣؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٩١، ح٢١٣؛ درر الأخبار: ص٤٠٤، ح١٨.

الأول: أن منطوق الرواية دال على أن الرؤية بهذه الكيفية مختصة بزمانه صلوات الله عليه وليس باستخدام ما كان موجوداً سابقاً، بل النص صريح في أن هذه خصوصية خاصة للمؤمن لا يشاركه فيها غيره، وهذا لا ينطبق على الوسائل الحديثة.

الثاني: أنها ظاهرة في بيان مقام وفضيلة للمؤمنين ولزمانه صلوات الله عليه في هذه الرؤية لتكون حجة على الخلق، وفي عين الحال تكون مظهراً من مظاهر التكريم والتجليل لهم وفي عين الحال تكون وسيلة التدبير والإدارة وأداتها؛ بداهة أن كل نظام إداري يحتاج إلى ارتباطات، وهذا لا يستقيم إلاّ إذا كانت الرؤية ناشئة من إرادة الإمام ومشيئته وتعليمه، وليس من الوسائل التي توصل إليها البشر قبل الظهور.

نعم ربما يكون وجه الفرق بين الأمرين أن الرؤية المستندة إلى علوم البشر تفتقر إلى استخدام التقنيات والوسائل، ومن دونها يستحيل أن تقع، وأما هو صلوات الله عليه فيحقق للمؤمنين الرؤية بين المشرق والمغرب بالعين المجردة من دون وسائل ولا آلات، وهذا مما لا يقدر عليه غيره.

ولعل مما يؤكد هذا المعنى رواية أبي الربيع الشامي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا قام قائمنا مدّ الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد يكلمهم فيسمعون، وينظرون إليه وهو في مكانه»[1] وهي صريحة في أن هذه الخصوصية تعطى لشيعته، وفي ذلك دلالة على أنهم جنوده وأنصاره والمنفذون لأوامره، ولعل هذا أحد أسباب

١ - الكافي: ج٨، ص٢٤١؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٦، ح٧٢.

سيطرتهم وغلبتهم على غيرهم؛ لأن حسن التدبير والقيادة يتوقفان على جهاز نزيه ومحكم للتواصل والارتباطات، فإذا افتقد الأعداء هذا الجهاز وامتلكه جنود الإمام كانت لهم الغلبة.

وربما تحمل طريقة التواصل على المعنى المجازي ويراد بها قوة التخاطر بين الإمامعليه السلام وأصحابه، والمراد به التواصل الفكري بين عقل وعقل أو عقول أخرى دون واسطة الحواس، نظير التخاطر في المشاعر والعواطف إلاّ أنه خلاف الظهور، بل النص صريح في أن الرؤية حقيقية وتقع بالباصرة وأن المسافات تقترب والأزمنة كذلك.

ويعضده الروايات المتضافرة الدالة على أن الناس في زمانه تطول أعمارهم بشكل تصاعدي، وأن حركة الفلك تتباطأ تصاعدياً حتى يكون اليوم من أيامه صلوات الله عليه كعشرة أيام، والشهر كعشرة أشهر، والسنة كعشر سنين من سنيكم[1]، وقد وجه الإمام الصادق صلوات الله عليه ذلك بأن الله سبحانه يأمر الفلك باللبوث وقلة الحركة فتطول الأيام لذلك والسنون[2].

وفي رواية الكافي عن الصادقعليه السلام: «إن الله عز وجل جعل لمن جعل له سلطاناً أجلاً ومدة من الليال وأيام وسنين وشهور، فإن عدلوا في الناس أمر الله عز وجل صاحب الفلك أن يبطئ بإدارته، فطالت أيامهم ولياليهم وسنينهم وشهورهم، وإن جاروا في الناس ولم يعدلوا أمر الله تعالى صاحب

١ - مكيال المكارم: ج١، ص٣٧٢.

٢ - روضة الواعظين: ص٢٦٤؛ الارشاد: ج٢، ص٣٨٥؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٩، ح٨٤.

الفلك فأسرع بإدارته فقصرت لياليهم وأيامهم وسنينهم وشهورهم»[١] وفيها دلالة على أن الزمان يتعلق بحركة الفلك وإن له فهماً وشعوراً فلذا يخاطب ويؤمر، وما دام المعنى الحقيقي ممكناً ولا محذور عقلي أو شرعي فيه لا داعي لحمله على المعنى المجازي وارتكاب التأويل فيه، ولا ريب في أن زمانه صلوات الله عليه هو زمان العدل الإلهي، فلذا استفاضت الأخبار بأن كل سنة في دولته الإلهية تعادل سبع سنين ولما اعترض على ذلك بدعوى أن الفلك حركته ثابتة ولو تغيرت فسد قال عليه السلام: «هذا قول الزنادقة والمنجمين»[٢] أما الزنادقة فلأنهم لا يؤمنون بقدرة الله سبحانه وسلطته المطلقة على الأشياء، وأما المنجمون فلأنهم يخضعون لقواعد الفلك الظنية، ولا ينظرون إلى خوارق العادات والقوانين الإلهية الاستثنائية التي تخرق المألوف، وتبطل أثره، أو تلغي أثره، أو تظهر أثراً آخر له.

وكيف كان فإن مجموع الروايات المتقدمة تتفق على أن الزمان له بسط وقبض سيقع ذلك في زمان ظهوره صلوات الله عليه.

ويستنتج من ذلك ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الإمام صلوات الله عليه سيعطي أصحابه وشيعته مفاتيح هذه القدرة الإلهية فيتصرفون في الزمان والمكان، وحيث إنه يمسح على رؤوسهم فتكتمل عقولهم وأخلاقهم، وانه يريهم ويعلمهم فإنهم يستخدمون هذه القدرة الخارقة على وفق موازين الحكمة فلا يقع منهم ظلم

١ - الكافي: ج٨، ص٢٧١، ح٤٠٠

٢ - رسائل آل طوق: ج٣، ص٩٤؛ الإمام المهدي عليه السلام مظهر الخلافة الإلهية: ص١٢٢.

أو فساد، ولعل من مفاتيحها طريقين:

الطريق الأول: التجرد عن البدن وقيوده، فإن الروح البشرية من عالم الملكوت، ولولا حبسها في البدن لاتصفت بالزمان اللطيف أو الألطف بحسب درجاتها ومراتبها في المعرفة الإلهية.

ولا يحبسها عن ذلك إلاّ ضيق البدن وكثافته وآثاره، فلو تمكن الإنسان من التخلص منها انخرقت له الخوارق، وظهرت له الحقائق، واطلع على أسرار عالم الملكوت وصار ملكوتياً وهو ما يعبر عنه بالتجرّد عن ثقل البدن وآثاره، وربما يصطلح عليه عند أهل المعرفة بخلع البدن، وأشد السجون التي حبست بها الروح أربعة:

الأول: سجن البدن الترابي، فإنه بطبعه يخلد إلى الأرض، ويتأثر بآثارها وخواصها، فالتخلص منه أول خطوة في طريق التجرد والخلع، وذلك عبر الرياضات الروحية والمجاهدات، وقد مر عليك في بحث النورانية وأبدان الأنبياء والأئمة عليهم السلام أن الله سبحانه صفاهم من ذلك، وجعل أبدانهم لطائف نورية متحررة عن المادة وآثارها.

الثاني: سجن حاجات البدن المادية من طعام و شراب ولذات وغيرها، فإن النفوس والأرواح محبوسة ومقيدة بها، فلو جاهد الإنسان نفسه وقطع علائقها بالبدن يكون قد حقق الخطوة الثانية في هذا المسير الصعب، ويشهد لهذه الحقيقة الرؤى والمنامات الصادقة، فإنها تنشأ من رؤية الروح الواقع بحسب تجردها عن علائق البدن وحاجاته، ولذا وصفها الباري عز وجل

بالآية إذ قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم﴾[١] وفي الروايات أنها من أجزاء النبوة[٢].

الثالث: سجن الأوهام والشكوك والظنون، فإنها سجنت العقول الإنسانية ومنعت من انطلاقها وارتقائها لأنها من وساوس الشيطان وقيوده، فتكدر على العقول، وتمنع من وصولها إلى الحقائق أو إدراكها كما هي، فتصاب بالجهل المركب، أو تمنع من حصول اليقين، فالتخلص منها خطوة ثالثة للتجرد، وتتم عبر الترويض وإزالة المانع بطرد الشيطان ووساوسه وتنوير القلب بالأذكار والعبادات.

الرابع: سجن الحب والبغض والانشداد والجذب، فإنها سجنت القلوب من مشاهدة الحقائق إن كانت إلى الدنيا وأهلها، ولا يتجرد الإنسان إلاّ إذا ملأ قلبه حباً لله ولأوليائه وبغضاً لأعدائهم، وصرف بصيرته إليهم، فلا يرى ولا يحب ولا يتعلق إلاّ بهم، ولا ينقطع إلاّ إليهم، وهو غاية ما يطلبه الراغبون، ولذا ورد «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[٣] وفي الدعاء: «إلهي الحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفاً، وعن سواك منحرفاً»[٤] وكان النبي والأئمة عليهم السلام يعلنون توبتهم ورجوعهم إلى الله سبحانه كلما اضطروا إلى التعامل مع أهل الدنيا وحاجاتها، فتوبتهم عن قصور الدنيا والأبدان البشرية عن تمام الانقطاع وكماله ودوامه لا عن ترك الأولى كما هو مشهور، وحققناه فيما تقدم.

---

١ - سورة الروم: الآية ٢٣.

٢ - التحفة السنية: ص٣١٩؛ المستدرك: ج٤، ص٣٩١؛ إرواء الغليل: ج٨، ص١٢٨.

٣ - عوالي اللآلئ: ج٤، ص٧، ح٧.

٤ - إقبال الأعمال: ج٣، ص٢٩٩.

فتلخص أن الإمام صلوات الله عليه يعلم شيعته وأصحابه طريق التجرد والتخلص من قيود الأبدان والعقول والقلوب، ويكملهم في المعرفة والأخلاق فيرتقون في الأسباب، ويملكون ولاية على الزمان.

الطريق الثاني: تلطيف البدن وخفته ليتطابق مع خفة النفس، فيكونا كأنهما شيء واحد، فإن ذلك يوجب انعكاس آثار النفس على البدن ويكون خاضعاً لها بالكامل، فلذا يصبح البدن الترابي روحاني النزعة والأثر، وهذا الطريق أصعب من الأول، ولذا لا يسلكه إلاّ خواص الخواص، ولعل قضية الإسراء والمعراج كانت منه، وأما قول البعض بأنه كان روحانياً لا بدنياً فخلاف التحقيق وصريح النصوص.

ولعل ما ورد في الأحاديث الشريفة أن البدن يستجيب للروح إذا قويت النية والعزم يشير إليه، وهو ما يشهد به الوجدان لمن تاقت نفسه للعبادة أو الشهادة في سبيل الله فانه لا يشعر بالألم، وربما تفيض نفسه شوقاً قبل أن يناله السيف، وللمسألة تفاصيل ليس هنا محلها.

ويتلخص أن أصحاب المهدي عجل الله فرجه بعد أن يكملهم سيدهم وإمامهم يمتلكون قدرتين يدبرون بهما شؤون الزمان هما التجرد من البدن ولطافته، والأول من موارد التخلية، بينما الثاني من التحلية، فتظهر على أيديهم الخوارق، ويكونون أناساً خارقين كل ذلك ببركة معرفتهم بالإمام عليه السلام ومحبتهم وطاعتهم، وهذا في عصر الغيبة ممكن وواقع، ولكنه للأوحدي، وأما في زمانه فيكون عاماً.

ولعل إليه يشير قول أبي جعفر الباقر عليه السلام: «كأني بأصحاب القائم عليه السلام

وقد أحاطوا بما بين الخافقين، فليس من شيء إلاّ وهو مطيع لهم حتى سباع الأرض وسباع الطير تطلب رضاهم في كل شيء حتى تفخر الأرض على الأرض وتقول مرّ بي اليوم رجل من أصحاب القائم عليه السلام»[1].

الحقيقة الثانية: أن الزمان حقيقة واقعية مدركة لها مراتب وتنزلات في مراتب الوجود، فيطول ويقصر بحسب مرتبته الوجودية الناشئة من أهله، ولكل مرتبة خواص وآثار، فللبشر العاديين في الأرض زمان وأيام، وللملكوت أيام تقدر بألف سنة وبخمسين ألف سنة.

وأن لهذه الأيام علاقة وارتباط بأولياء الله سبحانه، كما ورد في الأخبار أن الأيام بيد المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، فالسبت لرسول الله صلى الله عليه وآله، والأحد لأمير المؤمنين وفاطمة، والاثنين للحسن، والحسين، والثلاثاء للسجاد والباقر والصادق، والأربعاء للكاظم والرضا والجواد والهادي، والخميس للعسكري والجمعة للمهدي عجل الله فرجه، ولهم فيها زيارات وأدعية، بل ورد أن كل ساعة من ساعات اليوم تتعلق بمعصوم من المعصومين أو بأكثر، وفيها دعاء وتوسل، ولعل الوجه فيه يعود إلى ولاية التدبير للزمان والقيمومة عليه فضلاً عن التشريف والتكريم ومن هنا ذهب بعض أهل المعرفة إلى أن للأيام روحانية، ولها أحكام في الروح والعقل[2]، وللمسألة تفاصيل نوكلها إلى محلها.

الحقيقة الثالثة: أن ما ورد في متواتر النقل عن حضوره صلوات الله عليه

١ - كمال الدين: ص٦٧٣، ح٢٥؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٢٧، ح٤٣.

٢ - انظر التكوين والتجلي: ص١٥٦- ١٥٧؛ الإمام المهدي عليه السلام مظهر الخلافة الإلهية: ص١٢٢- ١٢٣.

لإنقاذ المستغيثين وقضاء حوائج الداعين ودفاعه عن المؤمنين وذب الأخطار والأضرار عنهم مما يعضده البرهان، فإنه صلوات الله عليه ولي الزمان وأهله، والمتصرف فيهما، والقيوم عليهما.

ولعل من أسرار هذه الآية المختصة به صلوات الله عليه هو أن زمانه برزخ بين عالمين: عالم الدنيا وعالم الآخرة، ومفتاح بين زمانين: زمان الملك والملكوت، ولذا تظهر عليه آثارهما، وبهذا يتضح بعض السر في طول عمره وعدم تأثير الأزمنة والاحقاب في بنيته ومزاجه وقواه وهيئته الملكوتية، وإذا ظهر كان كابن الثلاثين أو الأربعين، ولا يناله هرم ولا شيخوخة[1]، وأن طاقة الرجل الذي يعيش في زمانه طاقة أربعين رجلاً[2].

١ - منتهى الآمال: ج٢، ص٥٧١.

٢ - روضة الواعظين: ص٢٩٦؛ مختصر بصائر الدرجات: ص١١٦؛ تاريخ آل زرارة: ج١، ص٢٤.

المطلب الثاني: في ولايته على العصر

اختص التعبير عن المهدي عجل الله فرجه دون باقي المعصومين عليهم السلام بأنه صاحب العصر ووليّ العصر، والمراد واحد، كما اشتهر التعبير بعصر الحضور عن زمان ظهوره صلوات الله عليه في مقابل عصر الغيبة، ولا شك أن هذا الوصف لم يأت جزافاً، ولم ينظر إلى المعنى اللغوي فقط ، فلابد وأن يكون كاشفاً عن مقام معنوي له صلوات الله عليه يعد من خصوصياته، فما المراد من العصر وما معنى الولاية عليه؟

والجواب: أن العصر في اللغة والعرف والاستعمال الشرعي يطلق على معان عديدة تجتمع تحت ثلاثة جوامع:

الأول: المدة من الزمان دهراً كانت أو حيناً، أو ما يلي المغرب من النهار، أو ما بعد الزوال، وإذا نسبت إلى ملك أو دولة أو إلى أحداث أو تطورات طبيعية أو اجتماعية يطلق عليها عصر، مثل عصر الدولة الفلانية، وعصر الملك الفلاني، أو العصر الحجري، أو الصناعي وهكذا، ويراد بها المدة الزمنية التي وقعت فيها تلك الحوادث.

الثاني: ما تحلّب من الشيء عند عصره كعصير البرتقال. يقال عصر الشيء عصراً استخرج ما فيه من دهن أو ماء ونحوه، ومنه قولهم عصر الثوب بعد

غسله، أي إخرج الماء المتبقي فيه، وفي التنزيل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾[١] أي السحائب التي تنعصر بالمطر.

الثالث: التعلق بالشيء والامتساك به، يقال اعتصر بالمكان إذا التجأ إليه، ومنه المعاصر أي الدروع؛ لأنها ملجأ المقاتل لتحميه[٢]، والحق إمكان إرجاعها إلى جامع واحد وهو ضغط شيء حتى يتحلب ويخرج ماؤه[٣] على ما قررناه غير مرة من أن اجتماع المشتركات في المادة تحت جامع واحد يرجع سائر المعاني إليه ولكن بلحاظات مختلفة، فيعبر عن الزمان والدهر ومدة الحكم والدولة ونحوها بالعصر باعتبار أنها تحبس أهلها، وتضغطهم وتبلوهم وتخبرهم بوقائعها وأحداثها حتى كأنهم تحلبوا فيها، كما يعبر عن وقت ما بعد الظهر بالعصر؛ لأنه يعصر القلب، ويشعر أهله بالضيق والاحتصار، بخلاف الصباح والظهر والليل

وأما العصير فوجه تسميته بالعصر ظاهر، يقال عصرت العنب عصراً أي استخرجت ماءه، ومنه العصارة أي ما يخرج بالعصر، ويطلق على الريح التي تثير السحاب أو الغبار بالإعصار؛ لأنهما يكونان كالمعتصر منها[٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[٥] أي

١ - سورة النبأ: الآية ١٤.

٢ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٥٥، (عصر)؛ لسان العرب: ج٤، ص٥٧٥- ٥٧٦، (عصر).

٣ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٩، (عصر).

٤ - التبيان في تفسير القرآن: ج٦، ص١٥١.

٥ - سورة يوسف: الآية ٤٩.

يمطرون، وتنبت أراضيهم فيعصرون الثمار التي تعتصر في الخصب من العنب والزيتون والسمسم ونحوها، وأما الملجأ والدرع فيعبر عنه بالعصر لأنه يضغط صاحبه أيضاً.

فيتحصل: أن العَصْر يراد به ما يُعصَر به، فإذا أطلق على الزمان يقال له عصر، وإذا أطلق على ملك أو دولة كذلك، وهكذا.

وأما في الأخبار الشريفة ففسر العصر بزمان خروج القائم عليه السلام كما في رواية المفضل بن عمر قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1] فقال: «العصر عصر خروج القائم عليه السلام»[2].

ولا شك في أن هذا التعريف ناظر إلى المعنى الباطن، أو بيان المصداق الخفي، إلاّ إذا حمل على أنه عليه السلام في مقام تأسيس وضع تعييني شرعي للعصر وهو بعيد؛ لافتقاره إلى الدليل. نعم إذا ذكر العصر مضافاً إلى الصاحب والولي بأن يقال (صاحب العصر) أو(ولي العصر) ونحوه فلا إشكال في حمله عليه صلوات الله عليه، وحمل العصر على عصر ظهوره وهو المتبادر منه عند الشرع والدارج في لسان المتشرعة؛ لثبوت الوضع التعييني أو التعيني فيه.

وواضح أن هذه التسمية لم تأت صدفة، بل لا بد من وجود مناسبة بين خروجه صلوات الله عليه وبين العصر، والحق أنه يتناسب مع الجوامع

---

١ - سورة العصر: الآيتان ١-٢.

٢ - كمال الدين: ص٦٥٦، ح١؛ تفسير البرهان: ج٤، ص٥٠؛ بحار الأنوار: ج٢٤، ص٢١٤، ح١.

اللغوية الثلاثة. أما تناسبه مع الجامع الزماني فباعتبار أن خروجه صلوات الله عليه يؤسس لعصر جديد يتميز بأحكام وأنظمة وتطور علمي وإنساني تسود فيه العدالة الإلهية، ويرتقي البشر روحياً وفكرياً وحضارياً.

وأما تناسبه مع الجامع الثاني فباعتبار أن زمانه يعصر الناس ويحتلبهم فيظهر جواهر المؤمنين وجواهر المنكرين، كما أن زمانه تظهر فيه خلاصات الرسالات السماوية وحجج الأنبياء والأولياء السابقين، كما تظهر به كمالاتهم، فكل مزايا الأنبياء وعصورهم تتلخص في عصره، كما تتلخص فيه كمالاتهم الشخصية وسيرتهم، باعتبار أنه وريثهم وخاتم مقاماتهم، ومن هنا تضافرت الأخبار بظهور الخيرات والبركات على يديه، ويزدهر عصره بالمحبة والرحمة وشيوع الخير وانحسار الشر، وتظهر كل النعم الإلهية التي توزعت على عصور الأنبياء مجتمعة في عصره، وبهذا يصح أن يوصف عصره بأنه خلاصة العصور السابقة وعصارتها.

وأما تناسبه مع الجامع الثالث فباعتبار أن زمانه صلوات الله عليه الملجأ الذي تلتجئ إليه البشرية خلاصاً من الظلم والجور، كما أنه الدرع الذي يقيها من آثارهما وفسادهما.

وبذلك يظهر وجه الترابط الوثيق بين العصر وبين خروج الإمام المهدي عجل الله فرجه في المدلول اللغوي، وهو كذلك في المفهوم الشرعي؛ إذ تضافرت الأخبار الشريفة بتسميته بولي العصر وصاحبه باعتبار ولايته وقيمومته على عصره وعصر من سبقه من الأنبياء والأولياء، ومن هنا يمتاز عصره الإلهي بمزايا لم يسبقه فيها أحد منهم نقف عند ثلاث منها.

الميزة الأولى: أن عصره برزخ بين عالمي الدنيا والآخرة؛ إذ سيبدأ الناس في عصره سيرهم إلى عالم الآخرة، ويعيشون بعض ملامح ذلك العالم في الجزاء والآثار؛ إذ تتجلى في عصره حقيقتان:

الأولى: العدل الإلهي.

والثانية: العطاء الإلهي، وهو وفاء من الله سبحانه بوعده للمؤمنين ووعيده للظالمين.

ويتحقق الأول بالرجعة التي تعد القيامة الصغرى إذ يرجع فيها الأنبياء والأولياء والمؤمنون الصالحون كما يرجع الظالمون لهم، فيقتص للمؤمن من الظالم، ويتجلى العدل الإلهي فيه، وهو ما تواتر مضمونه في الآيات والروايات، وسنأتي إلى تفصيله في مباحث المعاد.

وفي الخبر عن الصادق عليه السلام عن علي عليه السلام قال: «قال رسول الله[1]: يا علي إن قائمنا إذا خرج يجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدد رجال بدر، فإذا حان وقت خروجه يكون له سيف مغمود ناداه السيف: قم يا ولي الله فاقتل أعداء الله»[1].

ومناداة السيف تحمل على معناها الحقيقي لا المجازي؛ لما عرفت من أن زمانه صلوات الله عليه متصل بعالم الملكوت، وهو عالم الحياة والشعور والإدراك فلا شيء فيه جامد أو ميت، أو أن سيفه هو ذو الفقار الذي نزل من الجنة لأمير المؤمنين عليه السلام، لذا يحمل من المزايا الإلهية ما يجعله ناطقاً، والعلم الحديث والتقنية المتطورة قربت هذه الحقيقة الغيبية إلى الأذهان، حيث يرى

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٠٤، ح٧٢.

أن الحاسوب ونحوه يتكلم وينطق ضمن معادلات خاصة.

ويتحقق الثاني بتحول الأرض التي يحكمها صلوات الله عليه إلى جنة مصغرة يتنعم بها المؤمنون قبل جنة الآخرة؛ إذ يعم الخير أرجاء الأرض، وتصبح بساتين وحقول وحدائق ذات خير وبهجة، وتكتمل عقول البشرية، وتستنير قلوبهم بمعرفته ومحبته وطاعته صلوات الله عليه، وتصبح الأشياء طوع أمرهم وإرادتهم، وينجو الناس من الأمراض والعاهات، وتطول أعمارهم، وتتضاعف قواهم البدنية في السمع والبصر والجوارح، وتكتمل قواهم الروحية فلا يصابون بحسد أو وهم، أو فتور في عزيمة، أو وسوسة وغيرها من عيوب النفس، وتنجلي الحقائق الواقعية أمام بصائرهم وأبصارهم فلا يبتلون بجهل بسيط أو مركب.

وهذه الأوصاف والخصائص هي بعض آثار عالم الملكوت وحالة الناس في الجنة، وقد تضافرت الأخبار بهذه الحقائق، فعن المفضل بن عمر أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[1] قال: «رب الأرض يعني إمام الأرض» قلت: فإذا خرج يكون ماذا؟ قال: «إذن يستغني الناس عن ضوء الشمس ونور القمر، ويجتزون بنور الإمام»[2].

وتفسير رب الأرض بالإمام إما باعتبار المعنى اللغوي للرب، أي المصلح للشيء[3]، أو باعتبار الواقع؛ لأنه صلوات الله عليه علتها الفاعلية والغائية، أو باعتبار أنه وليها والقائم عليها، وأما الاستغناء بنوره صلوات الله عليه

١ - سورة الزمر: الآية٦٩.

٢ - تفسير البرهان: ج٦، ص٥٦٥.

٣ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٣٧٨،(رب).

عن ضوء الشمس ونور القمر فيعود إلى تجلي النور الإلهي للإمام على واقعه، وحيث إنه من عالم الملكوت المحيط بعالم الملك يغطي نوره الأرض، وهذا ما يعضده حديث المعراج: «عندما رأى النبي صلى الله عليه وآله أنوار أهل بيته مشرقة ورأى نور المهدي عليه السلام في وسطهم كأنه الكوكب الدري»[١].

أو باعتبار أن قوى البصائر تغني الناظرين عن النور، أو أن تجلي الأشياء على واقعها في زمانه يكفي في الرؤية؛ لأن النور داخل في تكوين الأشياء، أو لغير ذلك من الوجوه.

وفي رواية الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أن في ملكه عليه السلام: «تخرج الأرض نبتها، وتنزل السماء بركتها، وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين»[٢] وفي رواية أخرى: «فعند ذلك تفرخ الطيور في أوكارها، والحيتان في بحارها، وتمدُّ الأنهار، وتفيض العيون، وتنبت الأرض ضعف أكلها، ثم يسير مقدمته جبرئيل، وساقته اسرافيل، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»[٣] وهذا الخبر يقوي ما ذكرناه من أن عصره يترابط فيه عالم الملك والملكوت، ويكون ممهداً لعالم الآخرة، ولذا قد يرى الناس جبرئيل واسرافيل معه صلوات الله عليه.

وعن أبي جعفر عليه السلام: «أنه يدعو الشمس والقمر فيجيبانه، وتطوى له الأرض، فيوحي الله إليه فيعمل بأمر الله»[٤] والوحي الذي ينزل عليه ليس

١ - انظر مكيال المكارم: ج١، ص٣٢٨.
٢ - الاحتجاج: ج٢، ص١١؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٢٨٠، ح٦.
٣ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٠٤، ح٧٣.
٤ - دلائل الإمامة: ص٤٥٦، ح٣٩؛ وانظر بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٩٠، ح٢١٢.

وحي النبوة كما عرفت؛ لانختام النبوة بالمصطفىﷺ، وإنما وحي تعليم وتكليف وتسديد، وهو واقع لغير الأنبياء؛ لشهادة القرآن الكريم بوقوعه لأم موسى، بل للنحل والأرض وغير ذلك، فما بالك بحجته وخليفته في الأرض؟

وواضح أن الخيرات والبركات تكون مباحة للجميع، لا يحرم منها أحد، ولا توجد طبقية ولا حكام ظلمة أو أجهزة سلطوية وغيرهم ممن يستولون على مصالح الناس، ويستحكمون ويستأثرون بها، بل يستفاد من بعض الأخبار أن الناس يكونون منعمين حتى أن الغني يدور بزكاته باحثاً عمن يستحقها ولا يجده، وفي بعض الأخبار: (إذا ظهر القائم ودخل الكوفة ... يعطي الناس عطايا مرتين في السنة، ويرزقهم في الشهر رزقين، ويسوي بين الناس حتى لا ترى محتاجاً إلى الزكاة، ويجيء أصحاب الزكاة بزكاتهم إلى المحاويج من شيعته فلا يقبلونها، فيصرونها ويدورون في دورهم، فيخرجون إليهم فيقولون: لا حاجة لنا في دراهمكم ... ويجتمع إليه أموال أهل الدنيا كلها من بطن الأرض وظهرها، فيقال للناس: تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدم الحرام، وركبتم فيه المحارم، فيعطي عطاء لم يعطه أحد قبله)[1] وفي أخرى: «ويطلب الرجل منكم من يصله بماله، ويأخذ من زكاته، لا يوجد أحد يقبل منه ذلك، استغنى الناس بما رزقهم الله من فضله»[2] بل ويستفاد من بعض الأخبار أن الناس يعيشون السعادة والفرحة في عصره حتى الأموات في القبور كما ورد عن الصادقعليه السلام: «لا يبقى مؤمن

١ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٩٠- ٣٩١، ح٢١٢، مكيال المكارم: ص٢١٣.
٢ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٧، ح٧٧.

ميت إلاّ دخلت عليه تلك الفرحة في قبره، وذلك حيث يتزاورون في قبورهم ويتباشرون بقيام القائم»[١] وهذا شاهد آخر على ارتباط عالم الدنيا والآخرة حتى أن الميت في قبره يدرك ما عليه الناس في عصره صلوات الله عليه ويفرح لها.

الميزة الثانية: الاستغناء عن الأسباب الطبيعية؛ إذ تدور الأمور في عصره صلوات الله عليه بقوانين جديدة لم تعهد من ذي قبل، فلذا تجري الوقائع والأحداث على خلاف المناهج الأولى، بما في ذلك الحيوانات والنباتات والحجر والمدر، فالأرض تشرق بنور الإمام صلوات الله عليه لا بضوء شمس ولا بنور قمر كما مر، وينتفي التنافر والتكالب بين الحيوانات، فلا يأكل بعضها البعض، والناس يعيشون أخوة متحابين متراحمين لا عداوة بينهم ولا حسد ولا أذى أو ضرر.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام : «ولو قد قام قائمنا ... لذهبت الشحناء من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة من العراق إلى الشام لا تضع قدميها إلاّ على النبات، وعلى رأسها زنبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه»[٢].

وهي صريحة في أن الأرض جميعاً تكون خصباء معشبة لا يبقى فيها صحراء أو أرض جرداء، كما أنها تدل على أن السباع تكون مشبعة فلذا لا

١ - انظر كامل الزيارات: ص٢٣٤، ح٥؛ كتاب الغيبة (للنعماني): ص٣٢٣، ح٥؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٢٨، ح٤٨.

٢ - الخصال: ص٦٢٦؛ بحار الأنوار: ج١٠، ص١٠٤؛ ج٥٢، ص٣١٦، ح١١؛ منتهى الأمال: ج٢، ص٥٧٣.

تهيج، ولا يبعد أن تسلب منها الطبيعة السبعية فلا تأكل إلاّ ما هو حقها؛ لما عرفت من أن عصره يتجلى فيه العدل الإلهي، ويكتمل فيه الخلق، فلا يبقى فيه نقص أو شر، وأما عدم خوف المرأة من السبع فلعله يرجع إلى شدة الأمن وشيوع السلام، أو إلى كمالها العقلي والنفسي، أو لاطمئنانها بسيادة العدل، أو لأنها تملك بصيرة ترى بها الحقائق فتعلم بأن السبع لا يؤذيها، ولا تنافي بين الوجوه المحتملة فحملها على الجميع بلا مانع.

وفي رواية أخرى: «يؤيده الله بملائكته، ويعصم أنصاره، وينصره بآياته، ويظهره على الأرض حتى يدينوا طوعاً أو كرهاً. يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها، لا يبقى كافر إلاّ آمن، ولا طالح إلاّ صلح، وتصطلح في ملكه السباع»[1] وهذه ميزة لم يحظ بها نبي ولا وصي قبله.

الميزة الثالثة: انتشار العدل وحكومته على أرجاء الأرض، وهي أهم غاية اتفقت عليها جميع الشرائع والأديان، ولأجلها آمنت بها البشرية جمعاء، بضرورة ظهور المصلح العالمي والمنقذ الرباني، ولعلها القضية المشتركة التي تواترت في الأخبار الشريفة حتى باتت من المسلمات التي يعرفها القاصي والداني والمؤمن والمخالف والصغير والكبير، وهي أن الإمام المهدي عجل الله فرجه يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، وملء الأرض بذلك لا يتحقق إلاّ إذا ساد العدل وانتشر على جميع ربوعها، بحيث لا تبقى أي بقعة منها محكومة بظالم أو بظلم.

١ ـ بحار الأنوار: ج٥٢، ص٢٨٠، ح٦.

وتتفق الآراء استناداً إلى النصوص الشرعية وما تواتر في التأريخ ويشهد به الوجدان على أن سيادة العدل على ربوع الأرض لم يحصل في عصر من العصور؛ لأن الناس في سائر الأعصار والأمصار يعيشون بين أربع حالات:

الأولى: ظلم الناس وظلم الحاكم، وهو الغالب الذي ملأ الأرض ظلماً وجوراً، والمراد من الظلم الأعم من العقيدي والعملي، ومن الناس عموم أهل الأرض.

الثانية: ظلم الناس وعدل الحاكم، وهو حالة نادرة كما وقع في حكومات الأنبياء والأولياء كما في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام.

الثالثة: عدل الناس وظلم الحاكم، ولم يتحقق في زمان أن الناس جميعاً كانوا موحدين مؤمنين وملتزمين بقواعد العدل.

الرابعة: عدل الناس وعدل الحاكم، ولم يتحقق في زمان ما إلاّ أنه سيتحقق في عصره صلوات الله عليه، وهو ما تضافرت به الأخبار الشريفة، ولذا تحيا الأرض وتعمر السنن، ويقوم العدل، ويصلح الناس، فقد ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] قال عليه السلام: «يحيها الله بالقائم عليه السلام فيعدل فيها، فيحيي الأرض بالعدل بعد موتها بالظلم»[2] ولعل من أسباب وصفه بالقائم صلوات الله عليه هو قيامه بالعدل وإفناؤه للظلم والجور.

وفي رواية ابن عباس في معنى إحياء الأرض قال: يعني يصلح الله الأرض

١ - سورة الحديد: الآية ١٧.

٢ - ينابيع المودة: ج٣، ص٢٥٢، رقم (٥٣).

بقائم آل محمد صلوات الله عليه، وفي معنى بعد موتها قال: يعني بعد جور أهل مملكتها[١]، وقريب منها ورد في رواية الحلبي عن الصادق عليه السلام[٢].

ومن الثابت أن العدل يلازم الأمن والاستقرار والتماسك الاجتماعي والنمو والتطور بخلاف الظلم فإنه ملازم للاضطراب والقلق والفساد والتأخر، فإن الناس يعيشون في عصره صلوات الله عليه الأمن والأمان في كل أبعاد الحياة، ولا تبقى لديهم مشكلة أمن شخصي أو أسري أو اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي، ولا أمن صحي ولا بيئي ولا غذائي ولا زراعي، ولا أمن جوي ولا بحري وغيرها من مشاكل هذا العصر الذي سببتها قوانين البشر وحكوماتها الظالمة، وهذه سمة مهمة من سمات عصره صلوات الله عليه.

ويتلخص مما تقدم: أن للإمام المهدي عجل الله فرجه ولاية إلهية على العصر، فيأتي بعصر جديد، ويقيم دولة وحضارة عادلتين يطبق فيهما مبادئ الأنبياء وغاياتهم، ويعيش الناس فيها شيئاً من حياة الآخرة في العدل الإلهي والجنة.

---

١ - بحار الأنوار: ج٥١، ص ٦٤، ح٦٥؛ مكيال المكارم: ج١، ص١٢٩.

٢ - مكيال المكارم: ج١، ص١٣٠.

المطلب الثالث: في ولايته عليه السلام على الأمر

لعل من أشهر أسمائه صلوات الله عليه التي كثر وروده في الروايات وعلى ألسنة المتشرعة صاحب الأمر، والمراد منه ولايته وقيمومته بالأمر، وهذا مما لا كلام فيه، وإنما الكلام في المراد من الأمر، وكيف تعد الولاية على الأمر من مقاماته صلوات الله عليه؟ ولا يخفى أن البحث في الأمر ونزول الأمر عليهم صلوات الله عليهم في ليلة القدر ونحوها تقدم في الفصول السابقة؛ لذا سنكتفي بالوقوف على معنى الأمر بالمقدار الذي يتعلق بمقام ولي العصر عجل الله فرجه، فالأمر في اللغة يطلق على معان كثيرة ترجع إلى عدة جوامع:

الأول: الأمر من الأمور، ويراد به الشيء أو الشأن.

الثاني: الأمر بمعنى الطلب، وهو ما يضاد النهي، كقوله افعل ولا تفعل.

الثالث: الأمَر - بفتح الميم - النماء والبركة. يقال أمر الشيء أي كثر وازداد خيره، وامرأة آمرة أي مباركة على زوجها، وسمي المال بالخير لأنه ينمو ويزداد.

الرابع: الأمر أي المَعلَم والعلامة. يقال اجعل أمارة على الشيء أي علامة يتميز بها، وأمار الطريق معالمه.

الخامس: الأمر بمعنى الإمر أي العَجَب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[1] أي عجبا[2]، وعلى القاعدة التي قررناها فإن هذه المعاني ترجع إلى جامع واحد وهو الشأن، واختلاف المعاني ناشئ من اختلاف النسب والإضافات أو اللحاظات، فإن الشيء إذا لوحظ بالقياس إلى كينونته ووجوده يقال له أمر، ويجمع بصيغة أمور، وإذا لوحظ أنه طلب صادر من المولى يقال له أمر أو حكم، وإذا لوحظ توالده ونماؤه يقال له بركة وخير، كما هو الحال في المال، وإذا لوحظ أنه وجود متميز وشاخص يقال له علامة، وأما إذا لوحظ ما يلازمه من غرائب يقال له عجب، وهكذا مع أن الجميع تعود إلى جامع ماهوي واحد. هذا كله بحسب اللغة، وأما بحسب المصطلح الشرعي فإن القرآن أطلق لفظ الأمر على كل ما سوى الله سبحانه، وقسمه على قسمين:

الأول: عالم الملك، وهو عالم الخلق والوجود الإمكاني الظاهر المحسوس، ويعبر عنه بعالم الشهادة.

الثاني: عالم الأمر، وهو عالم الملكوت الغائب عن الحس، ويعبر عنه بعالم الغيب؛ إذ قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[3] ولعل وجه التعبير عن الأول بالخلق يعود إلى أنه عالم الكون والفساد، فالخلق فيه دائم ومستمر.

---

١ - سور الكهف: الآية٧١.

٢ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٣، (أمر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٠-٢١١، (أمر).

٣ - سورة الأعراف: الآية٥٤.

بينما عالم الأمر عالم التكامل والسير الصعودي؛ لأن الكون والفساد من شؤون عالم المادة الكثيفة القاصرة عن الدوام والمحكومة بقوانين التغير والحدوث، وأما عالم الملكوت فهو من عالم النور، وحياته دائمة مستقرة ولا فساد فيه، بل تكامل وارتقاء، وحتى عذاب أهل النار في جوهره تطهير وتكميل وتخليص لأهل النار من شوائب الذنوب وآثارها، أو يعود إلى أن عالم الخلق هو الإيجاد الأول، وعالم الأمر السنن والقوانين الإلهية الحاكمة فيه والتي يخضع لها العالم أجمع، ويحتكم إلى قواعدها وأحكامها، فيقوم نظمه، وتظهر آثاره وخيراته، ويسير نحو غايته المرسومة له.

وسمي عالم الملكوت بعالم الأمر باعتبار أنه الذي يدبر عالم الملك ويقوده ويهديه إلى غاياته، ولعل مما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[1] فإنه ظاهر في أن عالم الملكوت منتظم على مسلكين نزولي يأتي بالأمر الإلهي للأرض والتدبير، وآخر صعودي يعرج الأمر فيه إلى الله سبحانه تقوم به الملائكة المدبرات، ويستغرق نزوله وعروجه ألف سنة، وهو ما صرح به جماعة[2].

وباعتبار أن الباري عز وجل منزه عن الجسم والجسمانية والزمان والمكان فإن العروج إليه يحمل على المقام والرتبة، أو إلى أوليائه الذين يملكون أمر الحساب والجزاء كما مر عليك، وقريب من هذا المضمون يستفاد من قوله

١ - سورة السجدة: الآيتان ٥ - ٦.

٢ - انظر تفسير الأمثل: ج١٣، ص٧٠؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٢٨٨.

تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[1] أي يجري أمر الله وحكمه بينهن تدبيراً فيهن.

ومن منطوق الآيتين يستفاد أن عالم الملكوت هو الذي يدبر عالم الملك، وتمضي فيه إرادته، وإن التدبير الملكوتي للعالم يتم عبر أمره سبحانه فيها، أي عبر القوانين والسنن الإلهية التي أودعها الله فيها، كما قد يشير إليه نسبة العروج والنزول إلى الأمر نفسه، أو عبر الملائكة المدبرات جمعاً بين الأدلة.

ويتحصل: أن العالم يحتاج إلى الخالق عز وجل في حدوثه وبقائه وتدبيره، والباري عزّ وجلّ يدبر نظام العالم بأمره، وأمره جعله بيد محمد وآل محمد صلوات الله عليهم، لاسيما ولي الزمان وإمامه، ولذا اختص هذا الاسم به، فمعنى (صاحب الأمر) و(ولي الأمر) الذي يملك الأمر الإلهي حدوثاً وبقاءً وتدبيراً، سواء تعلق بالتكوين أو التشريع أو الهداية والتربية، ومن هنا وصف صلوات الله عليه ببقية الله كما في روايات عديدة، واختص هذا الوصف به بالوضع التعييني الشرعي، كما اختص الإمام علي عليه السلام بإمرة المؤمنين.

فعن الباقر عليه السلام وقد سئل لم سمي أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: «الله سماه، وهكذا أنزل في كتابه»[2].

وفي الكافي بسنده عن الصادق عليه السلام في بيان معنى قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3] قال سأله رجل عن القائم يسلم عليه بإمرة

١ - سورة الطلاق: الآية١٢.

٢ - الكافي: ج١، ص٤١٢، ح٤؛ مختصر بصائر الدرجات: ص١٧١.

٣ - سورة هود: الآية٨٦.

المؤمنين؟ قال: «لا، ذاك اسم سمى الله به أمير المؤمنين عليه السلام لم يسم به أحد قبله، ولا يسمى به بعده إلاّ كافر» قلت: جعلت فداك كيف يسلم عليه؟ قال: «يقولون: السلام عليك يا بقية الله ثم قرأ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[1].

ووصف المسمى باسمه بالكافر قد يحمل على الكفر العقيدي، وذلك يختص بمن يسمى به عناداً وجحوداً بإمامته، أو يحمل على الكفر العملي.

وبمقتضى مفهوم المخالفة أو قرينة الحال ينطبق على التسمي بأمير المؤمنين التسمية ببقية الله؛ لأنه من مقاماته الخاصة؛ وحكم الأمثال واحد، وهذا ما قد يستفاد من رواية أحمد بن اسحاق الأشعري قال: خرج أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام علينا وعلى عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين ... فنطق الغلام عليه السلام بلسان عربي فصيح فقال: «أنا بقية الله في أرضه، والمنتقم من أعدائه»[2].

وفي رواية محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «فإذا خرج -القائم عليه السلام- أسند ظهره إلى الكعبة، واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وأول ما ينطق به هذه الآية: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم يقول: أنا بقية الله في أرضه وخليفته وحجته عليكم، فلا يسلم عليه مسلم إلاّ قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه»[3].

---

١ - الكافي: ج١، ص٤١١- ٤١٢، ح٢.
٢ - كمال الدين: ص٣٨٤، ح١.
٣ - كمال الدين: ص٣٣١، ح١٦.

وقريب من هذا المضمون ورد بطرق العامة أيضاً عن رسول الله ﷺ [١]، والبقية اسم وفعله بقي. يقال: بقي الشيء يبقى أي دام وثبت[٢]، وما بقي من الشيء أي فضل، وهو قد يكون بمعنى اسم الفاعل ومعناه الباقي بالله سبحانه كما تفيده الإضافة، وقد تكون بمعنى اسم المفعول أي الذي أبقاه الله سبحانه، والمفاد واحد، وكذا النتيجة والغاية، والاختلاف بينهما لحاظي؛ بداهة أن الباقي بالله سبحانه أو الذي أبقاه الله سبحانه لا يكون إلاّ لأجل غاية وحكمة، وبإذن من الله سبحانه؛ لوضوح أن الممكن مفتقر إلى الخالق في كل شؤونه الذاتية والعرضية، وقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يقبل الاثنين سواء حمل على الأعمال فإن ما يبقيه الله منها هو ثوابها، أو الأحكام من الحلال والحرام فإن ما يبقى منها آثارها، أو المصداق الأجلى وهو ولي الزمان صلوات الله عليه كما ذكرت الأخبار، وتسميته صلوات الله عليه ببقية الله يعود إلى وجوه:

الوجه الأول: أنه الولي الذي أبقاه الله سبحانه في الأرض من الأنبياء والأوصياء لهداية الخلق وإبقاء دينه وأحكامه، ولولاه لأفنى الظالمون الدين وأهله، وأقاموا الباطل، فبوجوده صلوات الله عليه بقي الدين والهدى.

الوجه الثاني: أنه الوريث الباقي للنبي وللأئمة عليهم السلام الذين هم بقايا الأنبياء في أممهم ووراثهم[٣]، فإن للأنبياء مواريث يتناقلوها. أشار إلى بعضها قوله

١ - الأنوار الساطعة: ج٣، ص٣٤.

٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٣٨، (بقي)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٥٧، (بقى)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٦٦، (بقي).

٣ - بحار الأنوار: ج٢٤، ص٢١١، ح١.

تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾[١] أي في التابوت مما تكسر من الألواح التي كتب الله لموسى وعصى موسى وثيابه وعمامة هارون[٢]، وقد تضافر في الأخبار الشريفة أنه صلوات الله عليه حين ظهوره يخرج مواريث الأنبياء، فتكون شاهد صدق على حجته، وبسببها يؤمن به أهل الأديان، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «يظهر بين الركن والمقام وعليه قميص إبراهيم، وحلة إسماعيل، وفي رجله نعل شيث عليه السلام»[٣] وفي آخر «وإنما سمي المهدي لأنه يهدي إلى أمر خفي، ويستخرج التوراة وسائر كتب الله عز وجل من غار بأنطاكية، ويحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل القرآن بالقرآن»[٤] والمراد في بادئ أمره حتى تثبت حجته على الناس ويدخلون في دينه ثم يحتكمون بالقرآن.

الوجه الثالث: أنه صلوات الله عليه رحمة الله التي مَنَّ بها على عباده؛ إذ البقية تأتي بمعنى الرحمة في اللغة، أو لأنه صلوات الله عليه سبب الرحمة بالعباد، إذ لولاه لساخت الأرض بأهلها[٥].

الوجه الرابع: أنه صلوات الله عليه مظهر كمال الله وجلاله، ومجلى آثاره

---

١ - سورة البقرة: الآية٢٤٨.

٢ - مجمع البحرين: ج١، ص٥٧، (بقا).

٣ - إثبات الهداة: ج٣، ص٥٨٠؛ معجم أحاديث الإمام المهدي، ج٣، ص١٢١، رقم (٦٥٩).

٤ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص ٣٥١، ح١٠٣؛ علل الشرائع: ج١، ص١٦١؛ الغيبة (للنعماني): ص٢٣٧، ح٢٦.

٥ - الأنوار الساطعة: ج٣، ص٣٤.

في الخلق، ومحل معرفته وواسطة فيضه، واسمه الأعظم الذي يدبر الله به الموجودات كما تضافر في الأخبار الشريفة وتقدم تفصيله.

وفي رواية محمد بن مسلم قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «إن لله عز وجل خلقاً من رحمته خلقهم من نوره ورحمته من رحمته لرحمته، فهم عين الله الناظرة، وأذنه السامعة، ولسانه الناطق في خلقه بإذنه، وأمناؤه على ما أنزل من عذر أو نذر أو حجة، فبهم يمحو السيئات، وبهم يدفع الضيم، وبهم ينزل الرحمة، وبهم يحيي ميتاً، وبهم يميت حياً، وبهم يبتلي خلقه، وبهم يقضي في خلقه قضيته» قلت: جعلت فداك من هؤلاء؟ قال: «الأوصياء»[1] وخاتمهم ولي العصر صلوات الله عليه، وباء السببية تفيد الوساطة أو المظهرية، فوصفه ببقية الله سبحانه ناشئ من كون فعله فعل الله، وأمره أمره، وإرادته إرادته، أضفاه الله سبحانه بجلاله وكماله، وهناك وجوه أخرى ترجع إلى هذا كما ترجع الوجوه الثلاثة الأول إليه أيضاً.

فيتحصل: أن وصفه صلوات الله عليه ببقية الله في الأرض ناشئ من كونه الولي المطلق الذي ينوب عن الله سبحانه في فعله وإرادته، ويظهر جماله وجلاله، وبذلك يظهر وجه التناسب بين المعاني اللغوية الخمسة للأمر وبين مقامه صلوات الله عليه. أما الأول فيعرف من ولايته على جميع الخلق، وأما الثاني فلأن تدبير العالم بنظاميه الملكي والملكوتي وتشريع الأحكام وأمر الحلال والحرام بيده، وفي عصره تظهر الخيرات والبركات، وتزكو الأعمال، ويكون صلوات الله عليه آية لله في جماله وجلاله وأسمائه وصفاته، ويلازم

١ - التوحيد: ص١٦٧، ح١؛ نور البراهين: ج١، ص٤١٩، ح١.

خروجه الأمور العجيبة التي تعجز العلم والعلماء، وتتم بها الحجة على الخلق أجمعين، وهذه المزايا والخصوصيات لم تظهر لأحد من الأنبياء والأولياء كما تظهر له صلوات الله عليه وإن كان منهم من هو أفضل رتبة كالخمسة أهل الكساء.

في واجبات الأمة تجاه الإمام عليه السلام

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: في الوظائف العامة

المبحث الثاني: في الوظيفة الخاصة في عصر الغيبة

تمهيد:

بعد الفراغ من إثبات الإمامة وتعيين الإمام وبيان مقاماته الإلهية فإن بديهة العقل والفطرة فضلاً عن متواتر الشرع تقضي بثبوت حقوق للإمام على الأمة يجب أداؤها، ولا يجوز نكرانها أو التهاون بها، وقد تضافرت الأدلة على وجود مجموعة من الواجبات والوظائف على الأمة متعلقة بذمة كل فرد من أفرادها بالوجوب النفسي العيني التعييني وبنحو العموم الاستغراقي، ويعبر عنها بالواجبات الحقوقية؛ لأنها تتعلق بمنصب الإمام ومكانته في الأمة، وأداء هذه الواجبات والوظائف هي الضابطة التي يدور عليها صدق الإيمان وسلامة العقيدة وجوداً وعدماً، كما تدور عليها الطاعة ومقبولية الأعمال، فلا يعقل أن يكون العبد مؤمناً بالله ورسوله واليوم الآخر وهو منكر للإمام الذي نصبه الله ورسوله، أو مخالف له في القول والعمل، كما لا يعقل أن تكون صلاته وصيامه وسائر عباداته عبادات شرعية صحيحة فضلاً عن كونها مقبولة وقد أخذها من غير الإمام الذي وجب عليه اتباعه والأخذ منه. فالإذعان للإمام والتسليم لأمره وإظهار المحبة والولاية له من شرائط الإيمان، وبها يتميز الإيمان الحق والإيمان الصوري الذي يستبطن الجحود، وواضح أن حقوق الإمام الواجبة عى الأمة ليست مجرد إلتزامات أدبية أو أخلاقية، بل هي واجبات عقلية وشرعية ليس يتقوم بها الإيمان

والتدين أصولاً وفروعاً فحسب، بل هي سبب النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما أنها منشأ الخيرات والبركات في حياة الناس أفراداً وجماعات، وهذه الحقوق ناشئة من جهات:

الأولى: الجهة التمثيلية، فإنه عليه السلام حجة الله وخليفته، فما يجب لله سبحانه من حقوق في ذمة الأمة يجب للرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام أيضاً.

الثانية: الجهة التوسيطية، فإنه عليه السلام واسطة الفيض، وبواسطته خلق الله الخلق، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ووساطته ليست كوسائط الآلات الجامدة، بل وساطة تفويضية اختيارية، أو بيدهم العطاء والمنع، فالعطاء نعمة يلازمها حق عظيم للمعطي لولاه لم يكن الموجود موجوداً، فهو عليه السلام ما به الوجود بإذن الله وأمره، وأما ما منه الوجود فهو الله سبحانه لا غير.

الثالثة: الجهة الغائية، فإنه عليه السلام غاية الخلق، ولولاه لم يخلق الله الخلق.

الرابعة: الجهة القيادية، فإن لإمام الحق نعماً كثيرة وافرة على المأموم؛ لأنه لا يؤمه فقط بل يعلمه ويربيه ويهديه إلى مصالحه، ويخرجه من الظلمات إلى النور، ويقوده إلى سعادته الدينية والدنيوية، وهذه النعم عظيمة بل من أعظم النعم التي تثبت للإمام حقوقاً على المأموم يوجب العقل أداءها بما يليق بتلك النعمة.

ويتحصل: أن حقوق الإمام على الأمة كثيرة ولا يمكن عدها إذا لوحظت جهاتها التفصيلية، إلاّ أنها في جهتها الأجمالية تجتمع تحت عنوان جامع واحد هو النعم التكوينية والتشريعية، فتحكم الفطرة والعقل معاً فضلاً عن الشرع بلزوم شكرها من وجوه ثلاثة هي:

وجوب شكر المنعم، ووجوب دفع الضرر، وقبح الظلم والتعدي على أهل الحق الحاصلان من عدم الشكر.

وشكر المنعم يمكن أن يتلخص بالقيام بأربعة وظائف هامة ثلاثة منها عامة يشترك فيها سائر المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام هي المعرفة والمحبة والطاعة، وواحدة خاصة ينفرد بها ولي هذا الزمان وإمامه صلوات الله عليه، وتختص بزمان غيبته وهي انتظار فرجه الشريف، ولكل واحدة من هذه الوظائف شروط وأحكام وطرق تستدعي الوقوف عندها تفصيلاً، ومن هنا قسمنا البحث فيها إلى مبحثين. تناولنا في المبحث الأول الوظائف العامة، وفي الثاني الوظائف الخاصة.

المبحث الأول
في الوظائف العامة

وهي ثلاثة نستعرضها في ضمن مطالب:

المطب الأول: في وجوب المعرفة

المعرفة: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم، ويضادها الإنكار[1]، ولذا يقال: فلان بعرف الله، وورد في الحديث: «اللهم عرفني نفسك»[2] ولا يقال يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد، وذلك لأن معرفة البشر لله عز وجلّ هي بمعرفة آياته وتدبر آثاره دون إدراك ذاته، ومثله يقال في معرفة النبيﷺ حيث تتم عبر الآثار كالمعجزة ونحوها، وكذلك معرفة الإمامعليه السلام؛ بداهة أن شخصية النبي والإمام من حيث نفسه ومقاماته من عالم الملكوت، وهو لا يدرك إلاّ بالآثار، ووجوب المعرفة هو أول مراتب شكر النعمة، ووجوبها ناشئ من حكم العقل؛ لأن المعرفة من مقدمات

---

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٠، (عرف)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٥٠٢، (٢٠٣٤)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٩٦، (عرف).

٢ - الكافي: ج١، ص٣٣٧، ح٥.

الشكر؛ لتوقفه على معرفة المشكور ومعرفة الشكر اللائق بشأنه، وهو ما يحكم به الشرع أيضاً، ففي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها»[١].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام قال: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى أشكرني حق شكري، فقال: يا رب! وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به ألاّ وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: يا موسى! الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾[٣] ورد: «علي ورسول الله صلى الله عليه وآله الوالدان، وأمر الله ذريتهما بالشكر لهما»[٤] والروايات الواردة بهذا المضمون كثيرة[٥].

والأب هو كل من كان سبباً في إيجاد شيء أو صلاحه أو ظهوره[٦]، وهو ينطبق على النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وعلي أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام من وجهين:

أحدهما: النشأة المعنوية؛ لأنهما علما الأمة وهدياها إلى الحق والصراط

١ - الكافي: ج٢، ص٩٦، ح١٥.
٢ - الكافي: ج٢، ص٩٧، ح٢٧.
٣ - سورة لقمان: الآية١٤.
٤ - تأويل الآيات: ج١، ص٤٣٦، ح١.
٥ - انظر تفسير البرهان: ج٦، ص١٧٩-١٨٠، الأحاديث ٥-١٥.
٦ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٧، (الأب)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٣٩، (أبي)؛ مجمع البحرين: ج١، ص١٦، (أبا).

المستقيم، وهذا المعنى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية الأصبغ بن نباتة: «الوالدان اللذان أوجب الله لهما الشكر هما اللذان ولدا العلم، وورّثا الحكم، وأمر الناس بطاعتهما»[1] ومن الواضح أن الأبوة المعنوية أسمى وأعظم من الأبوة النسبية الجسدية.

ثانيهما: النشأة التكوينية؛ لما عرفت من أحاديث الطينة والنور وما فصلناه في ولايتهم التكوينية من أنهم عليهم السلام وسائط الفيض الإلهي إلى الخلق، وأن الله بهم ولأجلهم خلق الكون وما فيه، فينطبق عليهم معنى الأب من حيث أن الأب أصل الولد ومصدر نشأته وغذائه.

ومعلوم أن كل ما يجب لرسول الله ولأمير المؤمنين عليه السلام من الحقوق يجب لسائر الأئمة عليهم السلام والصديقة فاطمة عليها السلام لوحدة الملاك إلاّ ما خرج بالدليل، وفي حديث زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أخبرني عن معرفة الإمام منكم واجبة على جميع الخلق؟ فقال: «إن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وآله إلى الناس أجمعين رسولاً وحجة لله على جميع خلقه في أرضه، فمن آمن بالله وبمحمد رسول الله واتبعه وصدّقه فإن معرفة الإمام منّا واجبة عليه»[2].

ومعرفة الإمام من الحقائق القلبية التي لا تعرف إلاّ بمظهرين هما: التولي والتبري، ويتمثل الأول بالائتمام به في العمل، والرجوع إليه في العلم، والتسليم إليه في الطاعة، ففي رواية أبي حمزة أكد أبو جعفر عليه السلام عن الملازمة الدائمة بين معرفة الله سبحانه ومعرفة الإمام عليه السلام فقال: «تصديق الله عز

١ - الكافي: ج١، ص٤٢٨، ح٧٩؛ تفسير البرهان: ج٦، ص١٧٨، ح٢، تفسير الآية١٤ من سورة لقمان.

٢ - الكافي: ج١، ص١٨٠ - ١٨١، ح٣.

وجل وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله وموالاة علي عليه السلام والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم. هكذا يعرف الله عز وجل»[١].

وفي صحيحة سدير الصيرفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنما كلف الناس ثلاثة: معرفة الأئمة، والتسليم لهم فيما ورد عليهم، والرد إليهم فيما اختلفوا فيه»[٢].

وفي صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أما لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله حق في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان»[٣]

وفي رواية أبي أذينة عن الصادق والباقر عليهما السلام أنه قال: «لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله ورسوله والأئمة كلهم وإمام زمانه، ويردّ إليه، ويسلم له»[٤] إلى غير ذلك من الأخبار المتضافرة[٥].

ويتمثل الثاني بالتبري من أعدائه ومخالفيه وعدم توليهم في قول أو عمل أو مرجعية علمية، وهذا ما أكدته الأخبار الشريفة، وهذا ما عرفته من رواية أبي حمزة المتقدمة، وفي الخبر المتواتر بطرق الفريقين أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «يا علي! أنا مدينة العلم وأنت بابها، فمن أتى من الباب وصل، يا

١ - الكافي: ج١، ص١٨٠، ح١.
٢ - الوسائل: ج٢٧، الباب٧ من أبواب صفات القاضي، ص٦٧، ح١٤.
٣ - الوسائل: ج٢٧، الباب٧ من أبواب صفات القاضي، ص٦٦، ح١١.
٤ - الكافي: ج١، ص١٨٠، ح٢.
٥ - الكافي: ج١، ص١٨٠، باب معرفة الإمام والرد إليه.

علي! أنت بابي الذي أوتي منه، وأنا باب الله، فمن أتاني من سواك لم يصل إلي، ومن أتى الله من سواي لم يصل إلى الله»[١].

والحاصل: أن معرفة الإمام لها جنبتان جنبة المعرفة النظرية، وتتقوم بالاعتقاد بإمامة الإمام من حيث الكبرى، ومعرفة شخص الإمام من حيث الصغرى، والعلم بأنه منصوب من قبل الله حجة على الخلق يجب الرجوع إليه، ولا يجوز الرجوع إلى غيره في ذلك، وجنبة المعرفة العملية، وتتقوم بالائتمام به في مقام العمل، والرجوع إليه في أخذ العلم، والتسليم لأمره بالجوارح والجوانح، ولا يجوز الائتمام بغيره، وكلتا المرتبتين واجبة شرعاً وجوباً نفسياً عينياً تعيينياً، ولازم هذا الوجوب هو حرمة الرجوع إلى غيره، كما هي واجبة عقلاً، فلا يعقل أن يكون المؤمن عارفاً وهو يعتقد بإمامة غير علي والأئمة من ولده عليهم السلام على نحو العرضية أو الطولية معه.

كما لا يعقل الائتمام به والائتمام بغيره أيضاً في مقام العمل؛ لأن ذلك كله من التناقض، ولذا صارت معرفته عليه السلام والائتمام به من علائم الإيمان وقبول العمل، بل هو من المجمع عليه بين أصحابنا[٢]، وبه تواترت الأخبار.

منها: صحيح عيسى بن السري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل سأله فيه عن دعائم الإسلام التي إذا أخذ بها زكى عمله، ولا يضر بعده شيء فقال له: «شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله .... والولاية التي أمر الله عز وجل بها ولاية آل محمد عليهم السلام»[٣].

---

١ - الوسائل: ج٢٧، الباب٧ من أبواب صفات القاضي، ص٧٦، ح٤٠.

٢ - انظر بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٦٦؛ أنوار الولاية (للكلبايكاني): ص١٣٣.

٣ - الكافي: ج٢، كتاب الإيمان والكفر: باب ٢٠١، ص٣٥٠، ح١٤٩٨.

ومنها: النبوي الشريف: «لو أن عبداً أتى بعمل سبعين نبياً لم يقبل الله منه إلاّ بولايته وولاية أهل بيته عليهم السلام»[١].

ومنها: «لو أن عبداً عبد الله حتى ينقطع وصار كالشن البالي وكان منكراً لولاية أهل البيت لا يدخله الله الجنة، ولا يظله بظل عرشه»[٢] وفي رواية أخرى: «أكبه الله في النار»[٣] وغيرها مما هو كثير جداً[٤]، وهذه الأحاديث تشترك في الدلالة على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن معرفة الإمام عليه السلام وولايته من شروط الإيمان، فعدم المعرفة مساوق لعدم الإيمان، ولا صحة لعمل بلا إيمان.

الحقيقة الثانية: أن قوام الإيمان العملي هو المعرفة العملية، وهي ولاية الإمام ومطابقة المعرفة والعمل بدلالته لا بدلالة غيره.

فمجرد المعرفة من دون ولاية لا يكفي في صدق الإيمان، والولاية -بالكسر - الإمارة والأولوية بالحكم وتدبير الأمر، وبالفتح المحبة والنصرة، وكلاهما ينطبقان هنا بالدلالة التضمنية أو التلازمية؛ لوضوح أن لازم الاعتقاد بأولوية الإمام بالحكم وتدبير الأمر هو طاعته والرجوع إليه في العلم والعمل، ومثله يقال في المحبة؛ إذ لا معنى للمحبة من دون أن تنعكس على الطاعة والاتباع.

---

١ - بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٩٢، ح٤٩.
٢ - بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٦٩، ذيل ح٨.
٣ - بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٦٧، ح٣.
٤ - الدروس: ج١، ص٤٩٨ - ٤٩٩.

الحقيقة الثالثة: أن ولاية الإمام عليه السلام فيها جهتان هما التولي والتبرّي، والمؤمن هو الذي يلتزم بالجهتين معاً، فيوالي الإمام ويستدل به، ويتبرأ من مخالفيه وخصومه؛ إذ لا يعقل أن تجتمع ولاية الإمام وولاية أعدائه في قلب واحد؛ والقول باجتماعهما ملازم للكفر أو النفاق.

الحقيقة الرابعة: أن العلاقة بين الولاية والإنكار علاقة الضدين اللذين لا ثالث لهما، فلا يوجد حد وسط بين ولاية الإمام والإنكار، أو ولاية الإمام وغير الإمام معاً، كما لا يوجد حد وسط بين الإيمان والكفر، والنفاق بحسب الواقع ملحق بالكفر؛ لأنه مساوق للإنكار، وعلى هذا فإن الإيمان يتقوم بتولي الإمام واتباعه والتخلف عن ذلك مساوق للإنكار.

الحقيقة الخامسة: أن الأعمال التي يأتي بها غير الموالين للإمام عليه السلام ليس لا تحسب لهم حسنات فقط ، بل تحسب لهم مساوئ وسيئات، والسبب في ذلك يعود لأمرين:

أحدهما: انقلاب حقيقة العمل، وذلك لأن العمل الذي لا يستند إلى ولاية الإمام يتضمن التشريع والابتداع في الدين؛ لأن العامل عبد الله سبحانه بطريق لم يشرعه له، بل نهاه عنه، والابتداع في الدين تمرد على الله سبحانه، وعمل بالرأي في الدين وهو من أعظم المعاصي.

ثانيهما: فقدان الشرط، فإن شرط صحة العمل هو أن يكون مستنداً إلى الإمام وولايته، فإذ جاء العبد بالعمل من دون شرطه وقع باطلاً؛ لأن المشروط عدم عند عدم شرطه، ولازم بطلان العمل هو عدم براءة الذمة من التكاليف الإلهية، وهو مساوق للعصيان واستحقاق العقوبة، ولذا يكبه الله

سبحانه في النار، وهذا المعنى يتضامن مع مضامين الروايات الكثيرة الواردة بطرق الفريقين التي نصت على أن الذي يموت ولا يعرف إمام زمانه يموت ميتة جاهلية[١]، أي يموت غير مؤمن، والروايات الأخرى التي نصت على أن الإسلام بني على خمسة أركان هي: الصلاة والزكاة والصوم والحج وولاية آل محمد عليهم السلام، وإنها أفضلها؛ لأنها مفتاحهن[٢].

ووجه كونها مفتاحهن يعود لأسباب:

أحدها: لأن الولاية والاعتقاد بإمامة الأئمة والإذعان لها من جملة أصول الدين، بينما الصلاة والصيام ونحوها من فروعه، والاعتقاد بأصول الدين هو مفتاح العمل بفروع الدين.

ثانيها: لأن الاعتقاد بالإمام وموالاته يستدعي الاقتداء والتبعية له في العلم والعمل، ولازم ذلك هو أخذ العبادات المذكورة بأحكامها وأجزائها وشرائطها منه، فتكون معرفة الولاية مفتاحاً لمعرفتها، وهذا ما يشير إليه قوله عليه السلام في صحيحة زرارة في وصف الموالي: «ويكون جميع أعماله بدلالته إليه»[٣].

ثالثها: لأن الاعتقاد بالولاية شرط قبول العمل، فتكون مفتاحها من جهة أن الغاية القصوى للأعمال لاسيما العبادية هي القبول عند الله سبحانه لا صحتها؛ لوضوح أن صحة العمل أعم من قبوله، وفيه وردت صحيحة

١ - انظر بحار الأنوار: ج٢٧، باب٧، ص٢٠١، ح٦٨.
٢ - انظر الكافي: ج٢، ص١٨، ح٥.
٣ - الكافي: ج٢، ص١٩، ح٥.

إسماعيل الجعفي قال: دخل رجل على أبي جعفر عليه السلام يسأل عن الدين الذي يقبل فيه العمل، فقال: رحمك الله هذا الذي أريد، فقال أبو جعفر عليه السلام: «شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله، وتقر بما جاء من عند الله، والولاية لنا أهل البيت، والبراءة من عدونا، والتسليم لأمرنا»[1].

ويتحصل من ذلك: أن معرفة الإمام عليه السلام واجبة عقلاً وشرعاً على كل مسلم، وهذا الوجوب نفسي عيني تعييني؛ لأنه قوام الإيمان وشرط قبول العمل، كما أن صدق المعرفة يتقوم بعنصرين هما: التولي والتبري، فلا يكفي في صدقها أحدهما. هذا وقد مر عليك في مباحث معرفة الله عبر معرفة الإمام مراتب المعرفة وكيفية الوصول إليها ومراتب العارفين، وعرفت أن معرفة الإمام لها مراتب:

أولها: معرفة الإمام عليه السلام بشخصه ونسبه بما يدفع الاشتراك أو الاشتباه بغيره.

وثانيها: معرفته أنه إمام مفترض الطاعة.

وثالثها: معرفته بمقاماته الإلهية تكويناً وتشريعاً.

---

١ - الكافي: ج٢ص٢٢- ٢٣، ح١٣.

المطلب الثاني: في وجوب المحبة (المودة)

يجب على كل مسلم بل وغير مسلم أن يحب محمداً وآل محمدعليهم السلام محبة خاصة، كما يجب أن يدين الله سبحانه بهذا الحب، ومنشأ هذا الوجوب العقل والشرع؛ إذ تضافرت الشرائع والأديان السماوية على ذلك، وقد حاز جميع الأنبياء مراتبهم المعنوية، ونالوا فضل القرب منه سبحانه بمعرفتهم ومحبتهم، وبذلك أوصوا أممهم والتابعين لهم، وهذه من الحقائق التي لا يختلف عليها أحد، وهو ما تضافرت به الأخبار[1].

والمراد من المحبة الخاصة العلقة القلبية مع الاتباع والتسليم لا مجرد الحب، وهو ما عبر عنه بالمودة والولاية بلحاظين مختلفين، وفيها ورد في حديث شرائع الدين عن الصادقعليه السلام: «حب أولياء الله والولاية لهم واجبة، والبراءة من أعدائهم واجبة، ومن الذين ظلموا آل محمدصلى الله عليه وآله وهتكوا حجابه»[2]

وقد اتفقت كلمة المسلمين طراً على أن محبتهمعليهم السلام فرض، بل من ضروريات الدين عدا فئة قليلة من النواصب من أتباع بني أمية، فإنهم

---

١ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٣، تفسير الآية١٣ من سورة الشورى؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٣٩١، ح٤٦.

٢ - الخصال: ص٦٠٧، ح٩، بحار الأنوار: ج١٠، ص٢٢٦، ح١.

ناصبوا العداء لآل محمد، وأعلنوا سبهم وشتمهم، وقتلوا أتباعهم ومن يهتدي بهديهم، ولهم في هذه الأزمنة المتأخرة أتباع قليلون لا شأن لهم في علم أو دين صحيح، ويمكن أن يصنفوا في عدائهم لأهل البيت عليهم السلام على فئات:

فئة جاهلة أطفأت نور العقل بخرافات وأوهام، وأوقعها فيها بعض دعاة الأموية وأنصارهم من أمثال ابن تيمية ومن سايره في فكره الناصبي الصريح.

وفئة عالمة وجدت أن طريق الحكم والسلطة يتقوم بهذه الدعوى، فأصرت على تكفير المسلمين طراً ولاسيما أتباع أهل البيت عليهم السلام؛ لأجل التفرد والاستبداد بالأمور، لاسيما وأنهم استحكموا في قبلة المسلمين ومهوى قلوبهم.

وفئة ثالثة تعمل على تنفيذ مشروع معاد يهدف إلى تحطيم الإسلام وإبادة أهله، كما أكد هذه الحقيقة الكثير من المؤرخين والمحللين الذين درسوا هذه الظاهرة في منشأها ورجالها وأسباب ولادتها، ويكفينا في رد مزاعم هذه الفرقة الضالة ومواقفها العدائية لآل محمد عليهم السلام وأتباعهم أمران:

أحدهما: أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله المتواترة الدالة على أن بغض آل محمد عليهم السلام من علائم النفاق، وأن حبهم من علائم الإيمان، وأن ولايتهم عليهم السلام من علائم قبول الأعمال، وإنكارهم من علائم بطلان العمل، وقد عرفت الكثير عن ذلك مما تقدم.

وثانيهما: اتفاق جميع المسلمين على ضلالتهم وخروجهم عن المنهج الإسلامي وسيرة النبي المصطفى وعترته عليهم السلام والصحابة الأبرار في معتقداتهم ومواقفهم؛ إذ لا يختلف أهل القبلة على وجوب محبة آل الرسول واتباعهم

والاقتداء بهم في القول والعمل، بل لا يختلف على ذلك جميع الخلق من أهل العقل والدين والشعور الإنساني النبيل؛ لأنه مما يقضي به العقل السليم من ناحيتين:

الناحية الأولى: حب الكمال والكامل، فإن كل إنسان سوي القلب والعقل يميل إلى الكمال، ويحب الكامل، وينفر من النقص، ويتنزه منه بغض النظر عن معتقد الكامل والناقص، أو جهة الكمال والنقص، وعلى هذا الأساس يحب الناس أصحاب الكفاءات والخبرات والعلماء والمتخصصين في كل علم وفن، ويسعون للاقتداء بهم والتعلم منهم، وهذه الحقيقة من حيث الكبرى من الثوابت في الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية، ولا يختلف عليها اثنان.

وأما من حيث الصغرى فقد اتفق جميع أهل المذاهب والأديان على أن محمداً وآل محمد عليهم السلام أشرف البشر، وأسماهم علماً وأخلاقاً، وأكملهم نفوساً وعقولاً، ولذا تتفق على وجوب محبتهم والاقتداء بهم كما تتفق على قبح بغضهم والتنكر لهم.

الناحية الثانية: شكر المنعم وتثمين أصحاب الإنجازات الإنسانية الكبيرة، وهذه أيضاً من الحقائق المتفق عليها بين جميع البشر، فإن كل صاحب إنجاز يخدم الإنسانية يثمنه الجميع، ويحبه، ويشيد بإنجازه، ويعتز بجهوده، ويقتدي به بغض النظر عن دينه ومعتقده. يلحظ هذا في احترام العالم للأدباء والشعراء والعلماء والقادة والفنانين ونحوهم، ويقدم لهم الهدايا ويبني لهم الصروح التي تخلدهم وتشيد بإنجازاتهم؛ لأنهم كانوا للإنسانية، وقدموا للإنسان الشيء الكثير.

وهذه الكبرى تنطبق على محمد وآل محمدﷺ بأصدق وأتم مما تنطبق على غيرهم؛ لأنهم معادن العلم وأئمة التقوى والصلاح، والأسرة التي علمت الناس مختلف العلوم والمعارف الإنسانية والإلهية، وبدلت حياة البداوة إلى حضارة، ونقلت أميّة الجاهلية إلى علم ومعرفة، وصيرت من الحكم والسلطة وسيلة للخدمة، ومن القوة طريقاً للبناء والإصلاح، وصنعت من السيف والحرب أقلاماً ومدارس ومعاهد تربي وتعلم وتهذب.

هكذا صنع آباء هذه الأسرة، وهكذا عمل أبناؤها، وسيعمل بذلك آخر أبنائها الحجة المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، ويكفي هذه الأسرة المباركة إنجازاً أنها جاءت للإنسانية برسالة خالدة هي الإسلام بكتاب سماوي فيه تعليم وشفاء للناس وهدى ورحمة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] وهذا إنجاز ما فوقه إنجاز، وخدمة لا تفوقها خدمة؛ إذ لا يمكن أن تفوق خدمة إصلاح الإنسان وتربيته خدمة مهما بلغت وعظمت؛ لأن الإنسان هو أكمل مخلوق وأشرف موجود، وكل ما في الوجود من مخلوقات وعلوم وفنون وإنجازات هي في خدمته ولأجله.

وعلى هذا الأساس اتفق جميع أهل الأديان والملل على محبة محمد وآلهﷺ، وأشادت بهم وبمواقفهم الإنسانية النبيلة التي لا تنتهي في يوم ما حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وقد كتب الكثير من المسلمين بل وغير المسلمين عن مكانتهم وسمو قدرهم في الوجود الإنساني، وقرت بفضلهم وبحبهم وكرامتهم تقديراً لجهودهم، وتثميناً لعلو شأنهم.

---

١ - سورة الأنبياء: الآية١٠٧.

وهذه الحقيقة مما نادى بها جميع الأنبياء، ودعوا أممهم إلى الإيمان بها، وأوصوا بالتسليم لهم والاقتداء بهم، وأنهم كانوا يتشفعون بهم، ويتقربون إلى الله بذكرهم وبمحبتهم كما دلت على ذلك متواتر الأخبار[1].

وأما المسلمون فقد اتفقت كلمتهم على وجوب محبة آل محمد؛ لأن الله سبحانه نص عليه في آيات عديدة في القرآن، وأكده النبي المصطفى صلى الله عليه وآله في أحاديث متواترة، وهو ما يقضي به العقل والضرورة من الدين أيضاً بما يغني عن مزيد البيان، إلاّ أننا سنكتفي هنا ومن باب إزالة الغموض عن بعض ذلك بالوقوف عند آية واحدة وهي آية المودة؛ إذ قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[2] وقد اتفق المسلمون على أنها نزلت في عترة النبي حينما جاء المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن انتشر الإسلام واستحكمت دولته يطلبون أن يكافئوه على عمله، فعرضوا له أن يأخذ من أموالهم جزاء له، فنزلت الآية المباركة تنص على أن أجر النبي صلى الله عليه وآله ومجازاته ليست بالأموال ولا بالأنفس، بل بمودة عترته وأهل بيته عليهم السلام، فخرجوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال: قاتلوا عن أهل بيتي من بعدي، وأمرهم بمودتهم ومحبتهم، فسلم بذلك جماعة، وجحد آخرون[3].

وفي رواية أخرى قال رسول الله عليه السلام بعد أن أمرهم بذلك: «من حبس

---

١ - انظر الاحتجاج: ج١، ص١٠٦ وما بعدها، محاججة(٢٨)؛ و(٢٩)؛ و(٣٢)؛ ج٢، ص٤٠١، محاججة(٣٠٧)؛ و(٣٠٨).

٢ - سورة الشورى: الآية٢٣.

٣ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٥؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٣، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٠٢، ح٨٢، ح٨٣.

أجيراً أجره فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً وهو محبة آل محمد»[١] وقريب من هذا رواه الزمخشري في تفسيره[٢]، وفي رواية أخرى أنهﷺ كان يطوف على مجالس الأنصار بعد ذلك ويقول لهم: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ... ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنّة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة»[٣].

وروى البيضاوي والزمخشري أن آل محمد هم علي وفاطمة وابناهما[٤]، وقريب منه رواه الرازي في تفسيره وقال: ثبت أن هؤلاء الأربعة - أي علي وفاطمة وابناهماعليهم السلام أقارب النبي، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، ويدل عليه وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

الثاني: لا شك أن النبيﷺ كان يحب فاطمةعليها السلام. قالﷺ: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها» وثبت بالنقل المتواتر عنهﷺ أنه كان يحب

١ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٥؛ مجمع البيان: ج٢٩، ص٢٩ تفسير الآية المزبورة.
٢ - انظر تفسير الكشاف: ج٤، ص٢١٥.
٣ - تفسير الكشاف: ج٤، ص٢١٣-٢١٤؛ كشف الغمة: ج١، ص١٠٤- ١٠٥.
٤ - تفسير البيضاوي: ج٢، ص٣٦٢؛ تفسير الكشاف: ج٤، ص٢١٣.

علياً والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله؛ لقوله: «واتبعوه لعلكم تهتدون» وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾[١] ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣].

الثالث: أن الدعاء للآل أمر عظيم؛ ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة، وهو قوله: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد» وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وقال الشافعي:

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان إني رافضي[٤]

ومثل هذا رواه ابن كثير في تفسيره[٥]، وقال الآلوسي: إن الخطاب في الآية لجميع الأمة، فإنهم كلهم مكلفون بمودة أهل البيت، فقد أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أذكركم الله تعالى في أهل بيتي» وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في

١ - سورة النور: الآية٦٣.
٢ - سورة آل عمران: الآية٣١.
٣ - سورة الأحزاب: الآية٢١.
٤ - تفسير الرازي: ج٢٧، ص١٦٦ (بتصرف)؛ وانظر تفسير القرطبي: ج٨، ص٣٤٣-٣٤٤.
٥ - تفسير ابن كثير: ج٤، ص١٠١؛ انظر مزيداً من التفصيل عن ذلك في إحقاق الحق: ج٣، ص٦-١٨.

(الشعب) عن ابن عباس قال: قالﷺ: «أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله تعالى، وأحبوا أهل بيتي لحبي» وأخرج ابن حبّان والحاكم وعن أبي سعيد قال: قال رسول اللهﷺ: «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلاّ أدخله الله تعالى النار» إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الأخبار[١]، ثم قال: والحق وجوب محبة قرابتهﷺ من حيث إنهم قرابته ... وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد ... وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام[٢].

ثم يقول: قد تهاون كثير من الناس بذلك - أي المودة والتعظيم - حتى عدوا من الرفض السلوك في هاتيك المسالك، وأنا أقول قول الشافعي: يا راكباً قف بالمحصب من منى إلى آخر الأبيات المتقدمة، والروايات الواردة بطرق الجمهور في هذا المعنى كثيرة[٣]، وأما ما ورد من طرقنا فأكثر من أن يحصى[٤]، وكيف كان فإن الاستدلال بالآية المباركة يتم في أمرين:

الأمر الأول: بيان الكبرى وهو ما نصت عليه الصديقة الطاهرةعليها السلام؛ إذ نصت الآية على وجوب مودة القربى بصيغة كبرى كلية، واستفيد الوجوب من قرينتين:

الأولى: كون الآية جملة إنشائية واردة لبيان الحكم، وإطلاق الأمر فيها

١ - انظر روح المعاني: ج٢٥، ص٤٥،(بتصرف).

٢ - انظر روح المعاني: ج٢٥، ص٤٥،(بتصرف).

٣ - انظر المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٧٢؛ الصواعق المحرقة: ص١٠١؛ الدر المنثور: ج٦، ص٧؛ تفسير الأمثل: ج١٥، ص٣٧٥ وما بعدها.

٤ - انظر تفسير الميزان: ج٢٥، ص٤٧.

يستدعي حمل الوجوب على أنه نفسي عيني تعييني كما حقق في الأصول.

الثانية: القرينة الحالية؛ إذ إن القوم كانوا في مقام أداء شكر النعمة ومجازاة رسول الله صلى الله عليه وآله على ما قدمه لهم من هداية وإصلاح وعزة واستحكام للعدل بدولة الإسلام، وشكر المنعم واجب بمقتضى حكم العقل والفطرة، ولكنهم بسبب قصور عقولهم تصوروا أن شكر هذه النعمة يتم بدفع الأموال ونحوها كما هو الحال في تعامل البشر حينما يسدي بعضهم لبعض خدمة، أو يقدم منفعة، إلاّ أن المصطفى صلى الله عليه وآله نفى أن يتقاضى أجراً على تبليغ الرسالة، وطلب أن يكون أجره معنوياً دينياً وهو مودة القربى.

والإثبات بعد النفي في قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1] يتضمن دلالتين:

الأولى: حصر الأجر بمودة القربى؛ لأن الإثبات بعد النفي من صيغ الحصر على ما حقق في الأصول والبلاغة، وعليه فكل أجر يمكن أن تقدمة الأمة لرسولها لا يمكن أن يكافئ هذا الأجر، بل ولا يقبل بدونها.

الثانية: أن المودة الواجبة للقربى ليست المحبة العادية التي يتبادلها الناس مع بعضهم، بل هي مودة خاصة تليق بمقام الرسول صلى الله عليه وآله وبجهوده وجهاده في سبيل الإسلام والمسلمين، والمودة الخاصة ليست في المراتب الدانية من الحب؛ لوضوح أن الدين بني على الحب، والحياة البشرية قائمة على المحبة بين الناس باختلاف مراتبها؛ بداهة أن الحب هو الذي يحكم علاقة الآباء بالأبناء، وعلاقة الأزواج والعشيرة والأرحام والجيران، وسائر الروابط الإنسانية تقوم على

١ - سورة الشورى: الآية٢٣.

المحبة أولاً، ولولاها لم تقم حياة، ولا يحكم الناس نظام أو سنّة.

فلا يعقل أن يكون هذا المستوى من الحب هو المأمور به في الآية المباركة؛ لأنه من تحصيل الحاصل، أو الاستهانة بأجر الرسول ومقام الرسالة، فيكون مثله مثل الأب العظيم الذي قدم لأبنائه كل شيء ثم يطلب أجراً منهم أن يحبوه؛ إذ من الواضح أن الأبناء يحبون آباءهم بالفطرة، فحتى يتنزه كلام الحكيم من اللغوية ويقدر النبيﷺ وجهاده بما يليق به لابد وأن تحمل المودة على ما هو أسمى وأرقى من المحبة العادية، وهي: الدرجة العالية من الحب الذي يتضمن الانقياد والتسليم والطاعة للقربى، والتبري من أعدائهم ومحاربة من يحاربهم ويؤذيهم، وهذا ما ورد نصاً ومضموناً في بعض الروايات[1].

الأمر الثاني: بيان الصغرى، وهو الموضوع الذي تعلق به الحكم وهم القربى، فمهما تعددت الآراء والأقوال في تفسير القربى[2] فإن القدر المتيقن منه الذي تشترك فيه جميع الأقوال هو أن المراد منها هو عترة النبيﷺ أي علي وفاطمة وابناهما، بل هو ما تواترت به الأخبار بطرق الفريقين، وهي في مجموعها تنفي أن يكون المراد من القربى غيرهم كما مر عليك بعضها، وورد الكثير منها في المصادر المختلفة[3]، وعن غاية المرام أنه نقل سبعة عشر

١ - انظر عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص١٨٤، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٠٠، ح٧٦؛ الكافي: ج١، ص٣٩١، ح٤.

٢ - انظر تفسير القرطبي: ج٨، ص٣٤٣.

٣ - انظر التفاصيل في فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣٠٦ وما بعدها؛ دلائل الصدق: ج٤، ص٣٨٣، وما بعدها؛ ينابيع المودة: ج١، ص٣١٥، ح١؛ الصواعق المحرقة: ص٢٥٨- ٢٥٩؛ المعجم الكبير(للطبراني): ج٣، ص٤٧، ح٢٦٤١؛ ج١١، ص٣٥١، ح١٤٤٥٩.

حديثاً من طرق الجمهور واثنين وعشرين حديثاً من طرقنا تصرح بذلك[١]، ونكتفي هنا بروايتين:

الأولى: ما روي في ذخائر العقبى عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قالوا: يا رسول الله! من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما» وقال أخرجها أحمد في المناقب[٢]، وذكرها الهيثمي في المجمع. وقال رواها الطبراني أيضاً[٣]، كما ذكرها ابن حجر في الصواعق، وقال: أخرجها أحمد والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس[٤]، وذكرها الشبلنجي في نور الأبصار[٥]، بل المضمون متواتر بطرق الجمهور[٦].

الثانية: ما رواه الكليني قدس سره في الكافي بسنده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في بيان اعتراض المنافقين على أمر الله ورسوله بمودة قربى رسول الله. قال: فقال المنافقون عند ذلك بعضهم لبعض: أما يكفي محمداً أن يكون قهرنا عشرين سنة حتى يريد أن يحمل أهل بيته على رقابنا؟ فقالوا: ما أنزل الله هذا وما هو إلاّ شيء يتقوله يريد أن يرفع أهل بيته على رقابنا، ولئن قتل محمد أو مات ننزعنها من أهل بيته ثم لا نعيدها فيهم أبداً[٧].

---

١ - غاية المرام: ٣٠٦- ٣١٠.

٢ - ذخائر العقبى: ص٢٥.

٣ - مجمع الزوائد: ج٧، ص١٠٣؛ ج٩، ص١٦٨.

٤ - الصواعق المحرقة: ص١٠١.

٥ - نور الأبصار: ص١٠١.

٦ - انظر نهج الحق: ص١٧٥، الهامش رقم(٣).

٧ - الكافي: ج٨، ص٣٧٩، ح٥٧٤؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٤٠٣، ح٨٥.

وقريب من هذا رواه عن أبي عبد الله عليه السلام لكن ورد فيه: «قال المنافقون: ما انزل الله هذا على محمد، وما يريد إلاّ أن يرفع بضبع - العضد - ابن عمه ويحمل علينا أهل بيته. يقول أمس: من كنت مولاه فعلي مولاه، واليوم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1]»[2].

ونلاحظ أن عترة النبي صلى الله عليه وآله هم القربى، وكان معروفاً مسلّماً بين المؤالف والمخالف لا يختلف عليه اثنان حتى إن المنافقين تآمروا على نزع الخلافة منهم لا على إنكار القربى، ولو كان معنى القربى غير ذلك لم يكن وجه لكل هذا التآمر؛ إذ يكفيهم الإنكار، ويدل على اختصاص القربى بآل محمد عليهم السلام قرينتان:

الأولى: لفظ (القربى) فإنه على صيغة (فُعلى) وهي تفيد مزية وهي القربة القريبة لا مطلق القرابة، وعلى هذا يخرج بنو العباس وغيرهم عنها، وتختص الدلالة بعترة النبي صلى الله عليه وآله خاصة.

وهو ما تؤكده اللغة، ففي المصباح: القربى أو القرابة يستعملان في الرحم، بينما قربة وقربان يستعملان في المنزلة[3]، وقريب منه ورد في المعجم[4] والمفردات[5] ولسان العرب[6]، وفي المجمع ما ظاهره أنه مصطلح

١ - سورة الشورى: الآية٢٣.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٩٥- ٢٩٦، ح٣.
٣ - المصباح المنير: ص٤٩٥ (قرب)، وانظر معجم الفروق اللغوية: ص٤٢٥، (١٧١١).
٤ - معجم مقاييس اللغة: ص٨٥٣- ٨٥٤، (قرب).
٥ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٦٦٤، (قرب).
٦ - لسان العرب: ج١، ص٦٦٥، (قرب).

خاص بآل بيت رسول الله[١] صلى الله عليه وآله، وبهذا يتضح وجه الخلل في قول من فسر القربى هنا بالتقرب.

والثانية: اتفاق كلمة المفسرين وتواتر الأخبار على أن المراد من الحسنة في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾[٢] السابق على آية المودة هي المودة لآل محمد لا غير[٣]، وقد ذكر بعض المعاندين توجيهات للآية لإخراجها عن دلالتها على اختصاص المودة بآل محمد عليهم السلام، إلاّ أنها لا تستند إلى ظهور ولا دليل من عقل أو نقل[٤].

وفي رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام في معنى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: «من تولى الأوصياء من آل محمد واتبع آثارهم فذلك يزيده ولاية من مضى من النبيين والمؤمنين الأولين حتى تصل ولايتهم إلى آدم»[٥].

وفي صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ قال: «الاقتراف التسليم لنا والصدق علينا وإلاّ يكذب علينا»[٦].

---

١ - انظر مجمع البحرين: ج٢، ص١٤٠، (قرب).

٢ - سورة الشورى: الآية٢٣.

٣ - انظر تفسير الطبري: ج٢٥، ص٢٥، الصواعق المحرقة: ص١٧٠؛ الدر المنثور: ج٦، ص٧؛ تفسير القرطبي: ج٨، ص٣٤٤؛ روح المعاني: ج٢٥، ص٤٧؛ وانظر تفسير الميزان: ج١٨، ص٤٥.

٤ - انظر ذلك في تفسير الأمثل: ج١٥، ص٣٧٩، وما بعدها؛ وانظر الفوائد البهية: ج٢، ص١٥٥- ١٥٩.

٥ - روضة الكافي: ج٨، ص٣٧٩، ح٥٧٤.

٦ - الكافي: ج١، ص٣٩١، ح٤.

وتتفرع على دلالة الآية المباركة حقائق عديدة:

الحقيقة الأولى: أن الآية حيث خصصت المودة بالذكر ولم تذكر ما يرادفها كالمحبة فلابد وأن تكون للمودة خصوصيات ومزايا تفوق المحبة وتتناسب مع أجر الرسالة وشكر الرسول.

ويمكن تلخيص هذه المزايا الخاصة في خمس:

المزية الأولى: أن المودة أعمق من المحبة في الشعور الإنساني؛ لأنها تعني صفو المحبة وخالصها ولبها[١]، بينما المحبة ميل النفس إلى المحبوب، والرغبة به[٢]، وهي على هذا المعنى تكون أعم مطلقاً من المودة، ومن هنا تتسم بصفتين هما: الصدق والإخلاص في المحبة.

وبهذا يتضح أن المودة هي الحب الصادق البعيد عن الكذب والخداع، وهذا المعنى يناسب مدلول الآية المباركة؛ لوضوح أن مطلوب الله ورسولهﷺ أن يود الناس القربى مودة خالصة خالية من خداع المنافقين الذين يظهرون الحب، ويبطنون العداء وكذب غيرهم الذين يشركون حب القربى بحب خصومهم وأعدائهم.

فالآية على هذا المعنى تكون قد تضمنت الإشارة إلى أن حب القربى يتقوم بأمرين لا ثالث لهما، وهما التولي لآل محمدﷺ والتبري من أعدائهم، فلا يصح التشريك في المودة، كما لا يصح الكذب والخداع فيها.

---

١ - انظر بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٤٢١، بصيرة(٢).

٢ - انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١٥١، (حبّ)؛ فيض القدير: ج١، ص٢١٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج٢، ص٥٥.

وإلى هذا المعنى تشير الأخبار الكثيرة عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله التي تنص على : «أنه كذب من زعم أنه يحبني ويبغض علياً»[١] وفي بعضها: «أن محُبي محب علي، ومبغضي مبغض علي»[٢] وهذا المعنى كان معهوداً بين الصحابة، فكانوا يميزون المؤمن عن المنافق بحب علي وبغضه؛ إذ لا يمكن أن يجتمع حب الله سبحانه وحب رسوله صلى الله عليه وآله من دون حب علي عليه السلام وولايته، ومثل ذلك يقال في محبة الصديقة الطاهرة وسائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام [٣].

ومن هذا ما ورد في وصية جابر بن عبد الله الأنصاري لعطية العوفي: أحب محب آل محمد صلى الله عليه وآله ما أحبهم، وأبغض مبغض آل محمد ما أبغضهم وإن كان صواماً قواماً، وأرفق بمحب آل محمد فإنه أن تزل قدم بكثرة ذنوبهم ثبتت لهم أخرى بمحبتهم، فإن محبهم يعود إلى الجنة، ومبغضهم يعود إلى النار[٤].

المزية الثانية: أن المودة تتعلق بذوات الأشخاص بخلاف المحبة فإنها تشمل كل شيء؛ إذ يقال لمن يرغب في الطعام إنه يحبه ولا يقال يوده، كما يقال لمن يطمع إلى السلطة بأنه يحب السلطة ولا يقال يودها؛ لأن المودة تختص بالأشخاص من حيث ذواتهم، ولذا لا يقال (أود الله) بينما يقال (أحبه) لاستحالة الوصول إلى ذاته سبحانه، وهذا المعنى تعضده الصيغة الظرفية في الآية حيث قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ولم ترد بصيغة الإضافة،

١ - بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٦١، ح٣٣.
٢ - بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٦٦، ح٤٠.
٣ - انظر أنوار الولاية: ص١٨٩.
٤ - انظر بحار الأنوار: ج٦٨، ص١٣١، ح٦٢.

وذلك لأن الظرفية تفيد حصر المودة بالقربى في ذواتهم، كما تفيد أن أهل مودتهم يتحابون فيما بينهم على أساس مودتهم وموالاتهم بخلاف الإضافة فإنها لا تفيد الحصر، وعلى هذا الأساس تصبح المودة للعترة الطاهرة منهج حياة المؤمن الذي كمل إيمانه، وذلك بأن يجعل مودة القربى هدفاً وميزاناً على أساسه يحب ويبغض ويقتدي ويتبرأ.

ويستخلص من كل ذلك دلالتان:

الأولى: أن مودة القربى تتحقق بمحبة أشخاص معينين من القربى، قد عرفهم النبي لأمته، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة الطيبة من ذرية الحسين عليهم السلام على ما عرفته من الروايات المتقدمة، وهذه الدلالة يعضدها ورود المودة بصيغة مصدر ميمي بمعنى اسم فاعل، فيكون المعنى أن أجر الرسالة هو أن تودوا القربى في ذواتهم وتودوا الناس فيهم.

الثانية: أن مودة القربى موضوعية لا طريقية، أي إنها واجب نفسي ومطلوب لذاته، فيكون حكمها حكم محبة الله والرسول، وهذه الدلالة تتطابق مع الروايات الكثيرة التي نصت على أن التولي لآل الله ومحبتهم في نفسها من العناوين الواجبة، وأنها توجب دخول الجنة وقبول الأعمال.

وأما الالتزام بالطاعة في العبادات ونحوها فيزيد من درجات العبد، ويشير إلى هذه الحقيقة حديث النبي صلى الله عليه وآله: «يا علي! والذي بعثني بالنبوة واصطفاني على جميع البرية لو أن عبداً عبد الله ألف عام ما قبل ذلك منه إلاّ بولايتك وولاية الأئمة من ولدك، وأن ولايتك لا تقبل إلا بالبراءة من

أعدائك وأعداء الأئمة من ولدك. بذلك أخبرني جبرائيل، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»[١].

المزية الثالثة: أن المودة في معناها اللغوي والشعوري والعرفي مجردة عن الشهوة واللذات المادية، بخلاف المحبة فإنها غالباً ما تكون كذلك، ومن هنا عرفت المحبة بعض كتب اللغة بأنها: ميل الطبع إلى الشيء اللاذ[٢] واللذة تختص بالشهوة المادية. يقال: فلان يحب اللحم أي يشتهيه، وتقول: أكلت طعاماً لا أحبه أي لا أشتهيه[٣]، وعلى هذا المعنى يظهر أن ذكر المودة في الآية يرجع إلى خصوصيتين:

الأولى: أن المودة علاقة إنسانية رفيعة لا تخضع للمصالح المادية ولا للميول والرغبات الشهوانية، بل هي علاقة محبة مبنية على كمال المحبوب والاعتقاد به.

الثانية: أن مودة القربى واجبة على الجميع من أصحاب الدين وأصحاب الدنيا، والالتزام بها واجب وإن تعرض أهلها إلى الأذى، وتضررت مصالحهم وشهوات نفوسهم، فالآية بهذا المعنى تدعو إلى الصمود والاستقامة في الولاية للقربى، وعدم جواز التراجع عنها وإن كانت على خلاف رغبة النفوس القاصرة والشهوات الرخيصة.

المزية الرابعة: أن المودة عبارة عن إظهار الحب وإبرازه. يقال: ودّه أي

١ - بحار الأنوار: ج٢٧، ص٦٣، ح٢٢.
٢ - المنجد: ص١١٣، (حب).
٣ - معجم الفروق اللغوية: ص٤٨٥، (١٩٥٣).

أظهر المحبة له[١]، بخلاف المحبة فإنها تكمن في القلب والمشاعر، والودود من أسماء الله تعالى؛ لأنه بمعنى اسم الفاعل يظهر أثر حبه على العبد بالرحمة والرزق والعلم وغيرها من الألطاف الإلهية حسب قاعدة خذ الغايات واترك المبادئ، وقد ورد في الحديث القدسي أنه قال لموسى: «أنا لا أغفل عن الصغير لصغره، ولا عن الكبير لكبره وأنا الودود الشكور»[٢].

وبمعنى اسم المفعول لأن حبه يظهر على جوارحهم، وجوانحهم وقد وقع استعمال المودة بهذا المعنى كثيراً في القرآن

كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[٥] وهي في الآية الأولى تدل على أن الحياة الزوجية تتقوم بالمشاعر الصادقة الظاهرة على جوارح الزوجين، وفي الآية الثانية تدل على أنه سبحانه يظهر أثر حبه على المؤمنين من خلال توفيقهم للطاعة وحسن المعاملة وطيب الأخلاق.

وفي الثالثة تدل على أن المجتمع المؤمن تظهر فيه صفات الإيمان في أسلوبه ومظاهره والتبري من صفات الكفر والعناد؛ إذ لا تجتمع موالاة الكفار مع

١ - انظر تاج العروس: ص٥٣١ (ودّ)؛ وانظر معجم الفروق اللغوية: ص٣١١، (١٢٥٠).
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٠، (ودد).
٣ - سورة الروم: الآية٢١.
٤ - سورة مريم: الآية٩٦.
٥ - سورة المجادلة: الآية٢٢.

الإيمان[١]، وعلى هذا يظهر أن الآية تدل على أمرين:

الأول: أن الواجب على الأمة أن تظهر أثر الحب على جوارحها وجوانحها، ويتجلى هذا في مظاهر.

منها: التولي لهم والتبري من أعدائهم.

ومنها: حصر مرجعية العلم والدين بهم.

ومنها: حصر الحكومة والخلافة بهم.

ومنها: الطاعة لهم والتسليم لأمرهم في جميع الشؤون.

الثاني: أن اكتفاء بعض المسلمين بمحبة القربى دون مودتهم - حيث أخذوا العلم من غيرهم، وقالوا بإمامته، ولم يتبرؤوا من أعدائهم، ولم يقتدوا بهم في قول أو عمل - يتنافى مع مدلول الآية المباركة.

المزية الخامسة: أن المودة محبة الشيء وتمني كونه، بل التمني يتضمن معنى الود؛ لأن التمني هو تشهي حصول ما توده[٢]، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾[٤] وقوله سبحانه: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[٥] وهذا المعنى يسبق الحب؛ لأن المحبة هي الوقوع

١ - انظر مجمع البيان: ج٩، ص٤٢٢، تفسير الآية المزبورة.
٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٠، (ودد).
٣ - سورة الأنفال: الآية٧.
٤ - سورة المعارج: الآية١١.
٥ - سورة آل عمران: الآية٦٩.

في الحب لاتمنيه، وعلى هذا يكون معنى الآية وجوب محبة القربى وتمني كونها، وعليه فهي تتضمن دلالتين هامتين:

الأولى: أنها توجب على الجاهل بهم أو غير المحب لهم وجوب الفحص والتعرف عليهم لأجل تحصيل مودتهم؛ لأن المأمور به في الآية هو تمني وجود المحبة.

وبهذا يظهر أن الكفار والمنافقين وغير الموالين من المسلمين مكلفون بذلك، والتخلف عن هذا الفرض ملازم لجحود الرسالة والرسولﷺ، وهو تخلٍ عملي عن شروط الإيمان بالرسالة والتسليم للرسول، وفي هذا المضمون روى جابر بن عبد الله قال: جاء أعرابي إلى النبيﷺ فقال: يا محمد! أعرض عليّ الإسلام، فقال: «تشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» فقال: تسألني عليه أجراً؟ قال: «لا إلاّ المودة في القربى» قال: قرباي أو قرباك؟ قال: «قرباي» قال: هات أبايعك، فعلى من لا يحبك ولا يحب قرباك لعنة الله، قالﷺ: «آمين»[1].

الثانية: أن المودة ليست من الأمور التي يصلها الإنسان بنفسه من دون توفيق من الله سبحانه يمنحه لبعض عباده إذا سلكوا الطرق المؤدية إليها، وبهذا يثبت في ذمة العباد فرض آخر تجاه القربى غير محبتهم، وهو وجوب النظر في المقدمات التي تقوي الإيمان بهم، وتزيد من الحب والعلاقة بهم؛ لأن النتائج غير الاختيارية تكون اختيارية، إذا كانت مقدماتها اختيارية فإن المقدور بالواسطة مقدور.

---

١ - انظر حلية الأولياء: ج٣، ص٢٠١؛ فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣٠٧.

إذ من الواضح أن مجرد تمني الشيء لا يقع في حيز التكليف ما لم يكن المراد منه العمل على حصوله بواسطة المقدمات الموصلة إليه، وهذا يتوافق مع ما أفاده الشيخ الطوسي قدس سره، حيث فرق بين المودة والمحبة في الدوام والاستمرار فقال: التمني يقع على الماضي والمستقبل، والمحبة لا تقع إلاّ على المستقبل[١]، وقريب منه ورد في مجمع البيان[٢]، وفي ينابيع المودة المودة مشتقة من الود، وهو الحب القوي الدائم الثابت[٣]، ولازم هذا المعنى أن وجوب المودة لا يختص بزمان أو حالة، بل هو واجب في جميع الحالات.

وتتحصل من هذه المزايا الخمس نتيجتان:

الأولى: أن مودة القربى أعمق من المحبة، ولذا جعلت جزاء وأجراً للرسول على تبليغ الرسالة.

والثانية: أن هذه المودة لا بد وأن تظهر على لسان المسلم وعمله، فلا يجزي الحب أو المسالمة معهم أو عدم بغضهم، فإن ذلك من ضروريات الإسلام، وظهور هذه الحقيقة على القول والعمل هو الذي يعطي للمسلم صفة الإيمان بالرسول والتسليم لأمره والإخلاص في حبه ومودته، وأبرز ملامح مودة القربى على القول والفعل تظهر في أمور:

الأول: التولي لهم والانقياد إليهم وإظهار الولاية لهم بتقديمهم في الإمامة والخلافة ومسالمة من سالمهم ومحاربة من حاربهم، وهذا المعنى يتضامن

١ - التبيان: ج٢، ص٣٤١.
٢ - مجمع البيان: ج٢، ص١٨٨.
٣ - ينابيع المودة: ج١، ص١٢٤.

مع الروايات الكثيرة عن النبي المصطفىﷺ الدالة على أن حربهم حربه، وسلمهم سلمه، وأن إيذاء القربى هو إيذاء للنبي وإكرامهم إكرام للنبيﷺ.

الثاني: الرجوع إليهم في العلم والمعرفة في أصول الدين وفروعه وسائر الآداب والسنن والأخذ منهم.

الثالث: الصبر على الأذى في محبتهم والتضحية بما تشتهيه النفس من المال والسلطة والحياة الوفيرة التي قد يوفرها الظالمون لهم من أجل الثبات على محبتهم ومودتهم، ومن الواضح أن هذه المظاهر إذا انعكست على سلوك الفرد اتسم بالإيمان الصادق، ولو ظهرت على حياة الأمة السياسية والاجتماعية لكانت أمة مسلمة تتصف بمزايا الإسلام وعزته وكرامته.

ولو كانت الأمة متفقة على هذا الوفاء والالتزام لما تعرضت إلى ما هي عليه من الفساد والظلم والجور المتراكم، وإلى هذا المعنى يشير الحديث المبارك: «لو اجتمعت أمتك على حب علي بن أبي طالبعليه السلام لما خلق الله النار»[1].

الحقيقة الثانية: أن المحبة والمودة من قبيل الفقير والمسكين إذا ذكر أحدهما دل على الآخر، وإذا ذكرا في جملة واحدة دل الفقير على المحتاج والمسكين على الأشد حاجة وفقراً، وهو الذي أسكنه الفقر، ولعل السر في جعل المودة في الآية أجراً للرسالة دون المحبة هي أنها تحقق غايات المحبة إذ لا معنى للمحبة دون ظهور على الجوارح في القول والعمل، وعليه فما ورد في منطوق الآيات والروايات من التعبير عن ذلك بالمحبة يراد به المودة، وإنما عبر عنها بالمحبة

١ - نوادر المعجزات: ص٧٥، ح٣٩.

لأنها معروفة ومتداولة على الألسن، فإن لفظ الحب أكثر استعمالاً في التعبير عن الميل والرغبة من المودة، ولعله أقرب إلى طبع النفس؛ لأنه لا يتضمن الكلفة والمشقة بإظهار أثره على الجوارح، والنفس ميالة إلى اللهو والراحة أكثر من المشقة والتعب، أو لأن المحبة أوفق بسماحة الدين لاستيعابها كل المحبين على اختلاف مراتبهم في المحبة، وأهدافها، وذلك لأن المحبة هي جوهر الحياة الإنسانية مادياً ومعنوياً، فلا قوام للحياة إلاّ بالمحبة؛ لأنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، كما هي جوهر الدين وحكمة وجوده، وهذا ما تؤكده الروايات المباركة التي حصرت الدين بالحب كما ورد متضافراً عن الباقر والصادق[1] عليهما السلام في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[2] وعلى هذا الأساس صار الحب ميزان الإعمال الصالحة والطالحة، وعنوان صحيفة المؤمن، ومنشأ صدقه وإخلاصه، وهذا كله يتجسد باتباع محمد وآل محمد عليهم السلام؛ إذ لا صدق في الحب من غير متابعة المحبوب والاقتداء به.

ففي الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل ورد فيه: «ومن سره أن يعلم أن الله يحبه فليعمل بطاعة الله وليتبعنا، ألم يسمع قول الله عز وجل لنبيه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والله لا يطيع الله عبد أبداً إلاّ أدخل الله عليه في طاعته اتباعنا، ولا والله لا يتبعنا

١ - انظر الخصال: ج١، ص٢١، ح٧٤؛ تفسير العياشي: ج١، ص١٦٧، ح٢٥-٢٨ من تفسير سورة آل عمران.

٢ - سورة آل عمران: الآية ٣١.

عبد أبداً إلاّ أحبه الله، ولا والله لا يدع أحد اتباعنا أبداً إلاّ أبغضنا، ولا والله لا يبغضنا أحد أبداً إلاّ عصى الله، ومن مات عاصياً لله أخزاه الله، وأكبه على وجهه في النار»[١].

وفي رواية حفص بن غياث عنه عليه السلام: «يا حفص ... من عرف حقنا وأحبنا فقد أحب الله تبارك وتعالى»[٢] ومن هذا يتضح أن للمحبة علامتين:

الأولى: الاتباع في الفكر والعمل، فلا يمكن أن يكون المؤمن محباً لآل محمد عليهم السلام وهو لا يتبعهم أو يتبع غيرهم.

والثانية: التضحية في سبيل المحبوب وتحمل الأذى لأجله، فإنه لو قدم الإنسان نفسه على محبوبه لكشف عن عدم الحب، أو عدم صدقه في الحب، أو عدم كمال الحب، وهو ما ورد في الأخبار الكثيرة أنه لا يؤمن العبد حتى يكون النبي أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين[٣].

ومن هنا أكد الباري عز وجل أن محبة الله ورسوله تتوقف على الجهاد وتقديم مصالح الدين على الأهل والعشيرة والتجارات والمساكن، فمن ادعى الحب ولم يضح بذلك فإن جزاءه الخسران والفسق عن المنهج القويم كما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ

١ - الكافي: ج٨، ص١٤، ح١؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٩٠، ح٨٦.
٢ - الكافي: ج٨، ص١٢٨، ح٩٨؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٩٠، ح٨٨.
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٤، ح٢٥؛ أنوار الولاية: ص١٨٠.

بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[١] وقد شرح أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بقوله: «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو» ثم يقول: «فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر»[٢] وفي هذا أدلة واضحة على أن الحب الصادق لآل محمد هو منشأ الفوز وعلو الدرجات والسعادة في الدارين.

الحقيقة الثالثة: أن المحبة من الحقائق المشككة التي لها مراتب، وتختلف بحسب درجات المعرفة والإيمان، وقد عرفوا المحبة بأنها ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه[٣].

وعليه فإن المحبة هنا متقومة بالمعرفة والإدراك لكمال المحبوب، ومن هنا يشترط في وجودها تحقق مسانخة بين أهلها، ولذا تكون المحبة عند أهل الكمال داعية للاقتداء بالمحبوب والتشبه بصفاته وأخلاقه، وعند أهل النقص بالاقتداء بأهل الشر، وعلى هذا الأساس يحشر المرء مع من يحب، ولو أن المرء أحب حجراً حشر معه كما في الأخبار[٤]، وذلك لضرورة التسانخ والارتباط الذاتي بين المحب والمحبوب، وكلما ازدادت المعرفة زاد الحب، وقد فصل بعض أهل المعرفة في هذا بتفاصيل لا تهم البحث هنا[٥]، ونكتفي

١ - سورة التوبة: الآية ٢٤.
٢ - انظر نهج البلاغة: ج١، ص١٠٤ - ١٠٥، الخطبة ٥٦.
٣ - انظر تفسير الصافي: ج١، ص٣٠٣؛ أنوار الولاية: ص١٥٦.
٤ - انظر تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٩١، ح٩٣.
٥ - انظر الأنوار النعمانية: ج٣، ص١٦٢ وما بعدها؛ أنوار الولاية: ص١٧٠ وما بعدها؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٤٨١ وما بعدها.

ببيان أهم المراتب وهي ثلاث:

الأولى: محبة الذات، ويراد بها محبة ذات المحبوب، وتتوقف على معرفة المحبوب ومزايا ذاته وخصوصياته الكمالية، وتعد المرتبة الأولى من مراتب المودة، وهي أول شروط الإيمان، وهو ما تؤكده الأحاديث المتواترة عن النبي المصطفىﷺ وأهل بيتهعليهم السلام: «أن حب علي قذف في قلوب المؤمنين فلا يحبه إلاّ مؤمن، ولا يبغضه إلاّ منافق»[1].

الثانية: محبة صفاته وأفعاله، وهي المرتبة الثانية للمودة، وهي من شرائط صدق الإيمان؛ لأنها تقود صاحبها إلى الاقتداء والاتباع للمحبوب، حتى يظهر أثر المحبوب على جوارح المحب.

الثالثة: محبة آثاره وما يرتبط به، وهي المرتبة الثالثة للمودة، وبها تتجلى مظاهر التولي والتبري على سلوك المحبين في الاقتراب من المحبوب وإشاعة فضائله وترويج ذكره وعلمه ومسالمة أحبائه ومحاربة أعدائه و والحضور عنده حياً وميتاً بزيارة قبره هي من شرائط الإيمان الخالص.

ولا يخفى أن هذه المراتب الثلاث قد يفكك العقل بينها لتغايرها المفهومي إلاّ أنها من حيث المصداق تجتمع في المحب والمحبوب، وعلى قدر معرفة الذات والصفات والآثار يزداد الحب والقرب معاً، وعلى هذا الأساس تتمايز درجات الأنبياء والأولياء في معرفة الله وحبه سبحانه، كما تتمايز درجات المؤمنين في معرفة الأنبياء، وتتمايز درجات الأتباع والموالين للأئمةعليهم السلام،

١ - المناقب (لابن شهر آشوب): ج٣، ص١٥٤؛ وانظر بحار الأنوار: ج٤٣، ص٢٨١، ح٤٨.

ومزايا هذه المراتب الثلاث تفسر وجوه الاختلاف في الروايات التي تحدثت عن صفات الشيعة، فإن كل واحدة منها ناظرة إلى مرتبة من مراتب المعرفة والمحبة.

ففي رواية العسكري عليه السلام قال: قدم جماعة فاستأذنوا على الرضا عليه السلام وقالوا: نحن من شيعة علي عليه السلام فمنعهم أياماً، ثم لما دخلوا قال لهم: «ويحكم إنما شيعة أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين وأبو ذر والمقداد وعمار ومحمد بن أبي بكر الذين لم يخالفوا شيئاً من أوامره» ثم قال لهم: «فأما أنتم إذ قلتم إنكم شيعته وأنتم في أكثر أعمالكم له مخالفون مقصرون في كثير من الفرائض، متهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله ... فلو قلتم: إنكم موالوه ومحبوه، والموالون لأوليائه والمعادون لأعدائه لم أنكره من قولكم، ولكن هذه مرتبة شريفة ادعيتموها إن لم تصدقوا قولكم بفعلكم هلكتم إلاّ أن تتداركم رحمة من ربكم»[1] ووجه الفرق بين الشيعي والمحب هو أن الشيعي يتبع وينقاد لمن تشيّع له، فإن التشيّع في اللغة هي الاتبّاع في القول والعمل والشيعة الاتباع، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[2] أي من شيعة نوح إبراهيم، لأنه على منهاجه وسنته في التوحيد والعدل واتباع الحق[3]، بخلاف المحب فأنه قد يتبع وقد يخالف وقد فرق الإمام الحسين عليه السلام بين الشيعي والموالي لبعض الولاة بقوله: «إن شيعتنا هم الذين يتبعون آثارنا،

١ - بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٥٨، ح١١.

٢ - سورة الصافات: الآية٨٣.

٣ - مجمع البحرين: ج٤، ص٣٥٦، (شيع)؛ وانظر المعجم الوسيط: ج١، ص٥٠٣، (شيع)؛ لسان العرب: ج٨، ص١٨٩، (شيع).

ويطيعونا في أوامرنا ونواهينا، فأولئك شيعتنا، فأما من خالفنا في كثير مما فرضه الله عليه فليسوا من شيعتنا»[١].

وورد هذا المضمون عن الصادق عليه السلام في رواية عمر بن حنظلة[٢] وعن أبي جعفر عليه السلام في رواية جابر[٣]، وقد فصل الإمام العسكري عليه السلام صفات الشيعة بقوله: «إنما شيعة علي عليه السلام هم الذين آمنوا بالله ووصفوه بصفاته، ونزهوه عن خلاف صفاته، وصدقوا محمداً في أقواله، وصوّبوه في كل أفعاله، ورأوا علياً بعده سيداً إماماً وقرماً هماماً لا يعدله من أمة محمد أحد، ولا كلهم إذا اجتمعوا في كفة يوزنون بوزنه، بل يرجح عليهم كما ترجح السماء والأرض على الذرة، وشيعة علي هم الذين لا يبالون في سبيل الله أوقع الموت عليهم أو وقوعوا على الموت، وشيعة علي عليه السلام هم الذين يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وهم الذين لا يراهم الله حيث نهاهم، ولا يفقدهم من حيث أمرهم»[٤] إلى آخر الحديث.

ويستفاد من مجموع هذه الروايات أن من أبرز صفات الشيعة أربع:

الأولى: التوحيد الخالص الذي ينزه الخالق عن التجسيم والتشبيه أو زيادة الصفات وعروضها على الذات الإلهية التي تنتهي إلى الحدوث وتعدد

١ - مجمع البحرين: ج٤، ص٣٥٦، (شيع)؛ وانظر المعجم الوسيط: ج١، ص٥٠٣، (شيع)؛ لسان العرب: ج٨، ص١٨٩، (شيع).

٢ - السرائر: ج٣، ص٦٣٩؛ وانظر بحار الأنوار: ج٦٨، ص١٦٤، ح١٣.

٣ - وانظر بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٥٧، ح١١.

٤ - انظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٣١٩؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٦٣، ح١١.

القدماء، وهي نظريات قامت عليها معتقدات غير الشيعة، كما عرفت ذلك في مباحث التوحيد.

الثانية: الاعتقاد الصحيح بالنبي صلى الله عليه وآله وأنه معصوم بالوحي لا يدانيه خطأ أو نقص، والتسليم لأوامره، فلم يغيروا أو يبدلوا أو يجتهدوا في قبالها، وهذه من خصوصيات معتقد الشيعة، فإن غير الشيعة بعضهم ضيقوا من عصمة النبي صلى الله عليه وآله وبعضهم أنكروها وقالوا إنه يهجر، وبعضهم خطأوا النبي صلى الله عليه وآله بأقوالهم أو بأفعالهم، فخالفوا سنته في العقيدة والعمل، وفي مقابل ذلك عصموا الصحابة، ونزهوا أفعالهم وأقوالهم عن كل خطأ أو نقص، وأعطوهم مكانة النبي صلى الله عليه وآله في التشريع وتأسيس الأحكام، كما تشهد بذلك سيرتهم ومواقفهم وإن لم يصرحوا بها بأقوالهم.

الثالثة: الاعتقاد بأن علياً أمير المؤمنين عليه السلام هو خليفة النبي صلى الله عليه وآله وهو الإمام الذي لا يدانيه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أحد في المنزلة والشرف في الخلق والخلق والعلم ووجوب الاتباع.

الرابعة: أنهم يؤدون حقوق الله سبحانه فيأتون بالطاعات، ويجتنبون المعاصي، ويؤدون حقوق أخوانهم في المواساة، بل والإيثار، فهم يحبون في الله، ويبغضون في الله، ويضحون في سبيله بالأرواح والأنفس. وهذه هي صفات الشيعي، فلو اعتقد بالثلاثة الأول ولم يأت بالرابعة كان موالياً أو محباً وليس شيعياً.

وتؤكد الروايات وحقائق التأريخ أن هذه الحقيقة كانت معروفة منذ زمان الأئمة عليهم السلام، وكانوا على أساسها يتعاملون ويتفاخر بها أصحابهم عليهم السلام، فقد

روي أنه قيل للصادق عليه السلام: إن عماراً الدهني شهد عند ابن أبي ليلى قاضي الكوفة بشهادة فقال له القاضي: قم يا عمار فقد عرفناك لا تقبل شهادتك؛ لأنك رافضي فقام عمار وقد ارتعدت فرائصه، واستفرغه البكاء، فقال له ابن أبي ليلى: أنت رجل من أهل العلم والحديث إن كان يسوؤك أن يقال لك رافضي فتبرأ من الرفض فأنت من اخواننا، فقال له عمار: يا هذا ما ذهبت والله حيث ذهبت، ولكن بكيت عليك وعليَّ. أما بكائي على نفسي فإنك نسبتني إلى رتبة شريفة لست من أهلها، زعمت أني رافضي، ويحك لقد حدثني الصادق عليه السلام: أن أول من سمي الرفضة السحرة الذين لما شاهدوا آية موسى في عصاه آمنوا به، واتبعوه، ورفضوا أمر فرعون، واستسلموا لكل ما نزل بهم، فسماهم فرعون الرافضة لما رفضوا دينه، فالرافضي كل من رفض جميع ما كرهه الله تعالى، وفعل كل ما أمره الله، فأين في هذا الزمان مثل هذه؟ وإنما بكيت على نفسي خشيت أن يطلع الله عز وجل على قلبي وقد تلقبت هذا الاسم الشريف على نفسي فيعاتبني ربي عز وجل، ويقول: يا عمار! أكنت رافضاً للأباطيل عاملاً للطاعات كما قال لك؟ فيكون ذلك بي مقصراً في الدرجات إن سامحني، وموجباً لشديد العقاب علي إن ناقشني، إلاّ أن يتداركني مواليّ بشفاعتهم[1].

وقوله: (فيكون ذلك مقصراً في الدرجات) إلى آخر قوله يشير إلى القاعدة في مجازاة الذنب أو التقصير في العمل، فإنها تقوم على ثلاثة أركان:

الأول: أن الذنب المغفور يوجب نزول الدرجة المعنوية وإن كان يمحي

١ - تفسير العسكري عليه السلام: ص٣١٠- ٣١١، ح١٥٧؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٥٦- ١٥٧، ح١١.

العقوبة؛ بداهة أن عقوبة الذنب صنفان مادي وهو العذاب، ومعنوي وهو هبوط المكانة والمنزلة، كما أن الطاعة لها صنفان من الجزاء.

الثاني: أن ذنب العالم العارف أشد من ذنب الجاهل، فلذا تكون عقوبته أشد أيضاً.

الثالث: أن الشفاعة تنجي العباد من العذاب كما قد تنجيهم من هبوط الدرجات، وذلك يرجع إلى قابلية القابل.

الحقيقة الرابعة: أن الحب الشهوي قد يقع من طرف واحد، إلاّ أن الحب المعرفي أي الذي عبر عنه في الآية بالمودة يتقوم بطرفين، فلا يعقل أن يحب العبد ربه ويعمل له ويطيعه ولا يظهر أثر الحب الإلهي عليه، كما لا يعقل أن يحب المؤمن نبيه وإمامه ولا يحبه النبي والإمام، وإلاّ لزم الخلف؛ لأن ذلك من مقتضى طبع الكامل ومن شروط الكمال.

ومن هنا نلاحظ أن الروايات أكدت على أن علاقة الحب بين الأئمة وشيعتهم جوهرية حقيقية تتلازم من عالم الأصلاب والأرحام إلى يوم القيامة.

ففي أمالي الطوسي قدس سره عن يعقوب بن ميثم التمار قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت له جعلت فداك يا بن رسول الله إني وجدت في كتب أبي أن علياً عليه السلام قال لأبي ميثم: «أحبب حبيب آل محمد وإن كان فاسقاً زانياً، وأبغض مبغض آل محمد وإن كان صوّاماً قواماً، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾[1] ثم التفت

١ - سورة البينة: الآية٧.

إليّ وقال: هم والله أنت وشيعتك يا علي، وميعادك وميعادهم الحوض غداً، غرّاً محجلين، مكتحلين متوجين، فقال أبو جعفر عليه السلام: هكذا هو عياناً في كتاب علي عليه السلام»[١].

ووجه هذا الحب هو تسانخ الطينة كما تفيده أحاديث الطينة المتقدمة، نظير حديث نوف البكالي. قال: قال لي علي عليه السلام: «يا نوف خلقنا من طينة طيبة، وخلق شيعتنا من طينتنا، فإذا كان يوم القيامة ألحقوا بنا»[٢].

ووجه الفرق بين العاصي والصوام القوام هنا هو أن مدار الإيمان على المعتقد لا على العمل، فالذي يؤمن لله وللرسول وللأئمة عليهم السلام هو مؤمن في عقيدته وإن فعل بعض الذنوب؛ لأن العصيان في العمل لا يلازم الكفر في المعتقد، بل يخل بالطاعة، بخلاف الذي لا يسلم في معتقده، وهذا ما يؤكده النبوي الشريف: «ما أحد من شيعة علي عليه السلام إلاّ وهو طاهر الوالدين، تقي نقي مؤمن بالله، فإذا أراد أحدهم أن يواقع أهله جاء ملك من الملائكة الذين بأيديهم أباريق ماء الجنة فيطرح من ذلك الماء في الآنية التي يشرب منها فيشربه، فبذلك الماء ينبت الإيمان في قلبه»[٣] وهذا يظهر معنى الأحاديث الكثيرة التي تنسب أعداء آل محمد إلى خبث المنبت وجحود القلب ونفور الإيمان[٤].

ويؤكد محبة الأئمة لشيعتهم قول الصادق عليه السلام: «والله إني لأحب ريحكم

١ - الأمالي (للطوسي): ص٤٠٦، ح٥٧؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص٢٥، ح٤٦.
٢ - الأمالي (للطوسي): ص٥٧٦، ح٣؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٧٧، ح٣٤.
٣ - بحار الأنوار: ج٢٤، ص٨٨.
٤ - انظر بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٤٥ وما بعدها.

وأرواحكم ورؤيتكم وزيارتكم، وإني لعلى دين الله ودين ملائكته فأعينوا على ذلك بورع»[١] وفي رواية أخرى: «والله إني لأحب رؤيتكم وأشتاق إلى حديثكم»[٢].

وهذا الشوق والارتباط يختلج في نفوس الشيعة أيضاً، ولذا لبسوا جلباب العناء لأجل محبتهم وولايتهم، وهذا ما أكده الصادق عليه السلام في قوله: «إن حواري عيسى كانوا شيعته، وإن شيعتنا حواريونا، وما كان حواري عيسى عليه السلام باطوع له من حوارينا لنا، وإنما قال عيسى عليه السلام للحواريين: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، فلا والله ما نصروه من اليهود، ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله لم يزالوا منذ قبض الله عز ذكره رسوله صلى الله عليه وآله ينصرونا ويقاتلون دوننا، ويحرقون ويعذبون ويشردون في البلدان جزاهم الله عنا خيراً»[٣].

١ - المحاسن: ج١، ص١٦٣، ح١١٣؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص٢٨- ٢٩، ح٥٥.
٢ - المحاسن: ج١، ص١٦٣، ح١١٤؛ بحار الأنوار: ج٦٥، ص٢٩، ح٥٦.
٣ - الكافي: ج٨، ص٢٦٨، ح٣٩٦؛ وانظر بحار الأنوار: ج١٤، ص٢٧٤.

المطلب الثالث: في وجوب إطاعة الإمام عليه السلام

إن العقل والفطرة السليمة يقضيان بوجوب إطاعة الإمام المعصوم عليه السلام؛ لأنه العبد الكامل لله سبحانه، وأنه الخليفة الأوحد للنبي صلى الله عليه وآله، وأنه أعلم أهل زمانه بكل شؤون الدين والدنيا، وأنه أتقاهم وأورعهم وأحرصهم على مصالح الناس، فالكل بحاجة إليه وهو مستغنٍ عن الكل، ومن كانت هذه صفاته ومزاياه تخضع له رقاب الخلق طوعاً، وتسلم أمرها إليه اختياراً؛ لأن الإنسان مجبول بحسب فطرته وطبيعته الإنسانية على حب الكامل والخضوع له، كما أن عقله يحكم بوجوب إطاعته فيما يأمر وينهى بملاكين:

أحدهما: أن الإمام عليه السلام عالم بالحقائق والمصالح والمضار، والعقل يقضي بحسن تحصيل المنافع ودفع المضار، فكل طريق يوصل إلى ذلك يوجب إطاعته.

ثانيهما: أن في اتباعه اتباعاً للحق والصواب، وفي عصيانه اتباعاً للباطل والجهل، والعقل يستقل بالحكم بحسن الأول وقبح الثاني، وهذا أمر أقرته السيرة العقلائية في جميع العصور، وعلى هذا الأساس نجد أن الأمم والشعوب تحترم قادتها وزعماءها، وتمجد مواقفهم، وتتبع سيرهم ونهجهم؛ لأنهم يجدون فيهم الرموز الإنسانية أو الوطنية التي تستحق الطاعة والاتباع،

فما بالك بآل محمد عليهم السلام الذين لا يقاس بهم أحد، ولا يبلغ مراتبهم بشر؟ ويقصر العظماء مهما بلغوا من العظمة على أن يبلغوا مقدار كمالهم وعلمهم ومعارفهم؟ فالطبيعة الإنسانية بحسب طبعها الأولي تحكم على كل إنسان أن يحب آل محمد عليهم السلام، ويلتزم بما يأمرون وينهون ويقررون من أحكام وآداب وعادات وسنن بغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم؛ لأنهم أكمل الخلق وأعلمهم وأفضلهم.

هذا كله إذا تجردت الطبيعة الإنسانية واحتكمت إلى فطرتها وعقلها، إلاّ أن غلبة الهوى وسيطرة الشيطان قد تعطل الفطرة، وتعمي العقل، فينقاد الناس لأهوائهم ويجحدون ما هو واضح، وينكرون ضوء الشمس في وضح النهار فيضلون الطريق، وهذه أزمة قديمة لازمت الحياة البشرية منذ أن خلق الله الخلق، وأرسل إليهم أنبياء، ونصب لهم أوصياء وأئمة.

فإن البشر إذا تجردوا عن مضلات الفتن وصرعوا الهوى والشيطان لا يمكن أن يكفروا بالله، أو يعصوا أوامره، ومتى ما سكنت فيهم مغريات الجهل والضلال يرجعون إلى فطرتهم الموحدة المؤمنة.

ولذا أكد الباري هذه الحقيقة في الكفار والمشركين الذين ينكرون الأنبياء بسبب توهمهم بأن التوحيد والاستجابة للنبي صلى الله عليه وآله تضر بمصالحهم، وتقلل من شأنهم ومكانتهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] حيث وصف الجاحدين بأربع صفات:

١ - سورة النمل: الآية ١٤.

الأولى: أنهم موقنون في أنفسهم ووجدانهم، وجاحدون بحسب ظاهرهم؛ لأن ما جاء به موسى عليه السلام من آيات تسع كانت جلية واضحة أنها خاضعة لموازين إلهية وليست لموازين سحر أو خديعة، فكل عاقل كان ينظر إلى ما جاء به موسى من آيات يؤمن بشرط أن يتجرد عن الهوى؛ لأن الهوى يسوق صاحبه إلى الجحود[1]، وفي اللغة الجحد نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه[2]، ومن الواضح أن أقصر طريق للجاحدين هو اتهام الحقيقة بالكذب، والآية بالسحر؛ لأن الناقص ينسب نقصه إلى غيره ليوهم الآخرين كماله مكابرة منه.

الثانية: أنهم ظالمون بهذا الجحود؛ لأنهم نقصوا من آيات الله سبحانه، ونقصوا من نفوسهم المؤمنة بفطرتها، حيث هبطوا بها إلى مستوى الجحود والكفر، وهو ستر للعقل والفطرة وكفران للنعمة، وهو معنى الظلم في اللغة.

الثالثة: أنهم مصابون بالاستكبار والتعالي على الحقيقة؛ لأن الجاحد يستعلي على الواقع نفسه، وهو طغيان وتمرد.

الرابعة: أنهم من المفسدين؛ لأن صلاح النفوس يتم بالإيمان والاستجابة لنداء العقل والفطرة، والظلم والتعالي يفسدان كل شيء.

ولو لاحظنا هذه الصفات الأربعة في المنكرين للوحدانية الإلهية نجدها

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٦٧؛ تفسير الميزان: ج١٥، ص٣٤٧؛ تفسير الأمثل: ج١٢، ص١٩؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٩٤، تفسير الآية المزبورة.

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٨٧، (جحد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢٠، (جحد).

تنطبق على الجاحدين للرسالات السماوية والأنبياء، كما تنطبق على من أنكر الأئمة عليهم السلام وجحد حقوقهم وظلمهم، وقد مرت عليك الكثير من الشواهد التي أقر بها خصوم آل محمد عليهم السلام بأنهم الأئمة الحق، وأن إطاعتهم واجبة، إلاّ أن القوم أنكروهم طلباً للدنيا[1]، وتدلنا هذه الآية المباركة على حقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: أن محل اليقين هو النفس لا العقل، وأن الكفر قد يجتمع مع العلم واليقين بالحق ولا يعد هذا من التناقض لاختلاف الجهة.

والحقيقة الثانية: أن حقيقة الإيمان تتكون من عنصرين هما: الاذعان والتسليم في الجوانح وإظهار ذلك على الجوارح، ومن هنا يتضح أنه إذا أيقن الإنسان بشيء في جوانحه ولم يظهره في جوارحه فإنه ليس بمؤمن كامل الإيمان، كما أنه إذا أظهر على جوارحه خلاف ما يخفيه في جوانحه ليس بمؤمن وإنما يطلق عليه جاحد، وكفره كفر جحودي في مقابل كفر العقيدة وكفر العمل أي المعصية، وقد عرفه الصادق عليه السلام بقوله: «هو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق قد استقر عنده»[2].

ولأجل هذا الجحود والعناد قد تواترت الأخبار والروايات الدالة على وجوب إطاعة الأئمة عليهم السلام، والتسليم لهم في الأوامر والنواهي، بل في كل ما يتعلق بشؤون الدين والدنيا، وذلك لأجل إزالة الغموض والالتباس التي يعمي بها الشيطان البصائر، ولإقامة الحجة على المخالفين، وإلاّ فإن الفطريات

١ - انظر شرح نهج البلاغة: ج١٢، ص٧٩-٨٠؛ الطرائف: ص٤٢٤؛ الغدير: ج١، ص٣٨٩ وما بعدها.

٢ - الكافي: ج٢، باب ٣٥٤، ص٥٣٥، ح١.

والبديهيات العقلية مما لا تحتاج إلى دليل أو برهان يثبتها. هذا وقد مرت عليك الكثير من النصوص الدالة على هذه الحقيقة، ونكتفي هنا بالوقوف عند آية واحدة من القرآن والنظر في مضامينها والحقائق الناتجة عنها، فهي لعمري كافية لمن أراد الانصاف وقرأ الحقائق بموضوعية، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] وقد مر عليك بعض الكلام عن مضامين هذه الآية المباركة في بحث اشتراط الإمامة بالنص، وهنا مضامين أخرى تهم مقام الطاعة نلفت إليها من خلال أمور:

الأول: أن الخطاب في الآية موجه إلى الذين آمنوا وليس إلى عموم الناس، وذلك لأن غير المؤمن عاص بالمعصية الكبرى فلا يليق بخطاب الطاعة، بل قد يكون أمره بذلك لغواً.

الثاني: أن الأمر تعلق بالطاعة بنحو مطلق؛ إذ لم يحدد مقدار الطاعة وحدودها، ولازم ذلك هو وجوب الطاعة مطلقاً في كل الظروف وفي جميع الأحوال، فيدل على عصمة المطاع وعدم خروجه عن طاعة الله والرسول، فالسياق والإطلاق في الآية يكشفان عن عصمة أولي الأمر، ولازم ذلك هو اختصاص الآية بآل محمد عليهم السلام؛ إذ لا معصوم غيرهم بالضرورة من الدين وباتفاق المسلمين، بل جميع أهل الأديان والملل.

الثالث: أن الآية عطفت إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله على إطاعة الله سبحانه بينما عطفت أولي الأمر على الرسول، ولازم ذلك عرفاً هو أن يكون أولو الأمر كالرسول في المقام والرتبة، فتدل على عصمتهم وخلافتهم له؛ لأن النبي

١ - سورة النساء: الآية٥٩.

معصوم بلا شك، فكذا من جعل في محله، وبذلك يظهر أن الآية تدل على أن خلافة النبي صلى الله عليه وآله منحصرة بأولي الأمر، وهم أهل بيته المعصومون عليهم السلام، فطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته، كما أن طاعة النبي صلى الله عليه وآله هي طاعة الله سبحانه، ومعصيته معصية الله، ولعل التعبير عن المصطفى صلى الله عليه وآله بالآية بلفظ (الرسول) دون النبي مثلاً للإشارة إلى أن أولي الأمر يخلفون النبي صلى الله عليه وآله في رسالته ومهامه الإلهية، وليس فقط في شؤونه الشخصية.

الرابع: اتفقت كلمة المسلمين على أن الآية دالة على عصمة أولي الأمر، ولكنهم اختلفوا في المصداق، فبعضهم فسره بالأمراء والحكام، وبعضهم فسره بالقادة والعلماء وأصحاب المناصب في مختلف المجالات وهو ما يعبر عنه بأهل الحل والعقد، وبعضهم فسره بالحكام بعد النبي صلى الله عليه وآله، وبعضهم فسره بالصحابة عموماً[1]، والأقوال في ذلك كثيرة لكنها ترجع في جوهرها إلى واحد من هذه المعاني.

ونلاحظ هنا أن هذه الأقوال مهما اختلفت في بعض التفاصيل إلاّ أنها تتفق جميعاً على مصداق مشترك بينها، وهي أن آل محمد هم من أولي الأمر، وأنهم معصومون، وهذا المعنى هو القدر المتيقن من الدلالة لانطباق جميع العناوين المذكورة عليهم بالمطابقة أو التضمن، وما زاد عليه يفتقر إلى الدليل.

وعلى هذا ينبغي أن تتفق الكلمة على إمامتهم وخلافتهم لولا التعصب أو اختلاط الحقائق، وبهذا البيان يتضح أن الآية المباركة قد تضمنت بيان

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص١١٤، وانظر تفسير الأمثل: ج٣، ص١٩٤-١٩٥؛ مواهب الرحمن: ج٨، ص٣٥١ وما بعدها؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٠، (أمر).

الكبرى والصغرى في الدليل. أما الكبرى فهي أن إطاعة أولي الأمر واجبة، وهذا الوجوب نفسي عيني تعييني كما يقتضيه إطلاق الأمر على ما حقق في علم الأصول، وأما الصغرى فهي أن أولي الأمر معصومون، وهم الذين يخلفون النبيﷺ، وهذا الوصف لا ينطبق إلاّ على العترة الطاهرة.

والنتيجة: أن كل ما يثبت للنبيﷺ من المزايا والخصوصيات يثبت لهم أيضاً إلاّ ما دل الدليل الخاص على أنه من مختصاتهﷺ، وبهذا تبطل سائر التفاسير التي فسرت أولي الأمر بغير آل محمدﷺ؛ لفقدانها للدليل، أو لانحصار دلالة الآية بالمعصوم، وهؤلاء طراً غير معصومين.

وهذه النتيجة أكدتها الروايات الواردة بطرق الفريقين :

منها: ما ذكره أبو حيان الأندلسي في تفسيره وأبو بكر الشيرازي في رسالة الاعتقاد أن الآية المباركة في حق علي وأهل بيته[1]عليهم السلام.

ومنها: ما رواه الشيخ سليمان الحنفي القندوزي عن سليم بن قيس الهلالي قال : سمعت علياً صلوات الله عليه يقول : أتاه رجل فقال: أرني أدنى ما يكون به العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً، فقال: «قد سألت فافهم الجواب: ... وأما أدنى ما يكون به العبد ضالاً أن لا يعرف حجة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله عز وجل عباده بطاعته، وفرض ولايته» قلت: يا أمير المؤمنين! صفهم

١ - البحر المحيط ج٣،ص٤٢٥ ؛ينابيع المودة : ج١، ص ٣٤١، ح١؛ شواهد التنزيل : ج ١، ص ١٤٩ ؛ وانظر احقاق الحق : ص ٢٠٤، هامش رقم (١) ؛ تفسير الامثل : ج٣، ص ٢٠١ .

لي. قال: «الذين قرنهم الله تعالى بنفسه وبنبيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]» فقلت له: جعلني الله فداك أوضح لي، فقال: «الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مواضع وفي آخر خطبة يوم قبضه الله عز وجل إليه: إني تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي إن تمسكتم بهما: كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي»[2].

ومنها: ما ورد في خطاب أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام للناس بعد البيعة له بالأمر، وفيهم جمع كبير من الصحابة والتابعين وأولي السابقة. قال لهم: «نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أمته ... إلى أن قال: فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة؛ إذ كانت بطاعة الله عز وجل مقرونة. قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ إلى آخر الحديث[3].

وهذا أمر كان معروفاً مشهوداً لدى جميع الصحابة لم ينكره أحد، وفيه قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما الطاعة لله عز وجل ولرسوله ولولاة الأمر، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصيته»[4]. والروايات الواردة بهذا المضمون متواترة[5]، وقد مر عليك أن وجوب

١ - سورة النساء: الاية ٥٩.

٢ - ينابيع المودة: ج١، ص ٣٤٩- ٣٥٠، ح٤.

٣ - الأمالي (للمفيد): ص٣٤٩، ح٤؛ غاية المرام: ص٢٦٧، ح١٣.

٤ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٠٠، ح١١.

٥ - انظر تفسير كنز الدقائق: ج٣، ص٤٤٦ وما بعدها.

الطاعة مما توجبه الفطرة والعقل عند سائر العقلاء فضلاً عن المسلمين.

والنتائج المرتبة على كل ذلك عديدة:

إحداها: أن إطاعة أولي الأمر واجبة شرعاً على عموم المؤمنين بالوجوب النفسي العيني التعييني، والخروج عن هذا النهج خروج عن نهج الإيمان؛ لأن الآية خاطبت الذين آمنوا بذلك.

ثانيها: أن صفة أولي الأمر هي العصمة من الأخطاء والنواقص.

ثالثها: أن القدر المتيقن من معنى أولي الأمر الذي تتفق عليه كلمة المسلمين هم عترة النبي صلى الله عليه وآله من علي عليه السلام إلى المهدي عجل الله تعالى فرجه.

رابعها: أن عترة النبي صلى الله عليه وآله، تمثله في مقامه ورسالته، فلا بد وأن يتمتعوا بذات المزايا والخصوصيات التي يتمتع بها النبي صلى الله عليه وآله من العلم والعصمة، ويثبت لهم من الحقوق ما يثبت لرسول الله صلى الله عليه وآله من وجوب المعرفة والمحبة والطاعة.

خامسها: إن إطاعتهم وخلافتهم لها حيثيتان: حيثية إلهية غيبية، وحيثية بشرية، فهم بشر كسائر الناس، لكنهم يمتازون عليهم بالعلم والعصمة والتنصيب الإلهي لمقام الإمام، وهذه الحقيقة كشفت عنها الآية حيث نصت على أن أولي الأمر منكم أي من سائر المؤمنين لكنهم مطاعون بإذن الله وبأمره، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وآله جابراً بعد أن كشف له هذا السر بأن يكتمه ولا يذيعه إلاّ لأهله كما مرّ في بعض الأخبار المتقدمة[1]؛ لأنه يتطلب قلوباً واعية

١ - انظر كمال الدين: ج١، ص٢٢٢، ح٨.

ونفوساً غلبت هواها وامتحنت للإيمان.

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يشير إلى أن ولاية الأمر دائمة ثابتة لشخص موجود حاضر في الأمة؛ إذ لا معنى لأن تكون ولاية من دون ولي، ولا معنى لأن يكون منهم وهو غير موجود في زمان أو مكان، فالولي دائماً موجود، غاية الأمر قد تقصر الأمة عن الوصول إليه بسبب سوء أفعالها، وهذا ما يؤكد حقيقة وجود المهدي عجل الله تعالى فرجه، وأن غيبته ناشئة من عدم قابلية القابل؛ لعدم لياقة الأمة، وليست لفاعلية الفاعل على أنه عليه السلام نصب خلفاء له في غيبته يقومون بمهامه بالتنصيب الخاص ثم العام على ما ستعرفه.

وبهذا يتضح جلياً أن العقيدة الصحيحة تتقوم بالاعتقاد بالأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله وبأنهم معصومون مطهرون، وأن طاعتهم واجبة على كل مسلم، وأن أمرهم هو أمر الله تعالى، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته، ووليهم وليه، وعدوهم عدوه، ولا يجوز الرد عليهم أو التخلف عنهم أو خذلانهم أو التقصير في أداء حقوقهم؛ لأن ذلك كله رد على الله ورسوله، وهو من المعاصي الكبيرة التي تنتهي إلى الجحود والكفران.

وهنا حقائق عديدة تتفرع على هذه النتيجة:

الحقيقة الأولى: أن عنوان (أولي الأمر) إنما يصدق عرفاً على من كان صاحباً للأمر واقعاً، لا من تغلب عليه بالقوة والقهر؛ بداهة أن ولي المال والولد يقال لمن كان كذلك حقاً لا بالقوة والغلبة، كما أن قولهم (أولو الألباب) أي من كانوا كذلك حقيقة وواقعاً لا المتظاهرون بذلك، أو المنتحلون لهذه الصفة،

وقد اتفق الأصوليون والأدباء على أن الألفاظ موضوعة للمعاني الحقيقية لا المتخيلة أو المتوهمة، وهذا مما يقضي به العقل أيضاً، وإلاّ لم يبق فرق بين المالك والغاصب والمشروع واللامشروع في الولاية.

فولي الأمر هو من كان وليه حقاً، و ولي الأمر حقاً لا يكون إلاّ أعلم الأمة وأتقاها وأولاها بما يهم من أمور الدين والدنيا كما يقتضيه معنى الأمر لغة وعرفاً[١].

وولي الأمر هو الأولى بتدبير ذلك ورعاية شؤونه، وليس هو إلاّ الإمام المعصوم عليه السلام، وعلى هذا يظهر أن الآية المباركة تثبت الولاية للمعصوم عليه السلام، ومن ثبتت ولايته وجبت طاعته؛ لوضوح أن وجوب الطاعة يدور مدار الولاية؛ لأن الأصل عدم ولاية أحد على أحد، سوى أن ولاية الله سبحانه على الخلق ذاتية؛ لأنها ثابتة بالإيجاد والتكوين، وأما ولاية النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام فتابعة، ولكن لها جنبتان: ذاتية لكونهما وسائط الفيض في تكوين الأشياء، حيث جعلهما الله مظاهر قدرته، ووعاء مشيئته، وعرضية حيث أمر المؤمنين بإطاعتهما، ونهى عن معصيتهما في مثل الآية مورد البحث، ومثل قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٢] وفي النبوي الشريف: «أيها الناس! من عصى علياً فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله»[٣].

الحقيقة الثانية: قد يتصور البعض أن البحث في وجوب إطاعة الإمام عليه السلام

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٩-٩٠، (أمر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٠، (أمر)؛ وانظر آيات العقائد: ص٣٤٦.

٢ - سورة النساء: الآية ٨٠.

٣ - معاني الأخبار: ص٣٧٢، ح١.

من البحوث التي عفا عليها الزمن، وليس لها ثمرة تذكر، فالخوض فيها يعد من الحديث فيما لا أثر له، وذلك لأننا نعيش في زمان غيبة الإمام عليه السلام، ووجوب طاعته مختص بزمان حضوره عليه السلام.

وهذا التصور بعيد عن الصواب، وقاصر عن فهم حقيقة الإمام ومكانته الدينية والدنيوية، والحق أنه بحث من أهم البحوث العقدية التي تنعكس على حياة البشر في جميع العصور والأزمنة، وعلى رحاها يدور التقدم والتأخر في الأمم، والسعادة والشقاء لأبنائها، وذلك لأن إطاعة الإمام لا تنحصر بإطاعة شخصه، بل شخصيته ومكانته والاقتداء بهديه ونهجه في مختلف المجالات؛ بداهة أن الإطاعة في المنهج أبلغ وأعمق أثراً، بل إطاعة المنهج إطاعة الشخص للاتحاد والعينية بينهما ويظهر أثر إطاعة الإمام عليه السلام في حياة الأمة في أبعاد عديدة تهم حياة الناس في كل زمان ومكان:

الأول: في البعد العلمي والحضاري؛ بداهة أن الإمام المعصوم عليه السلام هو إمام العلم والمعرفة في الرؤية الكونية من التوحيد إلى المعاد، وفي الأخلاق والآداب، وفي الأحكام والقضاء، وفي تشكيل الدولة ونظام الحكم، وفي العقود والإيقاعات وكل ما يهم الإنسان في حياته الدينية والدنيوية، وفرض الطاعة له لازم على كل مسلم في الأمور الخاصة، كما هو لازم في الأمور العامة؛ إذ لا يعقل أن يكون المسلم مطيعاً لولي الأمر في شؤونه البيتية ولا يطيعه في العقيدة والأخلاق وبناء الدولة ونظام الأسرة وغيرها من تعاليم وأنظمة.

وإلى هذا أشارت الصديقة الكبرى بقولها عليها السلام: «جعل طاعتنا نظاماً

للملة» والملة الطريقة والدين والشريعة، ومعناه أن بإطاعتهم عليهم السلام يستقيم الدين ويستحكم، فلولا إطاعتهم لضعفت واندرست معالمه وأحكامه، وتلاعبت به الأهواء والمصالح، و«إمامتنا أماناً للفرقة»[1] وأما إمامتهم فهي طريق وحدة المسلمين وسبب عزتهم وكرامتهم، فلو اتخذهم الناس أئمة وتركوا غيرهم يكونوا على النظام الذي قرره الله ورسوله، وإذا توازن العمل مع السنن الإلهية ظهرت خيراته وبركاته في كل جوانب الحياة ومنها وحدة الكلمة وتلاحم القلوب والتناصر في المواقف، وهذا ما تؤكده صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام حيث قال: «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى الطاعة للإمام بعد معرفته»[2].

الثاني: في بعد الحاضر والمستقبل، فإن وجوب إطاعة الإمام عليه السلام لا تختص بزمان الحضور، بل يجري في زمان الغيبة أيضاً، وذلك لأن الإمام عليه السلام نصب لهذا الزمن أئمة وقادة للناس وهم الفقهاء المجتهدون المؤمنون العدول الأكفاء، وجعلهم نواباً له وحجة على الناس، وأمر الناس بإتباعهم وإطاعتهم، وجعل إطاعتهم إطاعة للإمام عليه السلام، ومعصيتهم معصية له، بل وحرم على الأمة الرجوع إلى غيرهم ليس في التقليد والشؤون الشخصية، بل في القضاء والأمور العامة، وعلى هذا يظهر أن وجوب الطاعة مستمر مع الأيام والأجيال لا ينقضي أو يعفي عليه الزمن في يوم ما، وقد تواتر هذا المعنى في الروايات الكثيرة نكتفي بالإشارة إلى بعضها:

---

١ - دلائل الإمامة: ص٣٣؛ كشف الغمة: ج١، ص٤٨٠؛ الاحتجاج: ج١، ص١٣٤.

٢ - الكافي: ج٢، ص١٩، ح٥؛ الوسائل: ج١، الباب١ من أبواب وجوب العبادات، ص٧، ح٢.

منها: التوقيع المبارك الذي رواه الصدوق قدس سره بسنده عن إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت علي، فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان عليه السلام -بعد أن أجاب عن مسائله - يقول فيه: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»[1].

ومعنى الحجة ما يصح الاحتجاج بها عند الخصومة والحساب، ولازم ذلك وجوب إطاعتها وحرمة معصيتها، وإلاّ بطلت حجيتها، والأمر بالإرجاع يحمل على الوجوب النفسي العيني التعييني كما هو مقتضى الأصل، ورواة الحديث ينطبق على الفقيه الجامع للشرائط من جهة المصداق الأكمل من الراوي، أو من جهة الأولوية العقلية؛ إذ لو كان قول الراوي حجة تثبت حجية قول الفقيه بالأولوية؛ إذ لا فرق بينهما من حيث المآل سوى أن الراوي ينقل لفظ المعصوم، وأما الفقيه فينقل حكمه ومعناه، ووصف الحوادث بالواقعة يفيد وجوب استمرارية الرجوع إلى الفقهاء في كل العصور والأزمنة.

ومنها: مقبولة عمر بن حنظلة عن الصادق عليه السلام حيث أرجع المتنازعين في خصومة إلى الفقيه الجامع للشرائط، ومنع من الرجوع إلى غيره من القضاة والسلاطين غير الجامعين، بل جعل الرجوع إليهم من الطغيان وأكل السحت، حيث قال: «من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم

١ - كمال الدين: ص٤٨٤، ح٤؛ الوسائل: ج٢٧، الباب١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٤٠، ح٩.

إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً له؛ لأنه أخذه بحكم الطاغوت، وما أمر الله أن يكفر به قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[1]» قلت: فكيف يصنعان؟ قال: «ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله، وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله وهو على حد الشرك بالله»[2].

وعنوان العارف بالأحكام والناظر في الحلال والحرام ينطبق على الفقية المجتهد المستجمع لشرائط العلم والإيمان والعدالة، وقد أمر عليه السلام بالرضا به لأن يكون حاكماً بين المتنازعين، والأمر محمول على الوجوب، بل قوله عليه السلام: « فإني قد جعلته عليكم حاكماً» ظاهر في جعل كبرى كلية تفيد حكومة الفقيه في جميع الموارد، وحرمة الرجوع إلى غيره؛ لأنه رجوع إلى الطاغوت، والرجوع إلى الطاغوت والاستعانة به حتى لاسترداد الحقوق محرم في نفسه ضمن شروط وقيود تبحث في باب القضاء والاجتهاد والتقليد.

ولازم تنصيب الفقيه حاكماً هو وجوب إطاعته وحرمة مخالفته، بل نص الإمام عليه السلام على أن مخالفته تنتهي في السلسلة الطولية إلى الشرك بالله إذا انطبق عليها عنوان الرد عليهم وعدم التسليم لأمرهم.

---

١ - سورة النساء: الآية ٦٠.

٢ - الكافي: ج١، ص٥٤، ح١٠؛ وانظر الوسائل: ج٢٧، الباب١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٣٦ - ١٣٧، ح١.

ومنها: ما دل على حرمة التشكيك فيما يرويه ثقات الرواة والعلماء من أصحابهم كزرارة ومحمد بن مسلم وبريد العجلي ويونس بن عبد الرحمن والعمري وابنه، بل أمر الإمام العسكري عليه السلام بوجوب الاستماع إلى العالم الثقة ووجوب إطاعته فيما يقول؛ لأن قوله هو قول الإمام، وإطاعته هي إطاعة الإمام عليه السلام [1].

ومنها: معتبرة إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير خبث الحديد»[2] ومضمون هذه الرواية يتضح بأمور:

أحدها: أن الذين يملكون القدرة على نفي تأويل أهل الباطل وتحريف المغالين وانتحال الجاهلين للدين ومعارفه هم العلماء والفقهاء وليس عموم الناس.

ثانيها: أن للعدول في قوله (عدول) معنيين هما:

المعنى الشرعي، فإن العادل شرعاً هو الذي له ملكة فعل الطاعات واجتناب المعاصي على ما هو المشهور بين الفقهاء[3].

---

١ - انظر الروايات الواردة بهذا الشأن في كتاب الوسائل: ج٢٧، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٣٨ وما بعدها، ح٤، ح١٤، ح١٥، ح٣٦.

٢ - الوسائل: ج٢٧، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي، ص١٥١، ح٤٣.

٣ - انظر المقنعة: ص٧٢٥؛ النهاية: ج٢، ص٥٢؛ السرائر: ج١، ص٢٨٠؛ رسائل فقهية (للشيخ الأنصاري): ص٦.

والمعنى اللغوي، أي الاستواء في الطريقة، ويقابله الجور وهو الانحراف عن ذلك[١].

وكلاهما ينطبقان على الفقهاء بالدلالة المطابقية؛ لانحصار الأوصاف المذكورة بهم، أو بالدلالة التضمنية، بل انطباقه عليهم من باب القدر المتيقن الذي لا يشك فيه.

ثالثها: أن قوله عليه السلام: «يحمل هذا الدين في كل قرن» يدل على أن حاجة الدين إلى الفقهاء مستمرة في كل عصر وزمان سواء كان عصر الحضور أم عصر الغيبة، والنتيجة الحاصلة من هذه المضامين هو وجوب الرجوع إلى الفقهاء فيما يتعلق بأمور الدين، ووجوب إطاعتهم فيما يأمرون وينهون، وإلاّ تعذر نفي الأباطيل عنه.

والحاصل: أن وجوب إطاعة الإمام عليه السلام تارة تكون مباشرة وهي تختص بزمان الحضور، وتارة امتدادية وهي تتعلق بإطاعة الفقهاء العدول في زمان الغيبة بما أنهم نواب ووكلاء نصبهم الإمام حججاً وحكاماً على الناس، وأوجب الرجوع إليهم، وهذه مهمة مستمرة في كل زمان ومكان وتفتقر إلى بحث ومعرفة.

الثالث: بعد الاقتداء والتأسي، إذ لابد للناس من قادة وزعماء يقتدون بهم في مختلف شؤونهم، ويأخذون منهم الأفكار والمواقف، ويتعلمون منهم أساليب الحياة الصحيحة، وهذه حاجة من الحاجات الفطرية للبشر، ومن

---

١ - انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧١٨، (عدل)؛ لسان العرب: ج١١، ص٤٣٠، (عدل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٤٢٠، (عدل).

الواضح أن أكمل قدوة حسنة هو النبي المصطفى وعترته الطاهرة؛ لأنهم أشرف الخلق وأكملهم في العلم والعمل، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه»[1] كما وصف الباري عزوجل رسوله المصطفى بأنه قدوة للناس ، وأمرهم بإتباعه حيث قال : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] وواضح أن الاقتداء لا يتحقق إلاّ بالطاعة والاتباع، وعليه فإن مفهوم الطاعة وحكمها لا يتحدد في زمان أو مكان، بل يلازم الحياة الإنسانية في كل الأزمنة؛ لحاجة الإنسان إلى القدوة الحسنة في كل مجالات حياته.

الحقيقة الثالثة: إن للإطاعة ثلاث مراتب هي:

١ـ المحبة ٢ـ الاتباع ٣ـ التسليم

وكل واحدة من هذه الثلاث تحتل موقعاً في شخصية المؤمن الموالي فالمحبة مركزها القلب، والاقتداء مركزه العمل، والتسليم مركزه النفس، فلا يعقل أن يكون المؤمن مطيعاً لإمامه وهو يجمع في قلبه حبين: حب إمامه وحب أعدائه وخصومه؛ لأن ذلك من التناقض، فطاعة المحب تتحقق بحب الإمام وبغض أعدائه.

كما لا يعقل أن يكون المؤمن مطيعاً في عمله ويقتدي بغير إمامه، أو يجعل الغير نظيراً لإمامه في الاعتبار والطاعة، بل طاعة العمل تتحقق بالاقتداء بأعمال الإمام والتبري من أعمال أعدائه.

---

١ - نهج البلاغة: ج٣، ص٧٠، الخطبة ٤٥.

٢ - سورة الأحزاب: الآية٢١.

وأيضاً لا يعقل أن يكون المؤمن موالياً وهو في عين الحال لا يسلم لأمر إمامه، ولا يذعن لمناقبه وكراماته ومقاماته، ولا يرضى بما يعود عليه في هذا السبيل من الأذى أو الضرر، فالتسليم للإمام علامة اليقين وصدق الإيمان، ولا يكون المؤمن مؤمناً وهو يتبع إمامه لا عن رضا قلبه وتسليم نفسه.

وفي رواية سدير عن أبي جعفر عليه السلام: «إنما كلف الناس ثلاثة: معرفة الأئمة، والتسليم لهم فيما ورد عليهم، والرد إليهم فيما اختلفوا فيه»[1] ومن هنا نعرف أن حقيقة الطاعة للإمام التي تقود صاحبها إلى مراتب الإيمان العالية هي التسليم؛ لأنه يتضمن المحبة والاتباع، وهذا ما أكدته رواية يحيى بن زكريا عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: «من سره أن يستكمل الإيمان فليقل: القول مني في جميع الأشياء قول آل محمد عليهم السلام فيما أسروا وفيما أعلنوا وفيما بلغني وفيما لم يبلغني»[2].

الحقيقة الرابعة: أن التسليم والطاعة من الحقائق المشككة التي تختلف بحسب المراتب والدرجات، كما أن الناس يتمايزون في درجات الإيمان بحسب درجاتهم في التسليم والطاعة، كما أن أهل الإيمان يتمايزون في مراتب ولايتهم ومقاماتهم المعنوية بحسب مراتبهم في التسليم، وتؤكد الأخبار وشواهد التأريخ وجود مظاهر عديدة للتسليم تنعكس على مواقف الموالين يمكن الإشارة إلى بعضها:

المظهر الأول: الثبات على المنهج، ففيما بيّنه الرضا عليه السلام للمأمون في تعريف

١ - الكافي: ج١، ص٣٩٠، ح١.

٢ - الكافي: ج١، ص٣٩١، ح٦؛ مختصر بصائر الدرجات: ص٩٣؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٦٤، ح٢.

الموالين من غيرهم حيث أبان علو مكانتهم بالولاية لأمير المؤمنين عليه السلام، وبالمضي على منهاج نبيهم، ولم يغيروا ولم يبدلوا مثل سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبي الهيثم بن التيهان وسهيل بن حنيف وعبادة بن الصامت وأبي أيوب الأنصاري وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وأبي سعيد الخدري وأمثالهم رضي الله عنهم، والولاية لأتباعهم وأشياعهم والمهتدين بهديهم، وللسالكين منهاجهم رضوان الله عليهم ورحمته[١].

المظهر الثاني: الإيثار والتضحية من أجل الإمام عليه السلام، وهذه الدرجة بلغ بها سلمان الفارسي درجات الأولياء والحواريين، ففي أمالي الشيخ الطوسي قدس سره عن منصور بن بزرج قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ما أكثر ما أسمع منك سيدي ذكر سلمان الفارسي؟ قال: «لا تقل سلمان الفارسي ولكن قل سلمان المحمدي، أتدري ما لكثرة ذكري له؟» قلت: لا. قال: «لثلاث خلال: إحداها إيثاره هوى أمير المؤمنين عليه السلام على هوى نفسه»[٢] وفيما ترويه كتب التراجم عن خواص الموالين موقف أخوة خمسة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وهم شرحبيل وهبيرة وكريب وبريد وشمير قتلوا جميعاً بصفين، وكان كل واحد منهم يأخذ الراية بعد آخر حتى استشهدوا جميعاً[٣].

المظهر الثالث: اليقين بالموقف، وهذه حقيقة صعبة قلما يتصف بها

---

١ - بحار الأنوار: ج١٠، ص٣٥٨، ح١.

٢ - انظر تتمة الحديث في بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٢٧، ح٣٣.

٣ - اختيار معرفة الرجال: ج١، ص٣٦، رقم (١٤)؛ رجال الطوسي: ص٦٨، رقم (٩)؛ خلاصة الأقوال: ص١٦٨، رقم(١).

الرجال، واجد أفضل من بيانها أن أنقل قصة رجل امتاز بها ونترك أحداثها تنقل الصورة، وهي قصة الطرماح بن عدي بن حاتم الطائي حيث أرسله أمير المؤمنين عليه السلام في رسالة إلى معاوية، وكان رجلاً جسيماً طويلاً أديباً لبيباً فصيحاً لسناً متكلماً لا يكل لسانه، ولا يعي عن الجواب، فعممه بعمامته، ودعا له بجمل بازل وثيق فائق أحمر، فسوى راحلته ووجهه إلى دمشق ... فأخذ الطرماح الكتاب، وكوّر بعمامته، وركب مطيته، وانطلق حتى دخل دمشق، فسأل عن دار الإمارة، فلما وصل إلى الباب قال له الحاجب: من بغيتك؟ قال: أريد أصحاب الأمير أولاً، ثم الأمير ثانياً، فقالوا له: من تريد منهم؟ قال: أريد جعشماً وجروالاً ومجاشعاً وباقعاً.

وكان أراد أبا الأعور السلمي وأبا هريرة الدوسي وعمر بن العاص ومروان بن الحكم، فقالوا: هم بباب الخضراء يتنزهون في بستان، فانطلق وسار حتى أشرف على ذلك الموضع فإذا قوم ببابه، فقالوا: جاءنا إعرابي يدوي دوين إلى السماء تعالوا نستهزئ به، فلما وقف عليهم قالوا: يا أعرابي! هل عندك من السماء خبر؟ فقال: بلى الله تعالى في السماء وملك الموت في الهواء وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الفضاء فاستعدوا لما ينزل عليكم من البلاء يا أهل الشقاوة والشقاء. قالوا: من أين أقبلت؟ قال: من عند حر تقي نقي زكي مؤمن رضي مرضي. فقالوا: وأي شيء تريد؟ فقال: أريد هذا الدعي الردي المنافق المردي الذي تزعمون أنه أميركم، فعلموا أنه رسول أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى معاوية، فقالوا: هو في هذا الوقت مشغول. قال: بماذا بوعد أو وعيد؟ قالوا: لا ولكنه يشاور أصحابه فيما يلقيه غداً. قال: فسحقاً له وبعداً.

فكتبوا إلى معاوية بخبره: أما بعد فقد ورد من عند علي بن أبي طالب رجل إعرابي بدوي فصيح لسن طلق ذلق يتكلم فلا يكل، ويطيل فلا يمل، فأعد لكلامه جواباً بالغاً، ولا تكن عنه غافلاً ولا ساهياً والسلام.

فلما بلغ الخبر إلى معاوية أمر ابنه يزيد أن يخرج ويضرب المصاف[1] على باب داره، فخرج يزيد وكان على وجهه أثر ضربة فإذا تكلم كان جهير الصوت، فأمر بضرب المصاف ففعلوا ذلك، وقال للطرماح: هل لك أن تدخل على باب أمير المؤمنين؟ فقال: لهذا جئت، وبه أمرت، فقام إليه ومشى، فلما رأى أصحاب المصاف وعليهم ثياب سود فقال: من هؤلاء القوم كأنهم زبانية لمالك على ضيق المسالك؟ فلما دنا من يزيد نظر إليه فقال: من هذا الميشوم ابن الميشوم الواسع الحلقوم المضروب على الخرطوم؟! فقالوا: مه يا أعرابي ابن الملك يزيد، فقال: ومن يزيد لا زاد الله مزاده، ولا بلغه مراده، ومن أبوه؟ كانا قدماً غائصين في بحر الجلافة واليوم استويا على سرير الخلافة، فسمع يزيد ذلك واستشاط وهمّ بقتله غضباً ثم كره أن يحدث دون إذن أبيه فلم يقتله خوفاً ... فقال: يا أعرابي! إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام.

فقال: سلامه معي من الكوفة، فقال يزيد: سلني عما شئت فقد أمرني أمير المؤمنين بقضاء حاجتك، فقال: حاجتي إليه أن يقوم من مقامه حتى يجلس من هو أولى منه بهذا الأمر!!

قال: فماذا تريد آنفاً؟ قال: الدخول عليه، فأمر برفع الحجاب وأدخله إلى

---

١ - أي موضع الاصطفاف للقوم، وهم يصطفون لاستقبال الضيف القادم. يقال: تصافوا أي وقفوا صفوفاً متقابلة؛ انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٥١٧، (صف)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٨١، (صفف).

معاوية وصواحبه، فلما دخل الطرماح وهو متنعل قالوا له: اخلع نعليك، فالتفت يميناً وشمالاً ثم قال: هذا رب الوادي المقدس فأخلع نعلي؟! فنظر فإذا هو معاوية قاعد على السرير مع قواده وخاصته ومثل بين يديه خدمه، فقال: السلام عليك أيها الملك العاصي، فقرب إليه عمرو بن العاص فقال: ويحك يا أعرابي ما منعك أن تدعوه بأمير المؤمنين؟ فقال: ثكلتك أمك يا أحمق نحن المؤمنون فمن أمّره علينا بالخلافة.

فقال معاوية: ما معك يا أعرابي؟ فقال: كتاب مختوم من إمام معصوم، فقال: ناولنيه. قال: أكره أن أطأ بساطك. قال: ناوله وزيري هذا وأشار إلى عمرو بن العاص. فقال: هيهات هيهات ظلم الأمير وخان والوزير، فقال: ناوله ولدي هذا وأشار إلى يزيد، فقال: ما نرضى بإبليس فكيف بأولاده؟ فقال: ناوله مملوكي هذا وأشار إلى غلام له قائم على رأسه، فقال الأعرابي: مملوك اشتريته من غير حل، وتستعمله من غير حق! قال: ويحك يا أعرابي فما الحيلة وكيف نأخذ الكتاب؟ فقال الأعرابي: أن تقوم من مقامك وتأخذ بيدك على غير كره منك، فإنه كتاب رجل كريم وسيد عليم وحبر حليم بالمؤمنين رؤوف رحيم.

فلما سمع منه معاوية وثب من مكانه وأخذ منه الكتاب بغضب، وفكه وقرأه ووضعه تحت ركبتيه ثم قال: كيف خلفت أبا الحسن والحسين؟ قال: خلفته بحمد الله كالبدر الطالع، حواليه أصحابه كالنجوم الثواقب اللوامع إذا أمرهم بأمر ابتدروا إليه، وإذا نهاهم عن شيء لم يتجاسروا عليه، وهو من بأسه يا معاوية في تجلد بطل شجاع سيد سميدع، إن لقي جيشاً هزمه وأرداه، وأن لقي قرناً سلبه وأفناه، وأن لقي عدواً قتله وجزأه.

قال معاوية: كيف خلفت الحسن والحسين؟ قال: خلفتهما بحمد الله شابين نقيين تقيين زكيين عفيفين صحيحين سيدين طيبين فاضلين عاقلين عالمين مصلحين في الدنيا والآخرة، فسكت معاوية ساعة فقال: ما أفصحك يا أعرابي؟ قال: لو بلغت باب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لوجدت الأدباء الفصحاء البلغاء الفقهاء النجباء الأتقياء الأصفياء، ولرأيت رجالاً سيماهم في وجوههم من أثر السجود، حتى إذا استعرت نار الوغى قذفوا بأنفسهم في تلك الشعل لابسين القلوب على مدارعهم، قائمين ليلهم، صائمين نهارهم، لا تأخذهم في الله ولا في ولي الله علي لومة لائم، فإذا أنت يا معاوية رأيتهم على هذه الحال غرقت في بحر عميق لا تنجو من لجته.

واستمر الحوار بينهما حتى التفت معاوية إلى كاتبه وقال: اكتب جوابه، فوالله لقد أظلمت الدنيا عليّ ومالي طاقة[1]، والحديث مفصل اكتفينا ببعض فقراته، ودلالاته على قوة البصيرة ورباطة الجأش واليقين بحق الإمام والتنمّر في نصرته والثبات على موقفه جليّة.

المظهر الرابع: تواضع النفس، ففي موثقة زرارة قال: شهد أبو كريبة الأزدي[2] ومحمد بن مسلم الثقفي عند شريك بشهادة وهو قاض[3]، فنظر في وجههما ملياً ثم قال: جعفريان فاطميان؟ فبكيا، فقال: ما يبكيكما؟ قالا: نسبتنا إلى أقوام لا يرضون بأمثالنا أن نكون من إخوانهم لما يرون من سخف ورعنا، ونسبتنا إلى رجل لا يرضى بأمثالنا أن يكونوا من شيعته، فإن تفضل

١ - انظر بحار الأنوار: ج٣٣، ص٢٨٩- ٢٩٣، ح٥٥٠.
٢ - انظر قاموس الرجال: ج١١، ص٤٨٢، الرقم(٧٩١).
٣ - انظر ترجمته في قاموس الرجال: ج٥، ص٤١٩، الرقم(٣٥٦١).

وقبلنا فله المن علينا والفضل، فتبسم شريك ثم قال: إذا كانت الرجال فلتكن بأمثالكم، يا وليد أجزهما هذه المرة[١].

وهذه الصفة كانت من السمات البارزة في شخصية هذا الرجل؛ إذ تؤكد كتب التراجم أن محمد بن مسلم كان رجلاً موسراً جليلاً، فقال له أبو جعفر عليه السلام: «تواضع» فأخذ قوصرة[٢] فوضعها على باب المسجد، وجعل يبيع التمر، فجاء قومه وقالوا: فضحتنا، فقال: أمرني مولاي بشيء فلا أبرح حتى أبيع هذه القوصرة، فقالوا: أما إذا أبيت إلاّ هذا فأقعد في الطحانين، ثم سلموا إليه رحى فقعد على بابه وجعل يطحن[٣].

لا شك أن هذا الموقف ينم عن يقين كامل وتسليم مطلق للإمام عليه السلام بحيث يجعل العالم الكبير والفقيه بياعاً للتمر في الزقاق؛ لأجل أن يطبق أمر إمامه حيث أمره بالتواضع، ثم صار طحاناً وهو الغني الموسر لأجل هذا الأمر.

المظهر الخامس: الصبر والثبات على الإيمان، وأكتفي هنا بمثال محمد بن أبي عمير، فقد كان من أوثق الناس عند الخاصة والعامة وأنسكهم وأورعهم

١ - رجال الكشي: ص١٦٢، الرقم(٢٧٤)؛ منتهى المقال: ج٦، ص١٩٨؛ بحار الأنوار: ج٤٧، ص٣٩٣، ح١١٥.

٢ - القوصرة بتشديد الراء أو تخفيفها ما يكنز فيه التمر، انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٦٠، (قصر).

٣ - رجال الكشي: ص١٦٤، الرقم(٢٧٨)؛ منتهى المقال: ج٦، ص١٩٩-٢٠٠؛ مستدرك الوسائل: ج١٣، الباب٢٦ من أبواب مقدمات التجارة، ص٦٠، ح٣؛ اختيار معرفة الرجال: ج١، ص٣٨٨- ٣٨٩، ح٢٧٨.

وأعبدهم. أدرك من الأئمة ثلاثة، أبا إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام والرضا والجواد[١]، وذكر الجاحظ أنه كان واحد زمنه في الأشياء كلها، وله مصنفات كثيرة منها نوادره، وكان يحفظ منها أربعين مجلداً، عرض عليه هارون العباسي أن يتولى القضاء فرفض ذلك، فضربه السندي بن شاهك مائة خشبة وعشرين خشبة على التشيع أمام هارون، وحبس فأدى مائة وواحداً وعشرين ألف درهم حتى خلي عنه، وكان متمولاً[٢].

وفي عبادته قال الفضل بن شاذان: دخلت العراق فرأيت واحداً يعاتب صاحبه ويقول له: أنت رجل عليك عيال، وتحتاج أن تكسب عليهم، وما آمن من أن تذهب عيناك لطول سجودك. قال: فلما أكثر عليه قال: أكثرت عليّ ويحك! لو ذهبت عين أحد من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير، ما ظنك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما يرفع رأسه إلا عند الزوال[٣]؟

ومن غرائب صفات هذا الرجل الالتزام باتباع الإمام عليه السلام في أشد الظروف وأقساها، ففي الفقيه أن بن أبي عمير كان بزازاً فذهب ماله وافتقر، وكان له على رجل عشرة آلاف درهم فباع داراً له كان يسكنها بعشرة الآف درهم وحمل المال إلى بابه، فخرج إليه محمد بن أبي عمير فقال: ما هذا؟ ... قال: بعت داري التي أسكنها لأقضي ديني، فقال محمد بن أبي عمير: حدثني ذريح المحاربي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «لا يخرج الرجل عن مسقط

١ - خلاصة الأقوال: ص١٤٠، الرقم(١٧).

٢ - انظر اختيار معرفة الرجال: ج٢، ص٨٥٦؛ معجم رجال الحديث ج١٥، ص٢٩٥.

٣ - تفسير القمي: ج١، ص١٢؛ قاموس الرجال: ج٩، ص٤١ـ الرقم(٦٣٢٦).

رأسه بالدين» ارفعها فلا حاجة لي فيها، ووالله إني محتاج في وقتي هذا إلى درهم، وما يدخل ملكي منها درهم[١].

فمن يا ترى يترك هذا المال وهو في أمس الحاجة إليه لأجل أن لا يخالف حديثاً واحداً روي له عن إمامه؟ ومخالفته للحديث لم يترتب عليها أثر محرم؛ لأنه مضطر ويباح للمضطر ما لا يباح لغيره، إلاّ أنه لمزيد التسليم والتزهد ولمزيد التنزه عن الأنانية ومواساة الأخوان أبى أن يأخذ كل ذلك.

المظهر السادس: التفاني في الطاعة، واكتفي بتوضيح هذه الحقيقة بموقف جابر الجعفي، وهو من أجلاء الرواة وأعاظم الثقات، بل هو من حملة أسرار الأئمة وحفظة كنوز أخبارهم، حمل تسعين ألف حديث عن أبي جعفر لم يحدث بها أحداً قط ، لأن الإمام منعه من ذلك. قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك أنك قد حملتني وقراً عظيماً بما حدثتني به من سركم الذي لا أحدث به أحداً، فربما جاش في صدري حتى يأخذني منه شبه الجنون قال: «يا جابر! فإذا كان ذلك فاخرج إلى الجبال (جبان- خ ل) فاحفر حفيرة ودل رأسك فيها ثم قل: حدثني محمد بن علي بكذا وكذا»[٢].

وكان له علم بالمستقبل وما يحدث في الزمان، وله علم بمفاتيح الولاية

١ - من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص١٩٠، ٣٧١٥؛ وانظر قاموس الرجال: ج٩، ص٤٢، الرقم(٦٣٢٦).

٢ - بحار الأنوار: ج٢، ص٦٩، ح٢٢؛ ج٤٦، ص٣٤٠، ح٣٠؛ اختيار معرفة الرجال: ج٢، ص٤٤٢.

التكوينية على الأشياء وأسرارها[١]، وصفه الصادق عليه السلام بقوله: «إنما سمي جابراً لأنه جبر المؤمنين بعلمه، وهو بحر لا ينزح، وهو الباب في دهره والحجة على الخلق من حجة الله أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام»[٢].

هذا الرجل بهذه المكانة والمنزلة. انظر كيف سلّم لأمر إمامه، فقد روى النعمان بن بشير قال: كنت مزاملاً لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنا بالمدينة دخل على أبي جعفر عليه السلام فودعه وخرج من عنده وهو مسرور حتى وردنا الأخيرجة أول منزل تعدل من فيد - بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة - إلى المدينة يوم جمعة فصلينا الزوال، فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طوال آدم، معه كتاب، فناوله جابراً، فتناوله فقبله ووضعه على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي إلى جابر بن يزيد، وعليه طين أسود رطب، فقال له: متى عهدك بسيدي؟ فقال: الساعة، فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة، فقال: ففك الخاتم، وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب فما رأيته ضاحكاً ولا مسروراً حتى وافى الكوفة، فلما وافينا الكوفة ليلاً بت ليلتي، فلما أصبحت أتيته إعظاماً له، فوجدته قد خرج علي وفي عنقه كعاب قد علقها، وقد ركب قصبة، وهو يقول:

أجد منصور بن جمهور أميراً غير مأمور

وأبياتاً من نحو هذا.

فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً، ولم أقل له، وأقبلت

١ - انظر المناقب (لابن شهراشوب): ج٤، ص٢١١؛ تنقيح المقال: ج١٤، ص١١٧، الرقم (٣٥٨٥)؛ روضة المتقين: ج١٤، ص٧٧.

٢ - انظر خاتمة المستدرك: ج٤، ص٢١٣؛ سفينة البحار: ج١، ص٥٣٩.

أبكي لما رأيته، واجتمع علي وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرحبة، وأقبل يدور مع الصبيان والناس يقولون: جن جابر بن يزيد جن! فوالله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إلى واليه: أن انظر رجلاً يقال له جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه، وابعث إليّ برأسه، فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث، وحج فجن، وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب. يلعب معهم قال: فأشرف عليه فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله. قال: ولم تمض الأيام حتى دخل منصور بن جمهور الكوفة وصنع ما كان يقول جابر[1].

هذا الموقف يتوافق مع مضمون وصية أبي جعفر الباقر عليه السلام لجابر في الأخلاق والتفاني يقول فيها: «واعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن أعرض نفسك على كتاب الله فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه خائفاً من تخويفه فاثبت وابشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبايناً للقرآن فماذا الذي يغرك من نفسك، إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقم أودها ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقيل الله عثرته»[2].

---

١ - الكافي: ج١، ص٣٩٦- ٣٩٧، ح٧؛ وانظر تنقيح المقال: ج١٤، ص١١٤-١١٥، الرقم(٣٥٨٥).

٢ - بحار الأنوار: ج٧٥: ص١٦٢ - ١٦٣، ح١.

ومن المؤسف حقاً أن هذا العالم الكبير الذي علمه يغطي مساحات واسعة من الحياة أعرض عنه الجمهور للتشيع، وكان عنده سبعون ألف حديث عن الباقر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وإن القوم تركوها كلها لأنه كان يؤمن بالرجعة[١]. ترى ما هذه النفس الكبيرة التي تجعل من عالم كبير وفقيه جليل يوقع نفسه في الجنون ويصير نفسه أضحوكة وألعوبة للناس لأجل أن يطع أمر إمامه ويسلم له بلا ضيق أو حرج أو تردد؟

المظهر السابع: الخضوع والتسليم، ويكفينا شرحاً لهذه الحقيقة سلوك عبد الله بن أبي يعفور، وهو ثقة جليل في أصحابنا كريم على أبي عبد الله عليه السلام، وكان قارئاً في مسجد الكوفة، وكان من حواريي الصادقين عليهم السلام، ومن الفقهاء المعروفين الذين هم عيون هذه الطائفة. يعد مع زرارة وأمثاله[٢]. قال الصادق عليه السلام في حقه: «ما وجدت أحداً يقبل وصيتي ويطيع أمري إلاّ عبد الله بن أبي يعفور»[٣] وروي أنه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: والله لو فلقت رمانة بنصفين فقلت: هذا حرام وهذا حلال لشهدت أن الذي قلت حلال حلال، وأن الذي قلت حرام حرام. قال: «رحمك الله»[٤].

وروي أنه لزمته شهادة فشهد بها عند أبي يوسف القاضي، فقال له أبو يوسف: ما عسيت أن أقول فيك يا بن أبي يعفور وأنت جاري ما علمتك إلاّ صدوقاً طويل الليل ولكن تلك الخصلة. قال: وما هي؟ قال: ميلك إلى

١ - بحار الأنوار: ج٥٣، ص١٣٩ - ١٤٠.
٢ - انظر لكنى والالقاب: ج١، ص٢٠٥.
٣ - سفينة البحار: ج٦، ص٤١.
٤ - اختيار معرفة الرجال: ج٢، ص٥١٨، ح٤٦٢.

الترفض، فبكى ابن أبي يعفور حتى سالت دموعه ثم قال: يا أبا يوسف! نسبتني إلى قوم أخاف أن لا أكون منهم، فأجاز شهادته[١].

وكتب الصادق عليه السلام فيه إلى المفضل بعد وفاته: «مضى موفياً لله جل وعز ولرسوله ولإمامه بالعهد المعهود لله، وقبض صلوات الله على روحه محمود الأثر، مشكور السعي، مغفوراً له، مرحوماً برضى الله ورسوله وإمامه عنه، فبولادتي من رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان في عصرنا أحد أطوع لله ولرسوله ولإمامه منه، فما زال كذلك حتى قبضه الله إليه برحمته، وصيره إلى جنته»[٢].

وأنت إذا تأملت في سيرة هؤلاء الرجال ومواقفهم وأنهم كانوا يرمون بأنفسهم في أشد الأحوال حرجاً وهم الكبار وأصحاب المكانة والوجاهة لأجل أمر يصدر من إمامهم وهم في تطبيقه مخيرون تعرف أن هؤلاء كانوا من نوادر الرجال الذين قلما يجود الزمان بمثلهم إيماناً وجهاداً وصبراً في محبة الإمام عليه السلام وطاعته.

وبهذا يتضح جلياً الحد الفاصل بين المحب والموالي، وبين الموالي والشيعي في مصطلح الأخبار الشريفة. جعلنا الله سبحانه من الشيعة بحق أوليائه محمد وآله الطاهرين.

---

١ - تهذيب الأحكام: ج٦، ص٢٧٨، ح١٦٨؛ الكنى والالقاب: ج١، ص٢٠٦.
٢ - اختيار معرفة الرجال: ج٢، ص٥١٨، ح٤٦١.

المبحث الثاني
في الوظيفة الخاصة في عصر الغيبة

وهي انتظار فرج قائم آل محمدﷺ، لينشر العدل الإلهي في الأرض، ويقمع الظلم والجور بين العباد، وهي من أعظم الواجبات على الأمة في زمن الغيبة، بل هي جامع عنواني للكثير من الواجبات والوظائف نفصّل الكلام فيها في ضمن مطالب:

المطلب الأول: في أهمية الانتظار ووجوبه

تتضافر الأدلة العقلية والنقلية على أن انتظار فرج مولانا ولي الزمانعجل الله فرجه الشريف من أعظم حقوقه على الأمة في زمان غيبته من جهات عديدة:

منها: أنه حجة الله وخليفته.

ومنها: أنه واسطة الفيض الإلهي على الخلق.

ومنها: أنه بركة الأرض ومستقرها، وبيمنه رزق الورى، وبوجوده المبارك ثبتت الأرض والسماء، فحقه الثابت على الأمة ليس من جهة إمامته فقط ، بل له حق الوجود على الخلق أجمع وحق الإفاضة والتدبير، وبهذه الحقوق

يثبت له وجوب المعرفة والمحبة والطاعة كما يثبت له الحق في رقاب الجميع أن ينتظروا ظهوره ويعدوا العدة له، وفي ذلك تتحقق ثلاث غايات:

الأولى: أداء ما يجب على الأمة تجاهه صلوات الله عليه، فتكون في طريق الإيمان الحق والانضمام في شريحة أنصاره وأعوانه التي هي من أعظم غايات الأنبياء والأولياء.

والثانية: تحقيق غايات الأنبياء والرسالات السماوية في إصلاح البشر وهدايتهم إلى الله سبحانه.

والثالثة: اصلاح الأرض واستيفاء الحقوق بالعدل الإلهي، فانتظار الفرج الشريف من أهم الوظائف الدينية والعقلية في زمن الغيبة التي ساد فيها الظلم والفساد وحكم الجور كل شبر من المعمورة، وقد عرفت من المباحث السابقة أن الإمام الذي أخفاه الله سبحانه بين عباده وأخره لإقامة الفرائض والسنن ونشر راية الهدى في آخر الزمان هو خاتم العترة الهادية من ذرية رسول الله ﷺ الحجة بن الحسن المهدي عليه السلام.

وقد تواترت الأخبار الواردة بطرق الفريقين في شأنه، وهي في أصلها من الحقائق التي يتفق عليها جميع أهل المذاهب والأديان وإن اختلفوا في صفات الإمام وخصوصياته، وقد أكد النبي ﷺ هذه الحقيقة منذ بدأ الإسلام إلى جميع الأمة، ونقلها الصحابة، وقد أحصي أربعمائة حديث عنه ﷺ واردة بطرق الجمهور عن هذه الحقيقة، وهي إذا عودلت بما ورد في الصلاة والصيام ونحوها من أركان الإسلام لفاقتها عدداً، ومجموع ما ورد بطرق الفريقين عن هذه الحقيقة الإلهية يفوق أكثر من ستة آلاف رواية، ولعل

المتتبع في أهم قضايا الإسلام في أصوله وفروعه قد لا يجد فيها هذا الكم الهائل من الروايات[١].

وهذا في نفسه دليل جازم لا يقبل الشك على أهمية الاعتقاد بهذه الحقيقة الإلهية، وأنها من أهم الأركان التي يقوم عليها إيمان الأمة، بل هي العلة التي تحفظ غاية الخلق والتكوين وحكمة إرسال الأنبياء وإنزال الكتب، ولولاها للزم العبث في الخلق ونقض الغرض من الشرائع السماوية.

ولا خلاف بين عقلاء العالم في ضرورة وجود مصلح عالمي يبدل الظلم العالمي إلى عدل، والفساد إلى إصلاح، والاختلاف الحاصل بينهم في بعض خصوصيات المصلح وصفاته.

فالجميع متفقون في الكبرى، والاختلاف في الصغرى، وسيظهر الله سبحانه للجميع شخص المهدي بصفاته ومقاماته الإلهية بما لا يقبل الشك عند جميع الأمم، ويكون حجة على الجميع، ولو روعي الإنصاف والحياد العلمي في النظر في شخص المهدي عجل الله فرجه وخصوصياته الربانية لما اختلف فيه أحد، إلاّ أن الدوافع السياسية أو العصبية هي التي ساقت البعض إلى المناقشة الصغروية وإن أذعنوا إلى الحقيقة كبروياً[٢].

هذا وقد دلت النصوص المتواترة على وجوب انتظار فرج آل محمد عليهم السلام بظهوره وفضل الثواب والعطاء الإلهي للمنتظرين.

---

١ - انظر بداية المعارف الإلهية: ج٢، ص١٥٢؛ مكيال المكارم: ج١، ص٣٤.

٢ - هذا وقد أثرى البحث في المهدي عجل الله فرجه من حيث الولادة والنسب والسيرة الذاتية وبيان حكمة الغيبة وأسبابها وتفسير حقيقتها جمع كبير من العلماء وأهل التحقيق من الفريقين، وقد ألفت فيه المئات من الكتب والمقالات والدراسات بما قد يغني عن مزيد البيان هنا.

منها: رواية أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام يا بن رسول الله! هل تعرف مودتي لكم وانقطاعي إليكم وموالاتي إياكم؟ قال: فقال: «نعم» فقلت: إني أسألك مسألة تجيبني فيها، فإني مكفوف البصر، قليل المشي، ولا أستطيع زيارتكم كل حين. قال: «هات حاجتك» قلت: أخبرني بدينك الذي تدين الله عز وجل به أنت وأهل بيتك لأدين الله عز وجل به. قال عليه السلام: «إن كنت أقصرت الخطبة فقد أعظمت المسألة، والله لأعطينك ديني ودين آبائي الذين ندين الله عز وجل به: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، والولاية لولينا، والبراءة من عدونا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا، والأجتهاد والورع»[1] وقريب من هذا المضمون ورد في رواية إسماعيل الجعفي عنه عليه السلام [2].

ومنها: رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال ذات يوم: «ألاّ أخبركم بما لا يقبل الله عز وجل من العباد عملاً إلاّ به؟» فقلت: بلى، فقال: «شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله، والإقرار بما أمر الله، والولاية لنا، والبراءة من أعدائنا - يعني الأئمة خاصة - والتسليم لهم، والورع والاجتهاد والطمأنينة والانتظار للقائم عليه السلام» ثم قال عليه السلام: «إن لنا دولة يجيء الله بها إذا شاء» ثم قال: «من سره أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر، وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر، فإن مات وقام القائم بعده كان له من الأجر مثل أجر من أدركه، فجدوا وانتظروا هنيئاً لكم أيتها العصابة المرحومة»[3].

---

١ - الكافي: ج٢، ص٢١ - ٢٢، ح١٠.
٢ - الكافي: ج٢، ص٢٢، ح١٣.
٣ - الغيبة (للنعماني): ص١٠٦.

ومنها: ما رواه الصدوق قدس سره بإسناده عن عبد العظيم الحسني قال: دخلت على سيدي محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وأنا أريد أن أسأله عن القائم المهدي أو غيره فابتدأني وقال لي: «يا أبا القاسم! إن القائم منا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته ويطاع في ظهوره، وهو الثالث من ولدي»[1].

ومنها: ما رواه الخزاز القمي في كفاية الأثر بإسناده عن مسعدة قال: كنت عند الصادق عليه السلام إذ أتاه شيخ كبير قد انحنى متكئاً على عصاه، فسلّم فرد عليه أبو عبد الله عليه السلام الجواب، ثم قال: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله! ناولني يدك أقبلها، فأعطاه يده فقبلها، ثم بكى، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ما يبكيك يا شيخ؟» قال: جعلت فداك أقمت على قائمكم منذ مائة سنة أقول: هذا الشهر، وهذه السنة، وقد كبرت سني ودق عظمي، واقترب أجلي، ولا أرى فيكم ما أحب، أراكم مقتولين مشردين، وأرى عدوكم يطيرون بالأجنحة فكيف لا أبكي؟ فدمعت عينا أبي عبد الله عليه السلام ثم قال: «يا شيخ أن أبقاك الله حتى ترى قائمنا كنت معنا في السنام الأعلى، وإن حلت بك المنية جئت يوم القيامة مع ثقل محمد صلى الله عليه وآله ونحن ثقله، فقال صلى الله عليه وآله: إني مخلف فيكم الثقلين فتمسكوا بهما لن تظلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» فقال الشيخ: لا أبالي بعد ما سمعت هذا الخبر.

ثم قال عليه السلام: «يا شيخ! أن قائمنا يخرج من صلب الحسن، والحسن يخرج من صلب علي، وعلي يخرج من صلب محمد، ومحمد يخرج من صلب علي،

---

١ - كمال الدين: ج٢، ص٣٧٧، ح١.

وعلي يخرج من صلب أبني هذا وأشار إلى موسى عليه السلام، وهذا خرج من صلبي، نحن اثنا عشر كلنا معصومون مطهرون»[١] وقريب من هذه القصة وقعت لشيخ آخر مع أبي جعفر عليه السلام [٢].

وتدل هذه الروايات المباركة على حقائق عديدة:

الحقيقة الأولى: أن انتظار الفرج من الأصول التي يقوم عليها تدين العبد، وهذا التدين هو من صميم دين الأئمة الطاهرين عليهم السلام، فهو يقع في مصاف الشهادة لله بالوحدانية، وللنبي بالنبوة، وللأئمة بالولاية، فيكون واجباً وجوباً نفسياً عينياً تعيينياً على جميع العباد، فكما لا يمكن أن يكون المؤمن مؤمناً وهو منكر شاك في النبوة أو الإمامة كذلك إذا شك في ظهور القائم وانتظاره.

ومن هنا دلت رواية أبي بصير على أنها من شروط قبول الأعمال، ووجهه ظاهر، وذلك لأن النسبة بين صحة العمل وقبوله هي العموم من وجه، ولا يكون العمل مقبولاً إلاّ باستيفاء شرائط الإيمان.

الحقيقة الثانية: أن الغاية من ظهور القائم عجل الله فرجه هو تكوين دولة العدل الإلهي لتمثل التطبيق العملي للأحكام والعدالة الإلهية، وبها تقوم الحجة على من أنكر ذلك أو شك أو انحرف عنها بدعاوى العجز أو عدم إمكانية التطبيق.

الحقيقة الثالثة: أن الناس بالقياس إلى انتظار الفرج على صنفين:

صنف عام وهم الكثير من الناس الذين يؤمنون بالمهدي عليه السلام وبظهوره،

١ - كفاية الأثر: ص٢٦٤؛ بحار الأنوار: ج٣٦، ص٤٠٨، ح١٧.

٢ - انظر الكافي: ج٨، ص٧٦، ح٣٠.

وينتظرون ذلك الظهور وحسب، وهم بهذا مطيعون للحكم الشرعي بوجوب الانتظار، وهذا الامتثال يضعهم في صفوف عموم المؤمنين.

وصنف خاص وهم الذين ينتظرون الفرج، ويلتزمون في أوقات الانتظار بالتقوى والعمل الصالح والورع ومحاسن الأخلاق، وهؤلاء يحظون برتبة صحبة القائم فيكونون من أنصاره، وهذه الصحبة منزلة معنوية يبلغها المؤمن بالطاعة والعمل وليس بالانتظار وحده، فلذا تلازمه حتى بعد موته، فيعطى أجر من أدرك المهدي عليه السلام وعمل تحت رايته، وهذا المقام تفضلي يعطاه المؤمن بالرحمة الإلهية، وحيث إنه لا يناله إلاّ ذو حظ عظيم وهم القلة وصف الإمام من يناله بالعصابة المرحومة.

ومن بركات هذه الرحمة أن يخبر بالعودة مع المهدي عليه السلام في ظهوره ولو كان ميتاً، فعن الفضل بن شاذان بإسناده عن المفضل بن عمر قال: ذكرنا القائم عليه السلام ومن مات من أصحابنا ينتظره فقال لنا أبو عبد الله عليه السلام: «إذا قام أتي المؤمن في قبره فيقال له يا هذا إنه قد ظهر صاحبك، فإن تشأ أن تلحق به فالحق، وإن تشأ أن تقيم في كرامة ربك فأقم»[١].

ومن هنا أكدت الأخبار النبوية على أن انتظار الفرج من أفضل أعمال الأمة[٢]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه أحب الأعمال إلى الله[٣]، وأن من مات وهو منتظر للفرج يكون كمن استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله[٤].

١ - الغيبة (للطوسي): ص٢٧٦.

٢ - عيون أخبار الرضا: ج١، ص٣٩، ٨٧؛ بحار الأنوار: ج٥٢، ص١٢٢، ح٢.

٣ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص١٢٣، ح٧.

٤ - بحار الأنوار: ج٥٢، ص ١٢٦، ح١٨.

وفي كمال الدين عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «المنتظر لأمرنا كالمتشحط بدمه في سبيل الله»[١] وفي رواية أخرى: «طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته والمطيعين له في ظهوره، أولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة جداً التي تنص على مزيد الفضل والثواب في الالتزام بهذه الحقيقة[٣].

بل في رواية أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليه السلام: «أن أهل زمان غيبته القائلين بإمامته المنتظرين لظهوره أفضل من أهل كل زمان؛ لأن الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله»[٤].

الحقيقة الرابعة: أن وجوب الانتظار عقلي وشرعي نفسي عيني تعييني لا يستثنى منه أحد، وهو واجب على الصغير والكبير والمريض والسليم والمرأة والرجل كالتوحيد والنبوة والإمامة، وقد دل عليه لفظ (الدين) الذي هو دين الأئمة الظاهر في أنه الأصل الذي يقوم عليه الدين، وجعله من شرائط الإيمان وقبول العمل، ومادة الأمر الواردة في رواية عبد العظيم الحسني عن الجواد عليه السلام وهي قوله: «الذي يجب أن ينتظر» فإنها ظاهرة في الوجوب.

الحقيقة الخامسة: أن وجوب انتظار الفرج كان من الحقائق المعروفة

---

١ - كمال الدين: ج٢، ص٦٤٥، ح٦.

٢ - كمال الدين: ج٢، ص٣٥٧، ح٥٤.

٣ - انظر بحار الأنوار: ج٥٢، باب٢٢.

٤ - كمال الدين: ص٣٢٠، ح٢؛ الاحتجاج: ج٢، ص٥٠.

المشهورة بين المسلمين، حتى إن البعض انتظر مائة سنة قبل ولادة المهدي عجل الله فرجه، وكان يلتزم بها ويعمل بمقتضياتها كما نصت عليه رواية مسعدة التي أوردها صاحب البرهان، وبذلك يتضح أن هذه الحقيقة أسست منذ الصدر الأول.

الحقيقة السادسة: أن المهدي عجل الله فرجه من عترة النبي من صلب الحسن العسكري عليه السلام وليس من صلب الحسن المجتبى عليه السلام كما يراه البعض، وهو حسيني النسب لا حسني، وقد أكد الإمام الجواد عليه السلام هذه الحقيقة بقوله هو «الثالث من ولدي» وأكده الصادق عليه السلام للشيخ بذكر سلسلة النسب الذي ينحدر منه، ثم نفى الإمامة عن غيرهم حيث نص على أنهم اثنا عشر معصوماً مطهراً، وبهذا تثبت الإمامة فيهم، وتنتفي عن غيرهم، فلا يبقى مجال لشاك أو مرتاب.

والحاصل من كل ما تقدم: أن انتظار ظهور مولانا الحجة عجل الله فرجه من الأصول التي يقوم عليها عمود الدين والتدين، نظير التوحيد والنبوة، وهي من الواجبات الشرعية على كل فرد في الأمة، وأن مخالفتها يوجب الإخلال بشروط الإيمان والأعمال.

المطلب الثاني: في معنى انتظار الفرج

الفرج - بالفتحتين - في اللغة انكشاف الغم. يقال فرّج الله الغم عنه أي كشفه وأذهبه[1]، وهو معنى عام إلّا أنه في اصطلاح الروايات يطلق غالباً على معنى خاص، وهو ظهور حجة الله على الأرض في آخر الأزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، وتسمية الظهور بالفرج من باب إطلاق لفظ السبب على المسبب، أو اللازم على الملازم له؛ لأن ظهوره عليه السلام فرج المؤمنين بالأمن والعدل والسلامة في الدين والدنيا، والفرج عن الأحكام والعدالة الإلهية التي أقصاها الظالمون عن التطبيق.

وأما الانتظار فهو مصدر يدل على مزيد الفعل والمطاوعة نظير الانكسار والانحصار في اللغة ومأخوذ من معنيين:

أحدهما: النظر وهو تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، ومعناه هنا إعمال النظر والفحص لإدراك الشيء ومعرفته بروّية ومهل[2]، واستعماله

---

١ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٢٨، (فرج)؛ لسان العرب: ج٢، ص٣٤٣، (فرج)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٢٢، (فرج).

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨١٢-٨١٣، (نظر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٩٧، (نظر).

في البصيرة أكثر من استعماله بالبصر عند الخاصة[١]، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[٢] أي أمهلونا.

ثانيهما: الترقب لوقوع الشيء. يقال انتظره أي ترقبه وتأنّى عليه، ومنه المثل (إن غداً لناظره قريب) أي لمنتظره[٣]، وعرف الانتظار بأنه طلب الإدراك لما يأتي من الأمر[٤]، ولعله معنى جامع للمعنيين، وهو أعم من الترجي؛ لأنه يقع في الخير والشر، بخلاف الترجي فإنه للخير فقط[٥]، ومن هنا قيدته الروايات بالفرج فأوجبت انتظار الفرج؛ ليدل على الخير، ويشترط في الانتظار شرطان:

الأول: أن يكون الأمر المنتظر مما يهم المنتظرين، ومن هنا ينبغي تقييد التعريف بالمهم، فيقول هو طلب الإدراك لما يأتي من الأمر المهم، والمقصود من الإدراك الوصول إلى الشيء حساً أو علماً، وعلى هذا الأساس تختلف وظائف المنتظرين، فإن البلوغ الحسي يوجب التهيؤ الجسدي، والبلوغ العلمي يوجب التهيؤ النفسي والفكري.

والثاني: أن يكون الأمر المنتظر خارجاً عن اختيار المنتظرين، فلا يملكون أمره وإن علموا بوقته أحياناً.

وتقييد التعريف بالطلب للإشارة إلى أن الفرج لا يحصل صدفة، بل لابد

١ - بصائر ذوي التمييز: ج٥، ص٨٢، بصيرة (٣٦).
٢ - سورة الحديد: الآية١٣.
٣ - المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٣٢، (نظر).
٤ - انظر مجمع البيان: ج٥، ص٣٤٩.
٥ - انظر مجمع البيان: ج٥، ص٣٤٩.

من السعي إليه عبر أسبابه وعلله، وذلك لكونه من النعم الإلهية العظمى التي لا تنال إلاّ بوجود الاستعداد والقابلية حسب معادلة الفيض الإلهي الذي ينزل على العباد بقدر استعدادهم وقابلياتهم، وبهذا يتضح:

أولاً: أن الفرج الإلهي من الفيوضات الربانية التي تتوقف على الاستعداد في البشر.

ثانياً: أن هذا الاستعداد مما يجب على الناس السعي إلى إيجاده وتوفيره.

ثالثاً: أن الاستعداد بعضه حسي مادي والآخر علمي معنوي، كما أن بعضه فردي يخص كل موالي، وبعضه جماعي يخص مجموع الأمة، فلا يصدق عنوان انتظار الفرج إلاّ بالتهيؤ والاستعداد النفسي والفكري والعملي لأجل حصوله والوصول إليه، ومن دون ذلك يكون ناقصاً أو كاذباً، ولازم نقصانه أو كذبه هو ظهور اليأس على نفوس الناس، وتسلط الظلم والبؤس والشقاء عليهم، وضمور الخيرات والبركات في حياتهم.

رابعاً: أن هناك أكثر من حكمة إلهية تقف وراء الأمر بانتظار الفرج بعضها يعود إلى الموالين أنفسهم، وبعضها يعود إلى مجموع الأمة:

منها: أنه يوجه الأمة أفراداً وجماعات إلى هدف واحد ويجمعهم في رؤية واحدة، وينسق جهودهم في الانشغال بالاستعداد والتهيؤ له، وهذا شرط أساس للتقدم في كل أمة تريد أن تأخذ موقعها بين الأمم، وتبني مستقبلها باقتدار.

ومنها: أنه يجعل الأمل والتفاؤل هما الحاكمان على الأوضاع الاجتماعية والسياسية للأمة، فيزول البؤس واليأس من حياتها؛ لأنها ترجو يوماً تعيش

فيه طموحاتها وأهدافها، وهذا من شأنه أن يعود على نفوس أبنائها بالتطلع الدائم إلى الفرج والخلاص الذي هو الآخر من أهم عناصر السعادة والتطور.

ومنها: الترويض على الصبر والتحمل لصعوبات الحياة، فإن كل من يعلم وراء الضيق فرجاً يصبر.

ومنها: أنه يزرع القدوة الحسنة في أذهان القادة ونفوسهم، ويجعلهم يتطلعون دائماً إلى الأفضل في الأساليب والخطط والأهداف؛ إذ لا مجال لأن يكون الموالي من أصحاب المهدي المرضيين عنده وهو يخالفه في قول أو فعل من أي مستوى كان، وفي أي صعيد يعمل، فانتظار الفرج يفيء بظلاله على الجميع ويدعوهم إلى إصلاح النفوس أولاً، ثم إصلاح الآخرين ثانياً؛ ليحظوا بهذه المنزلة العظيمة.

ومن الواضح أن المنتظر لقدوم مولاه والمترقب للفرج لا يكون صادقاً ما لم يتحل بأحسن حال تليق بالانتظار، وهذا ما أكدته رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام حيث قال: «من سره أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر»[1] وهذا ما تؤكده السيرة العقلائية وتقتضيها طبائع الأشياء في الانتظار والاستعداد للقاء الأحبة؛ بداهة أن الاستعداد والانتظار على قدر الحب وشدة اللهفة على المحبوب، ومن هنا أوجبت الروايات الشريفة على المنتظرين لفرج المهدي عجل الله تعالى فرجه أن يتحلوا بطائفة من الصفات بها يستحقون نيل هذا الشرف العظيم في زمان الغيبة، أو يحظون بمرافقته في ظهوره.

---

١ - الغيبة (للنعماني): ص٢٠٠، ح١٦.

المطلب الثالث: في واجبات الانتظار

هناك جملة من الواجبات الحقوقية للإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف يجب على الأمة أن تقوم بها، وتعد نفسها للفرج. ليس من السهل عدها أو حصرها بل لعله متعذر قياساً إلى نعمة وجود الإمام عليه السلام، وبركاته الشاملة للتكوين والتشريع والتدبير؛لذا سنقتصر على ذكر بعض المهم منها:

الأول: وجوب معرفته بشخصه وأوصافه

ويكفي فيه المعرفة بالاسم والنسب والصفات الإلهية الواجبة في الإمام التي تقدم بيانها، وقد مر عليك أن معرفة الإمام من شروط الإيمان، فلا إيمان بلا معرفة إمام الزمان كما دل عليه العقل والنقل، ففي كمال الدين عن أبي الحسن عليه السلام قال: «من شك في أربعة فقد كفر بجميع ما أنزل الله تبارك وتعالى، أحدها: معرفة الإمام في كل زمان وأوان بشخصه ونعته»[1].

بل المستفاد من الأخبار أن انتظار الفرج له أثران إيجابي وسلبي. أما الأثر الايجابي فهو أن معرفة الإمام تلحق أهلها بأصحاب الحجة وأنصاره، ففي رواية الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا فضيل! اعرف إمامك،

---

١ - الهداية: ص٢٩، ح٢؛ كمال الدين: ص٤١٣، ح١٤.

فإنك إذا عرفت إمامك لم يضرك تقدم هذا الأمر أو تأخر، ومن عرف إمامه ثم مات قبل أن يقوم صاحب هذا الأمر كان بمنزلة من كان قاعداً في عسكره، لا بل بمنزلة من قعد تحت لوائه»[١] والروايات بهذا المضمون كثيرة[٢].

وفي رواية المفضل بن عمر قال سمعت الصادق عليه السلام يقول: «من مات منتظراً لهذا الأمر كان كمن كان مع القائم في فسطاطه، لا بل كان كالضارب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف»[٣].

وأما الأثر السلبي فهو أن الجهل بالإمام عليه السلام أو الشك فيه يلحق صاحبه بأهل الجاهلية، فعن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته مات ميتة جاهلية»[٤].

وفي كون اللحوق موضوعياً أو حكمياً احتمالان، وقد مر عليك بعض التفصيل عن ذلك في الفصول السابقة، وقد تواترت الأخبار الشريفة بتحديد شخص الإمام المهدي عليه السلام ونسبه وصفاته الإلهية، ونكتفي هنا بنقل الخبر الصحيح الوارد عن أبي جعفر الثاني عليه السلام في ذلك. قال: «أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم ومعه الحسن بن علي عليه السلام وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين متكئ على يد سلمان، فدخل المسجد الحرام فجلس؛ إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس، فسلم على أمير المؤمنين عليه السلام، فرد عليه السلام فجلس، ثم قال: يا أمير المؤمنين! أسألك عن ثلاث مسائل إن أخبرتني بهن

١ - الغيبة (للنعماني): ص٣٢٩، ح٢؛ الكافي: ج١، ص٣٧١، ح٢.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٥٢، ص١٤٢، ح٥٢، ح٥٥، ح٥٦.
٣ - كمال الدين: ج٢، ص ٣٣٨، ح١١.
٤ - كمال الدين: ص٤١٣، ح١٢؛ بحار الأنوار: ج٥١، ص٧٣، ح٢١.

علمت أن القوم ركبوا من أمرك ما أقضي عليهم أنهم ليسوا بمأمونين في دنياهم ولا في آخرتهم، وإن تكن الأخرى علمت أنك وهم شرع سواء، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سلني عمّا بدالك، فقال: أخبرني عن الرجل إذ نام أين تذهب روحه؟ وعن الرجل كيف يذكر وينسى؟ وعن الرجل كيف يشبه ولده الأعمام والأخوال؟ فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى أبي محمد الحسن فقال: يا أبا محمد أجبه، فأجابه الحسن عليه السلام ... فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلاّ الله ولم أزل أشهد بها، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنك وصيه والقائم بحجته بعده - وأشار إلى أمير المؤمنين عليه السلام - ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنك وصيه والقائم بحجته وأشار إلى الحسن عليه السلام، وأشهد أن الحسين بن علي وصي أبيك والقائم بحجته بعدك، ثم عدد سائر الأئمة عليهم السلام إماماً بعد آخر، ثم قال: وأشهد على رجل من ولد الحسن - العسكري - لا يكنى ولا يسمى حتى يظهر أمره فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

ثم قام فمضى، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا محمد! اتبعه فانظر أين يقصد، فخرج الحسن عليه السلام في أثره، فقال: ما كان إلاّ أن وضع رجله خارج المسجد فما دريت أين أخذ من أرض الله، فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأعلمته، فقال: يا أبا محمد! أتعرفه؟ فقلت: الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم، فقال: هو الخضر عليه السلام »[1]، وتؤكد الرواية على أكثر من حقيقة:

الحقيقة الأولى: أنها تضمنت تقديراً ربانياً لإظهار إمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام

١ - الإمامة والتبصرة: ص١٠٦ - ١٠٨، ح٩٣؛ كمال الدين: ص٣١٣ - ٣١٥، ح١.

بواسطة الخضر الذي أعطاه الله بقدرته جملة من الخصائص التي يشترك فيها مع المهدي عجل الله تعالى فرجه، وأبرزها خصلتان هما طول الحياة وخفاؤه عن الأنظار.

الحقيقة الثانية: أن سؤال الخضر من أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن على وجه الحقيقة، بل هو من مصاديق سؤال العارف الذي يريد أن يظهر الحقيقة للجاهلين عبر سؤاله، وهذه طريقة متداولة عند أولياء الله لإظهار الإيمان والصفات الإلهية في الأنبياء والأولياء؛ لأنهم يكلمون الناس على قدر عقولهم، وقد أقر القرآن هذه الطريقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[1] فإن سؤال الباري عن العصا لا يتناسب مع علمه بحسب موازين السؤال والجواب، إلاّ أنه قد يتظاهر العالم بالسؤال لأجل إعلام الجاهلين.

كما أن جواب موسى عليه السلام المفصل لا يتناسب مع محاورة العالم؛ لأن الباري عز وجل يعلم أسرار العصا وغاية موسى منها، إلاّ أن موسى فصل في الجواب لإعلام الناس بشأن هذه العصا، وأنها تحتوي في باطنها على آيات إلهية كبيرة وإن كانت في ظاهرها خشبة، فالسؤال والجواب في الآية كان بلسان إياك أعني وسمعي يا جارة، وعلى هذه الطريقة والغاية جاء سؤال الخضر وتحويل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الإمام الحسن عليه السلام بالجواب عنه.

ومن هنا قال الخضر: «إن أخبرتني بهن علمت أن القوم ركبوا من أمرك

---

١ - سورة طه: الآيتان ١٧ - ١٨.

ما قضي عليهم» فهو في مقام إظهار الحقيقة بخلافة النبي وإبراز علو شأن أمير المؤمنين عليه السلام وارتفاع رتبته في مقابل القوم الذين ظلموه وغصبوا حقه فيها، وبذلك تتم الحجة عليهم وعلى من شايعهم أو ادعى الجهل بالحقيقة، ولذا أقر الخضر بإمامة الأئمة عليهم السلام واحداً بعد واحد بحسب النص الإلهي والتنصيب النبوي من أميرهم إلى مهديهم عليهم السلام.

الحقيقة الثالثة: أن إرسال أمير المؤمنين عليه السلام الحسن عليه السلام خلفه وإخبار الحسن بأنه ما درى أين أخذ طريقه هو الآخر يدخل في هذه الغاية؛ إذ لو لم يخبر الإمام بذلك قد لا يعلم أحد من الناس الجاهلين بأنه الخضر، وأنه مرسل من قبل الله سبحانه.

وكذلك قول الحسن عليه السلام: «الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم» ورد لإظهار هذه الحقيقة، وإلاّ فإن الإمام عليه السلام عالم بكل ذلك مطلع عليه على ما عرفت تفصيله في باب علم الإمام عليه السلام.

وخلاصة الأمر: يجب على الأمة معرفة إمام زمانها معرفة تامة باسمه وشخصه وصفاته الإلهية، وهذه المعرفة هي أول حقوقه على الأمة، وأول خطوة في طريق انتظار فرجه، فلا يعقل أن تنتظر الأمة فرج مولاها وهي جاهلة به وبمقاماته ومهامه، وقد تواترت أخبار الفريقين في شرح ذلك نكتفي بما مر عليك منها[1].

---

١ - انظر التفاصيل في بحار الأنوار: ج٥١، ص٦٥، باب١ ما ورد من أخبار الله وأخبار النبي بالقائم عليه السلام من طرق الخاصة والعامة.

الثاني: إظهار الشوق إلى لقائه بالقول والعمل

وهو من علائم المحبة والولاية، وهو في نفسه من المستحبات المؤكدة لوروده في مضامين الأدعية والزيارات الواردة عنهم[١] عليهم السلام، بل المستفاد من سيرة المعصومين عليهم السلام أنهم كانوا يظهرون هذا الشوق، ويتمنون حضور أيامه عليه السلام لما فيها من الخيرات والبركات وظهور العدل الإلهي على الأرض وبلوغ العباد مراتب من الكمال عالية تتجلى فيها العبودية والطاعة لله سبحانه.

ففي غيبة النعماني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي عليه السلام قال: «جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين! نبئنا بمهديّكم هذا؟ فقال عليه السلام: إذا درج الدارجون وقل المؤمنون وذهب المجلبون فهناك هناك ... ثم قال: أوسعكم كهفاً، وأكثركم علماً، وأوصلكم رحماً، اللهم فاجعل بعثه خروجاً من الغمة، واجمع به شمل الأمة، فإن خار الله لك فاعزم، ولا تنثنِ عنه أن وفقت له، ولا تجوزن عنه إن هديت إليه، هاه - وأومأ بيده إلى صدره - شوقاً إلى رؤيته»[٢].

وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله يقول: «طوبى لمن أدرك زمانه، وبه يفرج الله عن الأمة حتى يملأها قسطاً وعدلاً»[٣].

وطوبى وزنها فُعلى نظير بشرى وزلفى مأخوذة من الطيب ولكن قلبت ياؤها واواً لضم ما قبلها، ولها معان:

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج١٠٢، ص٩٦.

٢ - الغيبة (للنعماني): ص٢١٢، ح١؛ بحار الأنوار: ج٥١، ص١١٥، ح١٤.

٣ - الغيبة (للطوسي): ص١٨٧، ح١٤٦.

منها: طيب العيش.

ومنها: الجنة بلغة أهل الهند.

ومنها: شجرة في الجنة.

وهذا ما وردت به الأخبار عن النبي المصطفىﷺ: «طوبى شجرة في الجنة أصلها في داري وفرعها في دار عليعليه السلام، فقيل له في ذلك فقال: داري ودار علي في الجنة في مكان واحد»[1] ولا تنافي بين هذه المعاني، والأصل هو المعنى اللغوي، وأما المعنيان الآخران فهما بيان للمصداق وليس للحصر، وكيف كان فإن الحديث النبوي يحتمل معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي، وحينئذ تحمل على الدار الحقيقية، فتكون الرواية كاشفة عن قضية واقعية تقصر عقولنا عن ادراكها كسائر الأحكام التي تكشف عن مصالح واقعية نجهلها.

الثاني: المعنى المجازي، ويحمل على ذكر المسبب وإرادة السبب، والمعنى أن سلوك طريق النبي والوصيعليهما السلام يؤديان إلى نيل هذه الشجرة ودخول الجنة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾[2].

والأنسب بمعنى الحديث عن عهد المهديعجل الله فرجه هو الأول؛ لوضوح أن زمانه كثير الخير والبركة، وفي رواية أبي سعيد الخدري عن النبيﷺ: «تتنعم

---

١ - انظر مجمع البيان: ج٦، ص٣٧، تفسير الآية٢٩ من سورة الرعد؛ مجمع البحرين: ج٢، ص١١٠، (طيب).

٢ - سورة الرعد: الآية ٢٩.

أمتي في زمانه نعيماً لم يتنعموا مثله قط البر والفاجر، يرسل الله السماء عليهم مدراراً، ولا تدخر الأرض شيئاً من نباتها»[١].

وفي رواية عبد الله بن مسعود عنه رضي الله عنه أنه قال: «لا خير في العيش بعد المهدي»[٢] وقد تمنى الصادق عليه السلام أن يعيش أيامه حينما سئل هل ولد القائم؟ فقال: «لا، ولو أدركته لخدمته أيام حياتي»[٣] وهو يتضمن الإشارة إلى ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن المهدي صلوات الله عليه من ولد الحسن العسكري لا الحسن المجتبى عليه السلام وبه تبطل دعوى القائلين بأنه من أولاد الحسن عليه السلام لا الحسين عليه السلام.

الحقيقة الثانية: أن زمانه صلوات الله عليه أفضل الأزمنة وأكثرها خيراً وفضلاً، وهو ما أشار إلى بعضه أبو جعفر عليه السلام إذ قال: «كأني بأصحاب القائم عليه السلام قد أحاطوا ما بين الخافقين ليس من شيء إلاّ وهو مطيع لهم حتى سباع الأرض وسباع الطير تطلب رضاهم في كل شيء حتى تفخر الأرض على الأرض وتقول: مرّ بي اليوم رجل من أصحاب القائم»[٤].

والحقيقة الثالثة: أن مقامه صلوات الله عليه أعلى من مقام أبي عبد الله عليه السلام.

ويجب إظهار الشوق إليه عليه السلام من جهة أنه من علائم معرفة الإمام ومحبته،

١ - بحار الأنوار: ج٥١، ص٧٨، ح٣٧.
٢ - بحار الأنوار: ج٥١، ص٨٤، ح٣٧.
٣ - الغيبة (للنعماني): ص٢٤٥، ح٤٦؛ بحار الأنوار: ج٥١، ص١٤٨، ح٢٢.
٤ - كمال الدين: ج٢، ح٥٢.

ويتأكد الوجوب إذا كان بقصد إظهار الإيمان بوجوده وبظهوره؛ لأنهما من شعائر الدين التي أمر العباد بإظهارها وإقامتها.

الثالث: ذكر فضائله ونشرها بين الناس

وهو من مصاديق شكر المنعم وعلائم المحبة وتقوية الحق وإزهاق الباطل والدعوة إلى الخير ونشر المعروف وإظهار معالم الإيمان وغيرها من العناوين الواجبة والمستحبة بحسب اختلاف مراتبها، وفي رسالة الحقوق أن ذلك من الحقوق على الناس. قال عليه السلام: «وأما حق ذي المعروف عليك فأن تشكره، وتذكر معروفه، وتنشر له المقالة الحسنة، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه، فإنك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سراً وعلانية، ثم أن أمكن مكافأته بالفعل كافأته، وإلاّ كنت مرصداً له، موطّناً نفسك عليها»[1] ولا يخفى أن هذا الوجوب يشمل كل ذي فضل، ويتأكد فيما يتعلق بالإمام عليه السلام لعظم حق الإمام عليه السلام وشموله.

وقوله: «إن أمكن مكافأته بالفعل كافأته وإلاّ كنت مرصداً له» يدل على أن أداء الشكر يقع بنحوين:

أحدهما: الشكر العملي، ويتحقق بنشر فضائله والدعاء له سراً وعلانية.

ثانيهما: توطين النفس على ذلك كي يكون على استعداد لأداء الشكر متى ما سنحت فرصته.

ومن الواضح أن هذا يتطلب ترويض النفس وتربيتها لتكون على ذكر

---

١ - تحف العقول: ص٢٦٥، ح٢٧؛ وانظر مكارم الاخلاق: ص٤٢٢.

دائم بحق المنعم وعدم الغفلة أو النسيان، وهذا في نفسه يتضمن معنى الشكر والعزم على تربية النفس وترويضها، وهو يتوافق مع غاية انتظار الفرج وأهدافه.

هذا وقد دلت الأخبار على أن نشر فضائل الأئمة عليهم السلام من أجلى مظاهر الدين، وأن الأئمة عليهم السلام يشتاقون لحضور المجالس التي تذكر فيها فضائلهم، ففي الكافي عن ميسر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: «أتخلون وتتحدثون وتقولون ما شئتم؟ » فقلت: إي والله إنا لنخلو ونتحدث ونقول ما شئنا، فقال عليه السلام: «أما والله لوددت أني معكم في بعض تلك المواطن. أما والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم وإنكم على دين الله ودين ملائكته، فأعينوا بورع واجتهاد»[1] وقوله عليه السلام: «أتخلون وتتحدثون وتقولون ما شئتم؟» يتضمن الدلالة على أمرين:

أحدهما: أن الزمان كان زمان تقية فلم يتمكن المؤمنون من الحديث إلاّ بالخلوة والسر.

وثانيهما: أن التحدث في السر كان مخصوصاً بذكر فضائل الأئمة عليهم السلام ومناقبهم؛ لأن هذا ما كان يحاربه سلاطين الجور، ويمنعون الأمة منه.

وقوله عليه السلام: «إني لأحب ريحكم وأرواحكم» محمول على الحقيقة لا المجاز، وهو يدل على أن ريح الموالين للأئمة عليهم السلام وأرواحهم تختلف عن غيرهم، وذلك لأن أبدانهم مخلوقة من طين الجنة التي خلقت منها أرواح الشيعة، وهي فاضل طينة الأئمة التي خلقت منها أبدانهم عليهم السلام، فهم من

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٧، ح٥.

أصل واحد، والإنسان بفطرته يحب أصله ومنشأه، والريح تطلق على كل ما فيه الخير والبركة[١]، فتشمل نسيم الرحمة وطيب الرائحة والسماحة والسخاء وغيرها من فضائل وكمالات[٢].

ووجه حب الإمام عليه السلام لريح الموالين المتحدثين بفضائلهم عليهم السلام ظاهر، ومن هنا يظهر أن مجالس ذكرهم عالية القيمة، كثيرة الخير والبركات،ومحل العناية والألطاف الإلهية، ولذا تكون من مواطن استجابة الدعاء وقضاء الحوائج.

والمراد من (دين الله) في قوله عليه السلام: «وإنكم على دين الله ودين ملائكته» المعنى اللغوي، أي الطريق والمنهج في الطاعة والانقياد إليه سبحانه[٣]؛ إذ يكفي في الإضافة أدنى نسبة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٤] أي طاعة وانقياداً، وبهذا يتضح أن إضافة الدين إلى الملائكة ناشئ من جهة أنهم مجبولون على الطاعة فلا يعصون الله ما أمرهم، وهم بأمره يعملون.

والخلاصة: إن الرواية الشريفة تدل على أن مجالس ذكر الأئمة عليهم السلام ونشر فضائلهم من الدين الذي يطاع الله سبحانه فيه، وهي من المواطن التي يود الأئمة عليهم السلام حضورها لما فيها من الخيرات والبركات، كما أنها من أجلى مصاديق شكر الله على نعمة وجودهم وشكرهم عليهم السلام؛ لكونهم مصدر الخيرات والفيوضات الإلهية على العباد.

---

١ - انظر مفردات ألفاظ القران الكريم: ص٣٧٠، (روح).

٢ - انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٣٦٤-٣٦٥، (ريح).

٣ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٢٣، (دين).

٤ - سورة النساء: الآية١٢٥.

ويتأكد هذا الوجوب في زمن الغيبة بمجالس ذكر الإمام الحجة ونشر فضائله؛ لأنه مصدر الخير في العالم، وهذا يكشف عن السر الذي يجعل إبليس وجنوده يتألمون من هذه المجالس ويحاربونها، ففي الكافي عن موسى ابن جعفر عليه السلام: «ليس شيء أنكى لإبليس وجنوده من زيارة الأخوان في الله بعضهم لبعض. قال: وإن المؤمنين يلتقيان فيذكران الله ثم يذكران فضلنا أهل البيت فلا يبقى على وجه إبليس مضغة لحم إلاّ تخدد، حتى إن روحه لتستغيث من شدة ما تجد من الألم، فتحس ملائكة السماء وخزان الجنان فيلعنونه حتى لا يبقى ملك مقرب إلاّ لعنه، فيقع خاسئاً حسيراً مدحوراً»[1].

والمقصود من زيارة الأخوان هو تلاقيهم في المجالس. والأخوان هم الشيعة والموالون لآل محمد عليهم السلام، وتدل الرواية بالدلالة التضمنية على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن مجالس الذكر بين المؤمنين من المستحبات التي فيها رضا الرحمن ومحاربة الشيطان.

الحقيقة الثانية: أن المجالس التي يحبها الله سبحانه ويبغضها الشيطان وجنوده هي ما كان فيها ذكر الله وفضائل أهل البيت عليهم السلام، فلا بد وأن يقترن ذكرهم بذكره سبحانه، ومجالس أهل الإيمان لا تكتفي بواحدة منهما، إلاّ في المرتبة الطولية بأن يكون ذكرهم عليهم السلام امتداداً لذكر الله سبحانه، أو هو مظهر من مظاهره، ومفهوم الوصف فيها يدل على قبح المجالس التي لا يذكرون فيها، أو يذكر فيها خصومهم، وهو ما أكده قول أبي عبد الله عليه السلام

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٨، ح٧.

في رواية علي بن أبي حمزة؛ حيث قال: «شيعتنا الرحماء بينهم، الذين إذا خلوا ذكروا الله [إن ذكرنا من ذكر الله] إنا إذا ذكرنا ذكر الله، وإذا ذكر عدونا ذكر الشيطان»[١].

وقوله عليه السلام: «لا يبقى على وجه إبليس مضغة لحم إلاّ تخدد» يحتمل معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي، فيكون كاشفاً عن واقع خلق الشيطان فيتخدد لحمه أي يتشقق، ويقال أيضاً تخدد لحمه: أي هزل ونقص[٢]، وبينهما علاقة السببية؛ لأن التشقق يؤدي إلى الهزل والنقصان، ولعل وجه التشقق يعود إلى نوع من المرض يؤدي به إلى هذا المصير، أو إلى شدة الأذى باللطم وضرب الوجه كما قد يشير إليه قوله: «حتى إن روحه لتستغيث من شدة ما يجد من الألم».

والثاني: المعنى المجازي، والمقصود أن الشيطان بسبب حزنه وخيبة أمله بالمؤمنين الذين يحبون أهل البيت ويحضرون مجالس ذكرهم يتأذى من بؤسه وحسرته، فيكون أذاه كمن يتشقق وجهه، ووجه ذلك أن المؤمن الملازم لآل البيت عليهم السلام يبطل عهد الشيطان، ويفشل مكائده التي نصبها للمؤمنين على الصراط المستقيم؛ إذ قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣] وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٤] ولا يخفى أن مجالس ذكرهم عليهم السلام على ثلاثة أنحاء:

أولها: المجالس الشخصية، وهي التي يذكر فيها المؤمن ربه وأولياءه عليهم السلام في نفسه، أو في بيته سراً.

---

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٦، ح١.
٢ - مجمع البحرين: ج٣، ص٤٢، (خدد).
٣ - سورة ص: الآية٨٢.
٤ - سورة الأعراف: الآية١٦.

وثانيها: المجالس الخاصة، وهي التي يجتمع فيها بعض المؤمنين، ويقيمون فيها الذكر، وهي من المجالس المباركة التي يستجاب فيها الدعاء، وتقضى فيها الحوائج، ففي رواية غياث بن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما اجتمع ثلاثة من المؤمنين فصاعداً إلاّ حضر من الملائكة مثلهم، فإن دعوا بخير أمنوا، وإن استعاذوا من شر دعوا الله ليصرفه عنهم، وإن سئلوا حاجة تشفعوا إلى الله وسألوه قضاءها، وما اجتمع ثلاثة من الجاحدين إلاّ حضرهم عشرة أضعافهم من الشياطين، فإن تكلموا تكلم الشيطان بنحو كلامهم، وإذا ضحكوا ضحكوا معهم، وإذا نالوا من أولياء الله نالوا معهم، فمن ابتلي من المؤمنين بهم فإذا خاضوا في ذلك فليقم، ولا يكن شرك شيطان ولا جليسه، فإن غضب الله عز وجل لا يقوم له شيء، ولعنته لا يردها شيء»[1].

والرواية دالة على الحد الفاصل بين مجالس أهل الإيمان ومجالس أهل الجحود، ومظاهر مجالس المؤمنين هي ذكر فضائل آل محمد عليهم السلام، وهو ما نص عليه الصادق عليه السلام في رواية عباد بن كثير: «إن لله ملائكة سيّاحين سوى الكرام الكاتبين، فإذا مروا بقوم يذكرون محمداً وآل محمد قالوا: قفوا فقد أصبتم حاجتكم، فيجلسون فيتفقهون معهم، فإذا قاموا عادوا مرضاهم، وشهدوا جنائزهم، وتعاهدوا غائبهم، فذلك المجلس الذي لا يشقى به جليس»[2].

أما مجالس الجاحدين التي يحضرها الشيطان وجنوده فهي المجالس التي لا يذكر فيها فضل الأئمة عليهم السلام، وتشمل المجالس التي يذكر فيها خصومهم

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٧، ح٦.
٢ - الكافي: ج٢، ص١٨٦ - ١٨٧، ح٦.

وأعداؤهم، أو التي يمدح فيها سلاطين الجور وأئمة الضلالة، أو المجالس التي تشتمل على الرذائل والمحرمات وإن كان الحاضرون فيها من الموالين؛ إذ لا يمكن أن يجتمع حب الأئمة وذكر فضائلهم عليهم السلام في مجلس يعصى فيه الله سبحانه، ولعل قوله عليه السلام: «فليقم ولا يكن شرك شيطان ولا جليسه» يتضمن الإشارة إلى هذه الحقيقة، فإن المؤمن الموالي لا ينبغي له أن يحضر مجلساً لا يذكر فيه آل محمد عليهم السلام.

وثالثها: المجالس العامة، أي التي تعقد لعموم الناس، وهي من المظاهر المهمة لإحياء أمر آل محمد، ونشر فضائلهم، وترويج علومهم، وخذلان الباطل وأهله الذين نصبوا العداء لهم، وغصبوا حقوقهم، وهي مجالس تحظى بالعناية الإلهية، وتكون محلاً لنزول الخيرات والبركات على أهلها، وتوجب التوفيق والسعادة لأهلها، والشفاعة المضمونة من آل محمد عليهم السلام.

وقد مرت عليك بعض الروايات المؤكدة لهذه الحقيقة، ومنها رواية ابن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تزاوروا فإن في زيارتكم إحياء لقلوبكم، وذكراً لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطف بعضكم على بعض، فإن أخذتم بها رشدتم ونجوتم، وإن تركتموها ضللتم وهلكتم، فخذوا بها وأنا بنجاتكم زعيم»[1]، ولا يخفى ما في تعهد الإمام عليه السلام بالنجاة من الدلالة على الوعد الذي يجب الوفاء به.

والحاصل: من مجموع ما ذكر أن مجالس ذكر آل محمد من أقرب الطرق إلى رضا الله سبحانه ومحاربة الشيطان وجنوده، وهي من المستحبات في بعض

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٦، ح٢.

مواردها، ومن الواجبات في مواردها الأخرى بحسب انطباق العناوين المستحبة والواجبة عليها، ويتأكد الاستحباب والوجوب في هذا الزمان في مجالس ذكر فضائل الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ لأنه إمام الزمان وحقه أوجب على أهل زمانه.

الرابع: توثيق الصلة بالإمام عليه السلام والالتصاق به

ويمكن أن تتم من خلال برنامج عمل متواصل يحتوي على أعمال كثيرة:

العمل الأول: المداومة على الأدعية الواردة عنهم عليهم السلام لأجل نيل توفيق المعرفة والاستقامة والتسليم في زمن الفتنة والامتحان.

منها: ما ورد في رواية زرارة التي رواها المشايخ الثلاثة قدس سرهم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أن للقائم غيبة قبل أن يقوم» قلت له: ولِمَ؟ قال عليه السلام: «يخاف - وأومأ بيده إلى بطنه - ثم قال: يا زرارة وهو المنتظر، وهو الذي يشك الناس في ولادته، منهم من يقول: هو حمل، ومنهم من يقول: هو غائب، ومنهم من يقول ما ولد، ومنهم من يقول: ولد قبل وفاة أبيه بسنتين. غير أن الله تبارك وتعالى يحب أن يمتحن الشيعة، فعند ذلك يرتاب المبطلون» قال زرارة: فقلت: جعلت فداك، فإن أدركت ذلك الزمان فأي شيء أعمل؟ قال: «يا زرارة إن أدركت ذلك الزمان فأدم هذا الدعاء: اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك اللهم عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني»[1].

---

١ - كمال الدين: ص٣٤٢- ٣٤٣، ح٢٤٤؛ انظر الكافي: ج١،ص٣٣٧، ح٥؛ الغيبة (للطوسي): ص٣٣٣-٣٣٤، ح٢٧٩.

وقوله: «وأومأ بيده إلى بطنه» إما كناية عن خوف القتل، أو أن المطلب من الأسرار التي يجب أن تخزن ولا تظهر.

والشك في ولادته قضية واقعية خارجية؛ إذ انقسم الناس فيها إلى طوائف وفرق، ولازال هذا الانقسام موجوداً، وأكثر الجمهور يرون أنه لم يولد بعد وسيولد في آخر الزمان توهماً منهم بأنه من أولاد الحسن المجتبى لا الحسن العسكري عليه السلام، وأن المراد من آخر الزمان هو نهاية العالم زماناً لا آخر زمان العصمة.

ووجه امتحان الشيعة بطول غيبته هو تمييز المخلصين من المدعين والمنتحلين؛ بداهة أن بعض الناس قد يدعون محبة آل محمد لدواعٍ مختلفة، إلاّ أن الشيعي هو الذي يصبر ويتبعهم بالورع والاجتهاد، فالفرق واسع بين الشيعي والمحب، والصبر والتقوى هي المحك والحد الفاصل بين الصادقين والكاذبين، ولذا قال: «يحب الله أن يمتحن الشيعة، فعند ذلك يرتاب المبطلون».

ومنها: ما رواه الصدوق قدس سره بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى، ولا إمام هدى، ولا ينجو منها إلاّ من دعا دعاء الغريق» قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال عليه السلام يقول: «يا الله يا رحمن يا رحيم، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقبل القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك. قال عليه السلام: «إن الله عز وجل مقلب القلوب والأبصار، ولكن قل كما

أقول لك: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[1].

وقوله عليه السلام: «قل كما أقول لك» يشير إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الدعاء بالمأثور محبوب شرعاً، ويلزم التوقف فيه على حسب ما ورد بلا زيادة أو نقيصة.

الحقيقة الثانية: أن تحصيل أثر الدعاء وبركاته يتم بالمداومة عليه كما ورد عنهم عليهم السلام، والوجه في ذلك يعود لأمرين:

أحدهما: أن الدعاء مفتاح من مفاتيح خزائن الله سبحانه، فلا بد وأن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأن تغييره بالزيادة أو النقيصة أو التبديل أو التغيير يوجب قصوره عن فتح الخزائن الإلهية.

ثانيهما: أن المؤمن الموالي لا يصح له أن يخالف إمامه في قول أو فعل، فإن الاقتداء بالإمام واجب، والتسليم إليه من شرائط الإيمان، فيقبح بالمؤمن أن يزيد أو ينقص بعد قول الإمام أو فعله؛ لأنه من التجري وترجيح رغبة النفس على قول الإمام، ولو انطبق عليه عنوان التعالي أو التلاعب بأقوالهم عليهم السلام كان محرماً.

ومنها: ما أورده السيد ابن طاووس قدس سره في مهج الدعوات في حديث ذكر فيه غيبة المهدي عجل الله تعالى فرجه. قال الراوي: قلت: كيف تصنع شيعتك؟ قال: «عليكم بالدعاء وانتظار الفرج» إلى أن قال: قلت: فما ندعو به؟ قال عليه السلام: تقول: «اللهم أنت عرفتني نفسك وعرفتني رسولك وعرفتني

١ - كمال الدين: ج٢، ص٣٥٢- ٣٥٣، ح٤٩.

ملائكتك وعرفتني ولاة أمرك، اللهم لا آخذ إلاّ ما أعطيت، ولا أقي إلاّ ما وقيت، أللهم لا تغيبني عن منازل أوليائك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، أللهم أهدني لولاية من افترضت طاعته»[1].

ويؤكد هذا الدعاء حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الهداية من الله سبحانه؛ لأنها من التوفيق، وليس على العبد إلاّ أن يسلك سبيلها، ويعززها بالدعاء لينال هداه.

الحقيقة الثانية: يجب على المؤمن أن ينتظر الهداية من الله ولا يشرّق أو يغرّب ويطلبها من غير أهلها فيضل، وتؤكد حقائق التاريخ أن أكثر الذين ضلوا في دينهم استندوا إلى أفواه الرجال، وطرقوا أبواب السلاطين وعلماء الجور وأئمة الباطل، واتبعوهم فقادوهم إلى الضلالة، ولاسيما في زمان الفتن وفساد الزمان، فعلى المؤمن أن يسلك الطريق الموثوق، ويطلب من الله أن يهديه إلى صوابه، ولا شك في أن الله سبحانه لا يخيب عبده، فإذا وجد منه الصدق والإخلاص في الطلب فإنه يهديه إلى الحق بلا شك ولا شبهة.

العمل الثاني: تجديد البيعة له بعد كل فريضة من الفرائض اليومية، وهو الأفضل، أو في كل يوم، أو في كل جمعة، والمقصود بتجديد البيعة تجديد العهد مع الإمام عليه السلام على ولايته ونصرته والاقتداء به، وهو من شروط الإيمان وصدق الولاء، وهو أمر لازم على كل مؤمن، لأن مشاغل الدنيا وذنوب العباد وتسلط الهوى والشيطان على بني آدم قد ينسيه واجباته تجاه إمامه، أو يضعف عزمه وهمته عليها.

---

١ - مهج الدعوات: ص٣٢٢؛ بحار الأنوار: ج٩٢، ص٣٣٦، ح٦.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أمته بمبايعة الأئمة عليهم السلام في خطبة الغدير، وأمر أن يبلغ الحاضر الغائب لتكون سنة متبعة في جميع الأجيال والعصور[١]، وتتحقق البيعة بأمور:

الأول: معرفة الإمام عليه السلام ومعرفة حقوقه ومكانته الإلهية في العباد.

والثاني: العزم القلبي الراسخ على إطاعته والاقتداء به ونصرته ببذل المال والنفس.

والثالث: التبري من أعدائه ومن نازعه سلطانه وإمامته.

والرابع: إظهار كل ذلك بالقول والعمل.

والخامس: عدم نقض البيعة بالمعصية والمخالفات التي لا يرضى بها الإمام؛ لأن هذا يكشف عن عدم صدق المبايع لصاحب البيعة، وأن صدق البيعة يتحقق بالمتابعة والاقتداء لا بمجرد المعرفة أو المحبة.

والأحاديث المتضافرة بطرق الفريقين تدل على ذلك بالدلالة التضمنية أو التلازمية ويكفي من طرقنا ما ورد في خطبة يوم الغدير الأغر، حيث أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله أمته بإمامة علي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام، وأمرهم باتباعهم وأخذ البيعة لهم، ونهاهم عن مخالفتها أو نكثها، وقد أقرت الأمة بذلك، وأعطت العهود والمواثيق بالقول الصريح، وبايعوا علياً باليد وهم يصرحون بقولهم: بخ بخ لك يا أبا الحسن أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[٢] إلى غير ذلك من المظاهر، واستمرت هذه السيرة يظهرها خواص

١ - انظر الاحتجاج: ج١، ص٧٤، ص٧٨.

٢ - كنز الفوائد: ٢٣٢؛ المناقب (لابن شهر آشوب): ج٢، ص٢٣٧.

المؤمنين لإمامهم في كل عصر بالقول أو بالعمل.

ومن طرق الجمهور ما ورد في البخاري ومسلم عن النبيﷺ أنه قال: «من مات وليس في عنقه بيعة فميتته ميتة جاهلية»[1] وهذا لا ينطبق إلّا على بيعة الإمام المعصومعليه السلام وذلك لوجوه:

أحدها: النصوص المتضافرة التي نصت على أن البيعة واجبة للإمام وأن عدمها مساوق للكفر وميته الجاهلية[2]، ومناسبة الحكم والموضوع تقتضي حمل الإمام على المعصوم الهادي للأمة في دينها ودنياها، وهو منحصر في زمن الغيبة بخاتم الأوصياء من آل محمدعليهم السلام وأما سلاطين الجور وأئمة الباطل فلا يقتدي بهم إلاّ أهل الدنيا.

ثانيها: الجزاء، أي قوله: «ميتة الجاهلية» فإن هذه النتيجة لا تصح إلاّ بمخالفة إمام الحق الذي ملازمته إيمان ومفارقته كفر، وهو لا ينطبق إلاّ على المعصوم.

ثالثها: الحكم، فإن وجوب البيعة للإمام لا يكون إلاّ لإمام الحق الذي بمخالفته مخالفة لله والرسول وهو المعصوم، وأما إمام الباطل فإن بيعته حرام.

وقوله: «ليس في عنقه» كناية عن التعهد والالتزام بالبيعة، وهذا لا يتحقق إلاّ بالعزم عليها وإظهارها بالقول والعمل وعدم نقضها.

---

١ - انظر مسلم: ج٣، ح١٤٧٨.

٢ - انظر المعجم الأوسط: ج٦، ص٧٠؛ سنن أب يعلى: ج١٣، ص٣٦٦؛ صحيح ابن حبان: ج١٠، ص٤٣٤.

وبذلك يظهر أن بيعة الإمام عليه السلام على الالتزام والطاعة والنصرة من الواجبات التي يقضي بها الشرع والعقل، ووجوبها نفسي عيني تعييني؛ لأنها من شروط الإيمان، ويستحب التأكيد عليها في كل يوم وقد وردت أدعية وزيارات عديدة لإظهار البيعة وتجديدها كذلك. ذكرها الأعلام في الكتب المخصصة لهذا الشأن، نظير ما أورده محمد بن المشهدي في المزار في السلام والدعاء بعد صلاة الفجر من كل يوم.

ومن قوله: «اللهم بلغ مولاي صاحب الزمان صلوات الله عليه عن جميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها ... اللهم أجدد له في هذا اليوم وفي كل يوم عهداً وعقداً وبيعة له في رقبتي ... » إلى آخر ما ورد[1]، ويستحب تجديد البيعة بهذا الدعاء بعد كل فريضة كما ورد عن الصادق عليه السلام [2].

ومن الأدعية المهمة ذات الآثار والبركات العظيمة بهذا الشأن ما ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال: «من دعا بهذا الدعاء أربعين صباحاً كان من أنصار القائم عليه السلام، وإن مات قبل ظهوره أحياه الله تعالى حتى يجاهد معه، ويكتب له بعدد كل كلمة منه ألف حسنة، ويمحي عنه ألف سيئة، وهو أن يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، آللهم رب النور العظيم ورب الكرسي الرفيع ورب البحر المسجور ... أللهم بلغ مولاي الإمام الهادي المهدي القائم بأمرك صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين عن جميع المؤمنين والمؤمنات ... أللهم

١ - المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٦٦٢.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٨٦، ص٦١، ح٦٩.

إني أجدد له في صبيحة يومي هذا وما عشت في أيام حياتي عهداً وعقداً وبيعة له في عنقي»[1] إلى آخر ما ورد، وهو من الأدعية النورية، وإذا واظب العبد عليها يظهر أثرها سريعاً على أعماله، فيرى الخير والبركة والتوفيق في مختلف مجالات حياته. هذا مضافاً إلى المواظبة على دعائي العهد والندبة والزيارة المعروفة بزيارة (آل ياسين).

ويتأكد استحباب تجديد البيعة في يوم الجمعة وفي كل جمعة، وقد دلت الأخبار على أن الملائكة يجتمعون في كل جمعة في البيت المعمور ويجددون عهد ولاية الأئمة عليهم السلام؛ لأنهم مأمورون بمحبتهم وإطاعتهم وولايتهم كسائر الخلق، كما دلت الأخبار على أن يوم الجمعة هو اليوم الذي أخذ الله سبحانه فيه العهد والميثاق بولايتهم عليهم السلام من جميع العالمين، كما أنه اليوم الذي تتضاعف فيه الحسنات وثواب الطاعات، ولا شك في أن من أفضل الحسنات وأكمل الطاعات هو إظهار الولاية لولي الأمر وتجديد البيعة له.

العمل الثالث: النيابة عن الإمام عليه السلام في أعمال البر، لعل من أقرب طرق الاتصال بالإمام عليه السلام وأقصرها وصولاً إلى رضاه النيابة عنه بالعبادات وأعمال البر، وذلك بأن يأتي العبد بعباداته وصدقاته وأعمال البر بقصد النيابة عنه، ويهدي ثوابها إليه، فإنه يضمن بذلك أموراً:

أحدها: قبول العمل عند الله سبحانه، وذلك لأن الباري جل شأنه يحب آل محمد، ولا يرد هدية مبعوثة إليهم وإن كانت صغيرة أو قليلة، فإنه سبحانه

١ - انظر تفاصيل الدعاء في مكيال المكارم: ج٢، ص٢٢٣ وما بعدها.

قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١] وقال: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٢] هذا إذا كان العبد يعملها لأجل نفسه، فكيف إذا كانت لأجل الإمام عليه السلام؟

وثانيها: قبوله عند الإمام عليه السلام؛ لأنه رؤوف رحيم يحب شيعته ومواليه، ويحن إليهم، لأنه أصل لهم وأب وإمام، ومن مكارم أخلاقه قبول الهدية مهما بلغت من القلة والصغر، فالهدية إلى الإمام مضمونة القبول عنده، وهو ملازم للرضا والحب.

وثالثها: تحصيل المكافأة عليها، فإنه عليه السلام صاحب نفس كبيرة لا يكافئ الإحسان إلاّ بإحسان أفضل منه، وقد قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[٣] فإذا قدم العبد إلى إمامه هدية بركعتين من الصلاة أو بدعاء أو زيارة أو صدقة أو إكرام مؤمن موالٍ محبة بالإمام ونحو ذلك من أعمال البر فلا شك أن يضمن المقابلة بالأحسن، فيهدي إليه الإمام ثواباً، أو يدعو له، أو يكرمه في المواقف الهامة فيكون شفيعاً لقضاء حوائجه، أو يكشف عنه الهم والكربات، أو ينجيه من الهلكات في المواقف الصعبة، ونحو ذلك من آثار وتوفيقات يحصل عليها العبد في حياته الشخصية وفي ذريته، ومع ملاحظة هذه الآثار والعنايات الإلهية بهذا العمل فإن العقل والشرع يقضيان بالالتزام به.

ومن الواضح أن الأعمال النيابية عنه عليه السلام كثيرة ولا تحدد بعمل واحد أو أعمال، بل كل ما كان من أعمال البر يمكن أن يأتي به العبد بقصد النيابة عن

١ - سورة الأنعام: الآية ١٦٠.
٢ - سورة البقرة: الآية ٢٧٦.
٣ - سورة الرحمن: الآية ٦٠.

الإمام عليه السلام فهو مقبول ومأمول فيه الخير، ولكن يمكن أن نؤكد على جملة من الأعمال التي تعد في متناول الجميع وبإمكان الموالي أن يأتي بها في أي وقت من باب التأكيد على المصداق الأفضل أو الأكمل أو الأسهل.

الأول: التصدق نيابة عنه، وهو من علامات المحبة الخالصة، فإن الإنسان بطبعه يحب المال كما قال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1] وأحياناً قد تشح النفس عن بذله حتى لنفس الإنسان ولأجل مصالحه، فإذا بذلها - أي الصدقة - لإمامه عليه السلام فإنه يكون قد جاهد نفسه وروضها من ناحيتين: ناحية الإيثار وتقديم مصلحة إمامه على نفسه، وهذا من أعلى المكارم، وناحية تربية النفس على حب الإمام والتضحية بالغالي لأجله، وهذا من شأنه أن يجعل الموالي متفانياً مؤثراً مضحياً، وهي من أهم غايات انتظار الفرج.

ويجب أن تكون الصدقة مناسبة لقدرة العبد ومما يحبه ويهواه، فإن الغني الثري لا يقبل منه اليسير من الصدقة، بينما تقبل من الفقير المعدم؛ لأن التضحية بما يغلى ويهم من أهم علامات الحب وصدق المحبة والإيمان؛ إذ قال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

والبر مأخوذ من السعة[3]، ويراد به الأعمال الصالحة التي لها الآثار الواسعة التي تعم الآخرين وتشملهم، ولا يتحقق إلاّ بالقصد والاختيار، فهو أخص من الخير؛ لأنه يطلق على كل نفع واصل إلى الآخرين وإن كان بغير قصد ولا اختيار.

---

١ - سورة الفجر: الآية ٢٠.

٢ - سورة آل عمران: الآية ٩٢.

٣ - مجمع البيان: ج٢، ص٣٤٢.

والآية المباركة تشير إلى حقيقتين هامتين في هذا المقام:

الحقيقة الأولى: أن الإنفاق في سبيل الله سبحانه من طرق الوصول إلى مراتب الأبرار الصادقين، والسبب في ذلك انه محك يكشف صدق الإنسان في إيمانه وكذبه، وذلك لأن الإنسان لا ينكشف واقع إيمانه وصدقه إلاّ إذا وقف في مفترق طريقين أحدهما لنفسه والآخر لربه، فبأي من الطريقين يأخذ يكون دليلاً على واقعه وحبه، ولذا لا ينال البر حتى يكون الإنفاق مما يحب؛ لأنه عطاء على خلاف رغبة النفس وشحها، وهذا يدلنا على أن أثر الصدقة لا يظهر إلاّ فيما إذا كانت عن محبة لما يتصدق به، فإنفاق القليل الذي يزهد فيه صاحبه لا أثر له وإن كان ربما فيه بعض الثواب، وهذا ما تؤكده هذه الواقعة.

فقد روي أن أبا طلحة كان من الأنصار وكان أكثرهم نخلاً في المدينة، وكانت أحب أمواله إليه بير حاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يدخلها ويشرب من مائها الطيب، فقال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: وإن أحب أموالي إليّ بير حاء وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بخ ذلك مال رابح»[1].

وبهذا يظهر أن درجة الأبرار لا تنال بأي صدقة، بل بما تحبه النفس وتهواه مالاً كان أو علماً أو عملاً صالحاً أو أي شيء آخر، فكلما قدم العبد

---

١ - سنن الدارمي: ج١، ص٣٩٠؛ تاريخ مدينة دمشق: ج١٩، ص٤١٤؛ انظر مجمع البيان: ج٢، ص٣٤٢؛ تفسير الأمثل: ج٢، ص٣٩٧، تفسير الآية المزبورة. ولعل قوله (بير حاء) مصحفة والأصل (بير ماء).

لإمامه أفضل ما عنده وأحبه إلى نفسه نال من درجات القرب منه ما هو منى الطالبين وغاية المحبين.

الحقيقة الثانية: أن البر من المراتب المعنوية التي لا يحصل عليها العبد إلاّ بالسعي والجد والعمل، كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ فإن النيل هو الإصابة والوصول[1]، فيدل على أن هذا المقام مشروط بالالتفات والتوجه المتواصل، فلا ينال العبد درجة الأبرار بالتصدق مرة أو مرات قليلة، أو بالانقطاع في التصدق، بل لابد من مواصلة الانفاق والتصدق.

ونكتفي هنا بذكر وصية السيد ابن طاووس قدس سره لولده وهو يعلمه آداب المعاملة مع الإمام عليه السلام قال: فكن في موالاته والوفاء له وتعلق الخاطر به على قدر مراد الله سبحانه ومراد رسوله صلى الله عليه وآله ومراد آبائه عليهم السلام منك، وقدم حوائجه على حوائجك عند صلوات الحاجات والصدقة عنه قبل الصدقة عنك وعمن يعز عليك والدعاء له قبل الدعاء لك، وقدمه في كل خير يكون وفاء له، ومقضياً لإقباله عليك وإحسانه إليك[2].

ويمكن أن ينوي في الصدقة ونحوها سلامته عليه السلام من الأمراض والآفات والهموم والغموم، فإنه بشر يعترضه ما يعترض سائر البشر من العوارض، أو ينوي علو الدرجات ومزيد المثوبات له، أو ينوي دخول السرور عليه، فإن الدرجات المعنوية مما لا نهاية لها، كما يمكن أن يتصدق بها لتعجيل فرجه عجل الله تعالى فرجه، والكل مطلوب لوجود المقتضي وانعدام المانع.

---

١ - معجم مقاييس اللغة: ص٩٦٨، (نول)؛ لسان العرب: ج١١، ص٦٨٥، (نيل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٤٨٩، (نيل).

٢ - كشف المحجة: ص١٥١.

الثاني: النيابة عنه في الحج، وهو من الأعمال المخصوصة في تقوية الصلة به صلوات الله عليه، وقد كان متداولاً ومألوفاً بين الشيعة منذ قديم الأيام، فيحج الموالي عن إمامه، أو يبعث نائباً عنه من ماله، وهو من علائم الصلة والبر والمودة، كما يدخل تحت العمومات والإطلاقات الدالة على استحباب نيابة المؤمن عن والديه وأرحامه وذوي الحقوق عليه بالأولوية القطعية. هذا فضلاً عما فيه من الأجر والثواب والمكافأة بالحسنى.

فقد روى الصدوق قدس سره عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الرجل يحج عن آخر ألهُ من الأجر والثواب شيء؟ فقال عليه السلام: «للذي يحج عن الرجل أجر وثواب عشر حجج، ويغفر له ولأبيه ولأمه ولابنه ولابنته ولأخيه ولأخته ولعمه ولعمته ولخاله ولخالته إن الله تعالى واسع كريم»[1].

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من حج فجعل حجته عن ذي قرابة يصله بها كانت حجته كاملة، وكان للذي حج عنه مثل أجره. إن الله عز وجل واسع لذلك»[2] وتدل الرواية على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن النيابة عن القرابة بقصد صلتهم من أسباب قبول العبادة، يشير إليه قوله: «كانت حجة كاملة» والأنسب بمقتضى الحال ومناسبة الحكم والموضوع أن يكون المراد من الكمال القبول لا الصحة، والحظوة بقبول العمل من أهم غايات الأنبياء والأولياء، وذلك لأن العبد قد يضمن صحة العمل إلاّ أنه لا يضمن قبوله، والعمل المقبول هو الذي

١ - من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٢٢٢، ح٢٢٣٩.
٢ - الكافي: ج٤، ص٣١٦، ح٧.

تظهر آثاره وبركاته على العبد.

والحقيقة الثانية: أن ما يناله العبد من صلة القربى يناله بصلة الإمام عليه السلام بالقطع واليقين؛ لأن حقه أعظم، وقربه أولى أن يوصل، لكونه صلة بالله وبالرسول وبأهل بيته عليهم السلام، وحقهم مقدم على سائر الحقوق.

ولا يخفى أن المقصود بالنيابة هنا في غير حجة الإسلام. نعم يجوز للعبد أن يحج حجة الإسلام ويهدي ثوابها لإمامه عليه السلام أو يقصد بها سلامته عليه السلام، وحينئذ تقع مجزية عما في ذمته، ويصل جزاؤها للإمام عليه السلام.

وتدل الروايات الشريفة على أن الأئمة عليهم السلام كانوا يحبون الحج عنهم، وهم يرسلون النواب ليحجوا نيابة عنهم، فقد روى الشيخ قدس سره بإسناده عن محمد بن عيسى اليقطيني قال: بعث إليَّ أبو الحسن الرضا عليه السلام رزم ثياب، وغلماناً وحجة لي وحجة لأخي موسى بن عبيد وحجة ليونس بن عبد الرحمن، فأمرنا أن نحج عنه، فكانت بيننا مائة دينار أثلاثاً فيما بيننا[1] والوجه في إرسال الإمام عليه السلام النواب عنه يعود لحكم عديدة:

منها: بيان أهمية الحج ولو بمثل النائب.

ومنها: التشريع لجواز إرسال النائب في الحج.

ومنها: إرسال جماعة من فقهاء أصحابهم غير المستطيعين إلى الحج ليسقط فرضهم وليرشدوا الناس ويعلموهم الحق.

---

١ - التهذيب: ج٨، ص٤٠، ح٤٠؛ الوسائل: ج١١، باب٣٤ من أبواب النيابة في الحج، ص٢٠٨، ح١.

ومنها: غير ذلك مما هو كثير ويدخل في الأغراض والأسرار التي يعرفها الأئمة عليهم السلام.

ومما يكشف عن اهتمامهم عليهم السلام بمثل هذا العمل ما رواه القطب الراوندي في الخرائج والجرائح حيث قال: إن أبا حمد محمد الدعلجي كان له ولدان، وكان من خيار أصحابنا، وكان قد سمع الأحاديث، وكان أحد ولديه على الطريقة المستقيمة وهو أبو الحسن، كان يغسل الأموات، وولد آخر يسلك مسالك الأحداث في فعل الحرام، ودفع إلى أبي محمد حجة يحج بها عن صاحب الزمان عليه السلام، وكان ذلك عادة الشيعة وقتئذ، فدفع شيئاً منها إلى ابنه المذكور بالفساد، وخرج إلى الحج، فلما عاد حكى أنه كان واقفاً بالموقف، فرأى إلى جانبه شاباً حسن الوجه، أسمر اللون، بذؤابتين، مقبلاً على شأنه في الدعاء والابتهال والتضرع وحسن العمل، فلما قرب نفر الناس التفت إليّ وقال: «يا شيخ ما تستحي؟» قلت: من أي شيء يا سيدي؟ قال: «يدفع إليك حجة عمن تعلم فتدفع منها إلى فاسق يشرب الخمر يوشك أن تذهب عينك هذه» وأومأ إلى عيني، وأنا من ذلك إلا الآن على وجل ومخافة، وسمع أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان ذلك، وقال: فما مضى عليه أربعون يوماً بعد مورده حتى خرج في عينه التي أومأ إليها قرحة فذهبت[1].

وقد تضمن هذا الخبر الإشارة إلى حقائق عديدة:

---

١ - انظر الخرائج والجرائح: ج١، ص٤٨٠- ٤٨١، ح٢١، والدعلجي عبد الله بن محمد بن عبد الله الحذاء الدعلجي منسوب إلى موضع خلف باب الكوفة ببغداد يقال له الدعالجة، وكان فقيهاً عارفاً، وكان شيخاً للنجاشي، وقال: إنه تعلم عليه المواريث، وله كتاب الحج؛ انظر النجاشي: ص٢٣٠.

الحقيقة الأولى: لزوم الاهتمام بالوجوه الراجعة إلى الإمام عليه السلام فلا تعطى لفاسق أو عاص وإن كان النائب يملك المال شرعاً بسبب الإجارة أو الهدية، إلاّ أن انتسابه إلى الناحية المقدسة يعين صرفه من قبل المتقين الصالحين لا الفاسقين الذين يصرفونها في وجوه المعصية.

الحقيقة الثانية: أن النائب عن الإمام صلوات الله عليه يجب أن يكون عادلاً، بل في درجة عالية من العدالة، فلا يصح أن يكون غير عادل.

الحقيقة الثالثة: أن الإمام عليه السلام أقر إرسال النائب يحج عنه ولم ينه عنه، وهو يكشف عن صحة العمل ورضا الإمام عليه السلام، فيكون كاشفاً عن أحد طرق التقرب منه والصلة به.

الحقيقة الرابعة: أن الإمام عليه السلام يحاسب أولياءه المتقين بغير ما يحاسب به غيرهم، فإن الموالي المتقي يعجل له في عقابه، ويحاسبه أشد المحاسبة حتى على ترك الأوْلى، وذلك لأن العقاب على قدر المستوى، ولذا عوقب أبو محمد بذهاب عينه، ويتضمن هذا الفعل حكَماً عديدة:

منها: الإخبار بالغيب ليكون دليلاً على الإمام عليه السلام بآية جلية لا ينكرها أحد.

ومنها: لزوم النزاهة في التعامل مع الإمام عليه السلام وعدم التواني فيما ينسب إليه، وكان هذا من الآثار الوضعية لسوء الأدب أو التهاون في حقه.

ومنها: أن المال الحلال ينبغي أن يصرف في الموارد الحلال، ولا يعطى للفاسقين فيصرفوه في الحرام.

ويتأكد استحباب النيابة في الطواف، وهو لمن عجز عن استنابة الحج أو

النيابة عنه في حج أو عمرة، فإنه يستحب أن يطوف عن الإمام، أو يبعث نائباً، والأول أفضل من الثاني كما لا يخفى.

وفضلاً عن العمومات والإطلاقات الواردة في استحباب النيابة في الحج وسائر العبادات - بل وما ورد في استحباب الطواف عن الوالدين وذوي الرحم[1]- فإنه يدل عليه بعض الروايات الخاصة، فقد روى الكليني بإسناده عن موسى بن القاسم قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام قد أردت أن أطوف عنك وعن أبيك فقيل لي إن الأوصياء لا يطاف عنهم؟ فقال عليه السلام لي: «بل طف ما أمكنك، فإن ذلك جائز» ثم قلت له بعد ذلك بثلاث سنين: إني كنت استأذنتك في الطواف عنك وعن أبيك فأذنت لي في ذلك، فطفت عنكما ما شاء الله، ثم وقع في قلبي شيء فعملت به، قال: «وما هو؟» قلت: طفت يوماً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم اليوم الثاني عن أمير المؤمنين عليه السلام، ثم طفت اليوم الثالث عن الحسن عليه السلام، والرابع عن الحسين عليه السلام، والخامس عن علي بن الحسين عليه السلام، والسادس عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام، واليوم السابع عن جعفر بن محمد عليه السلام، واليوم الثامن عن أبيك موسى عليه السلام، واليوم التاسع عن أبيك علي عليه السلام، واليوم العاشر عنك يا سيدي، وهؤلاء الذين أدين الله بولايتهم، فقال: «إذاً والله تدين الله بالدين الذي لا يقبل من العباد غيره».

قلت: وربما طفت عن أمك فاطمة عليها السلام وربما لم أطف، فقال عليه السلام: «استكثر من هذا فإنه أفضل ما أنت عامله إن شاء الله»[2] وفي الحديث إشارة

١ - انظر الكافي: ج٤، ص٣١٦، ح٧.
٢ - الكافي: ج٤، ص٣١٤، ح٢.

إلى حقائق ثلاث:

الحقيقة الأولى: أن الطواف عن الأئمةعليهم السلام مقبول عند الله سبحانه، ويعرف ذلك من قولهعليه السلام: «فإن ذلك جائز» فإنه إشارة إلى الحكم الوضعي وهو القبول لا الحكم التكليفي بمعنى الإباحة؛ لوضوح أن قوله (طف) بقرينة الحال أو الضرورة على عدم الوجوب أو الإجماع يفيد الاستحباب، ومعه لا يبقى مجال للإباحة، كما لا يصح أن يكون مراده من قوله (جائز) الصحيح؛ لأنه تحصيل للحاصل لتضمن قوله (طف) على صحة العمل، فيتعين أن يكون المراد هو قبول العمل وظهور أثره عندهمعليهم السلام.

الحقيقة الثانية: أن الدين الحق هو الإيمان بالأئمةعليهم السلام بشرط الانضمام وإظهار المحبة والطاعة والتسليم لهم ولو بمثل النيابة عنهم بطواف ونحوه، ولذا قسم الإمام ووصفه بالدين الذي لا يقبل غيره.

والحقيقة الثالثة: أن الطواف عن الصديقة الطاهرةعليها السلام أكثر استحباباً من الطواف عن الأئمةعليهم السلام، بل ولعله من أفضل أعمال الحاج والمعتمر المستحبة؛ لقولهعليه السلام: «استكثر من هذا فإنه أفضل ما أنت عامله» ولعل الوجه فيه يعود إلى وجوه ثلاثة:

أحدها: أن الطواف عنهاعليها السلام يجتمع فيه الطواف عن سائر المعصومين الأربعة عشرعليهم السلام؛ لأنها مجمع النبوة والإمامة، وهي مدار العصمة والعلة الغائية لهما كما يفيده الحديث المعروف «لولا فاطمة لما خلقتكما»[1].

---

١ - عوالم العلوم سيدة النساء: ج١١، ص٤٤؛ عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص٢٦٢، ح٢٢؛ المستدرك: ج٢، ص٦١٥؛ وانظر مقتل الحسين (للخوارزمي): ج١، ص١٥؛ كنز

ثانيها: أن الطواف عنها يتضمن إظهار المحبة والمعرفة للنبي والأئمة عليهم السلام لأنها أم أبيها وأم الأئمة ومستودع سرها لما عرفت من أنها قطب الرحى الذي تدور عليه معرفتهما.

ثالثها: أن الطواف عنها يتضمن التولي والتبري معاً؛ بداهة أن محبة فاطمة ملازم لبغض أعدائها وغاصبيها، فإظهار حبها هو مجمع أركان الإيمان من الولاية لأولياء الله والبراءة من أعداء الله.

ومن الواضح أن الفضائل الثابتة للطواف عن السيدة الطاهرة عليها السلام ثابتة للطواف عن المهدي عجل الله تعالى فرجه بعلاقة وحدة الملاك أو الأولوية، وذلك لأنه خاتمة النبوة والإمامة وحجة الزمان وخاتم الكمالات والفضائل، فالطواف عنه هو طواف عن الجميع بما فيهم فاطمة عليها السلام.

ونظير الحج والطواف زيارة مشاهدهم الطاهرة عليهم السلام نيابة عنه عليه السلام، ويفضل أن يكون العبد هو المباشر لذلك لما فيها من الفضل والبركة، ولو تعذر يستحب إرسال نائب عنه، لاسيما في الزيارات المخصوصة لسيد الشهداء عليه السلام، فإن المعروف بين أهل الإيمان بأنها عظيمة البركة، والدعاء فيها مستجاب، والعمل مقبول، وقد قامت السيرة المعصومة على إرسال الزائرين للحسين عليه السلام نيابة عنهم.

ففي المزار أنه أنفذ أبو الحسن العسكري عليه السلام زائراً عنه إلى مشهد أبي عبد الله عليه السلام فقال: «إن لله مواطن يحب أن يدعى فيها فيجيب، وإن حائر

العمال: ج١١، ص٤٣١، ح٣٢٠٢٥.

الحسين عليه السلام من تلك المواطن»[١].

وفي زيارة داود الصرمي عن أبي الحسن العسكري عليه السلام قال: قلت له إني زرت أباك وجعلت ذلك لك، فقال عليه السلام: «لك بذلك من الله ثواب وأجر عظيم، ومنا المحمدة»[٢] وحصول الثواب ملازم لعبادية العمل، والمحمدة منهم عليهم السلام ملازم لرضاهم عليهم السلام وذكرهم له بالخير، وهو يتضمن معنى الدعاء له، ومن هنا تكون النيابة عنهم عليهم السلام كثيرة الخير والبركة؛ لأنها ملازمة لدعاء الإمام عليه السلام للنائب والمستنيب.

الثالث: مشاركته في المال، كأن يجعله عليه السلام شريكاً في التجارة أو العمل، ويخصص له نسبة من الأرباح أو المال الذي يحصل عليه لو كان عاملاً أو موظفاً أو تاجراً، ويجعل ذلك حقاً له عليه السلام في كل شهر أو في كل سنة أو في كل تجارة يربح فيها، فإن هذا من أهم أسباب حفظ المال ونمائه وزيادة البركة فيه، وفي عين الحال من أهم الطرق التي يصل بها المؤمن إمامه، وينال من مراتب القرب منه بشرطين:

الشرط الأول: أن تكون النسبة المعينة للإمام مما تحبها نفسه، وتشح بها عادة؛ لتكون شاهداً على صدق الإيمان والمحبة والصلة، إذ قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣] وعلى هذا تكون الصلة على حسب القدرة والاستطاعة، فيقبل من الفقير المعدم ما لا يقبل قدره من الغني، ويقبل من المرأة أو الصغير ما لا يقبل من الرجل أو الكبير وهكذا.

---

١ - المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٥٩٥، ح٢.

٢ - انظر الوسائل: ج١٤، باب١٠٣ من أبواب المزار وما يناسبه، ص٥٩٣، ح١.

٣ - سورة آل عمران: الآية ٩٢.

الشرط الثاني: أن يكون المال المخصص لذلك من المال الحلال الذي لا يختلط بحرام أو يكون من حرام؛ إذ لا يطاع الله من حيث يعصى، ويستحسن أن يجعل المؤمن في كل عام بعد أن يخمس أمواله حصة منها للإمام عليه السلام على قدر استطاعته، فإن هذا النحو من التصرف له حظ كبير من الخير والبركة، وقد روي عن السيد ابن طاووس قدس سره وهو من أصحاب سره عليه السلام على ما هو معروف عنه أنه كان يدفع أكثر من الخمس سنوياً لينال صلة الإمام عليه السلام.

وقد تضافرت الأخبار الشريفة على أن المال الذي يقدمه المؤمن في سبيل الله من صدقات وخيرات إذا قصد فيه الإمام عليه السلام ينال به صلته.

فقد روى الكليني قدس سره بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من شيء أحب إلى الله من إخراج الدراهم إلى الإمام، وإن الله ليجعل له الدرهم في الجنة مثل جبل أحد، ثم قال: إن الله يقول في كتابه: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1] قال: هو والله في صلة الإمام خاصة»[2].

وهذا ما يقضي به العقل؛ لوضوح أن الله سبحانه غني عن عباده، كما أن الإمام عليه السلام غني عن الناس، إلاّ أن العبد بحاجة إلى التقرب إلى الله، وأن يحظى برضاه وعناية مولاه، وهذا ما يتوقف على أسباب، ومن أهم هذه الأسباب هو التقرب بالمال؛ لأن النفس مجبولة على حب المال والشح فيه، فإذا تصدق به المؤمن في سبيله كشف عن مزيد حبه لإمامه وصدق ولائه.

---

١ - سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

٢ - الكافي: ج١، ص٥٣٧، ح٢.

وهذا ما تؤكده رواية الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من زعم أن الإمام يحتاج إلى ما في أيدي الناس فهو كافر، وإنما الناس يحتاجون أن يقبل منهم الإمام. قال الله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1] [2].

وقوله(فهو كافر) يحتمل أحد ثلاثة معان:

أحدها: أن يراد به الكفر في المعتقد؛ لأنه لم يعرف الإمام عليه السلام ومكانته عند الله سبحانه، ولا فرق بين من يجهل شخص الإمام أو يجهل صفاته الإلهية، ومن الواضح أن الأمة بحاجة إلى الإمام في دينها وفي كل تفاصيل حياتها، فمن يرى عكس ذلك يكون قد جحد مكانة الإمام.

ثانيها: الكفر في العمل لأنه توهم أن حكم أخذ المال يرجع إلى الإمام لا إلى التعبد والاختيار الإلهي للعباد.

ثالثها: الكفر في النتيجة، وذلك لأن من يرى أن الإمام بحاجة إلى أموال الناس وبنى على هذا معتقده وإيمانه كما يشير إليه قوله (من زعم) فإنه لابد وأن يلتزم بأمرين آخرين هما: أن الإمام بحاجة إلى الناس، ولازمه أن لا يكون أماماً لهم؛ لأنه لا يكون أولى من غيره بالإمامة والاتباع، وأن يكون للناس الفضل على الإمام في إمامته وليس الله سبحانه، وهاتان نتيجتان تتضمنان الإيمان بإمام ناقص محتاج يرجع أمره إلى الناس، وليس إماماً كاملاً غنياً منصّباً من قبل الله سبحانه، ولازم الأول هو الكفر بحقيقة الإمامة ومقام الإمام عليه السلام، ويتضح من الأخبار الشريفة أن صلة الإمام عليه السلام بالمال

١ - سورة التوبة: الآية ١٠٣.

٢ - الكافي: ج١، ص٥٣٧، ح١.

يضمن للعبد أربعة مطالب:

الأول: تحصيل القرب والصلة منه عليه السلام.

والثاني: التطهير والتزكية القلبية، فيكون العبد في مصاف أصحابه وأنصاره والمنتظرين لفرجه صلوات الله عليه.

والثالث: قضاء الحوائج وإجابة الدعوات في ذلك.

والرابع: مزيد الأجر والمثوبة حتى يعد الدرهم الواحد في سبيله أفضل من مليوني درهم في غير سبيله.

ففي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «درهم يوصل به الإمام أفضل من ألفي ألف درهم فيما سواه من وجوه البر»[1].

وفي بشارة المصطفى بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «لا تدعوا صلة آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين من أموالكم، من كان غنياً فعلى قدر غناه، ومن كان فقيراً فعلى قدر فقره، ومن أراد أن يقضي الله أهم الحوائج إليه فليصل آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين وشيعتهم بأحوج ما يكون إليه من ماله»[2].

وفي هذا الخبر دلالات أخريات مضافاً إلى ما تقدم:

الأولى: أن صلة شيعة آل محمد عليهم السلام لها الكثير من المحبة والآثار عندهم عليهم السلام، وظاهر الرواية أن الصلة بشيعتهم معادلة لصلتهم، ولها ذات

١ - الكافي: ج١، ص٥٣٨، ح٦.

٢ - انظر بشارة المصطفى: ص٧؛ بحار الأنوار: ج٩٦، ص٢١٦، ح٦.

الآثار والبركات، وهو ما نصت عليه الأخبار، فعن الصادق عليه السلام: «من لم يقدر على صلتنا فليصل صالحي موالينا يكتب له ثواب صلتنا، ومن لم يقدر على زيارتنا فليزر صالحي موالينا يكتب له ثواب زيارتنا»[1] ولكن لابد وأن يقيد بشرطين:

أحدهما: أن تكون الصلة بشيعتهم لأجل تشيعهم ومحبتهم لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، لا لأجل غاية أخرى، فإن الأعمال بالنيات ولكل أمرئ ما نوى.

ثانيهما: أن تكون الصلة من المال العزيز الذي تشح به النفس عادة، لا ما كان من الزهيد الذي لا يهم إنفاقه.

والثانية: أن الصلة لجميع آل محمد عليهم السلام مطلوبة، وتتأكد بمولانا الحجة عجل الله تعالى فرجه؛ لأنه خاتمهم، وهو مولى الزمان وإمام العصر، فالصلة به أحق.

والثالثة: أن الصلة بالشيعة تتضمن إدخال السرور عليهم بإعانتهم بالمال أو الجاه أو قضاء حوائجهم وتنفيس كرباتهم والدعاء بحقهم وإكرامهم ونحو ذلك من مصاديق الصلة عرفاً، فإن كل ذلك يعد خدمة لمولاهم وإمامهم، وإدخالاً للسرور عليه، وقضاء لحوائجه والدعاء له؛ لأن قضاء حاجة المأموم حباً بالإمام هي في الحقيقة خدمة للإمام وقربة.

وهذا ما تضافرت به الأخبار، فعن الصادق عليه السلام قال: «لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنه عليه أدخله فقط ، بل والله علينا، بل والله على

١ - كامل الزيارات: ص٥٢٨، ح٢؛ مجمع الفائدة: ج٤٠، ص١٨٢.

رسول الله صلى الله عليه وآله»[١] وبذلك يعرف أنه إذا أدخل عليهم الهم والحزن أو أنزل بهم الضرر والأذى يكون قد أنزله بهم[٢] عليه السلام، وهو من مصاديق الجفاء بحق الإمام وجحود أنعامه والعياذ بالله من ذلك، وتتفرع على ما تقدم حقيقتان هامتان:

الحقيقة الأولى: أن صلة الإمام عليه السلام في زمان غيبته أفضل من صلته في زمان ظهور دولته وبسط يده، وذلك لما فيه من مزيد المعرفة وصدق المحبة والصبر على الخوف والأذى، وتشهد له رواية عمار الساباطي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيهما أفضل العبادة في السر مع الإمام منكم المستتر في دولة الباطل أو العبادة في ظهور الحق ودولته مع الإمام منكم الظاهر؟ فقال: «يا عمار! الصدقة في السر - والله - أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك - والله - عبادتكم في السر مع إمامكم المستتر في دولة الباطل وتخوفكم من عدوكم في دولة الباطل وحالة الهدنة أفضل ممن يعبد الله جل ذكره في ظهور الحق مع إمام الحق الظاهر في دولة الحق، وليست العبادة مع الخوف في دولة الباطل مثل العبادة والأمن في دولة الحق»[٣].

والحقيقة الثانية: أن صلة الإمام عليه السلام بالمال في زمن الغيبة تتحقق بصرف المال في الوجوه التي يحرز فيها رضاه وحبه لها، ويشترط فيها قصد الصلة به، كالتصدق في طباعة الكتب المتعلقة به، أو التي تقوي العقيدة الحقة وترد الباطل، وإقامة مجالس الذكر والشعائر الدينية التي تتضمن الدعوة إليه

١ - الكافي: ج٢، ص١٨٩، ح٦.
٢ - الكافي: ج٢، ص١٩٢، ح١٤.
٣ - الكافي: ج١، ص٣٣٣، ح٢.

والتذكير به وترويج فضائله، وكذلك في تقوية الحوزات العلمية والمعاهد الدينية وتأسيس الفضائيات وتقوية العلماء المروجين لعلومهم والراوين لأحاديثهم ونحو ذلك من موارد معلومة الرجحان والمحبوبية عندهم.

العمل الرابع: جمع الكلمة على محبته والتعاهد على نصرته والدعوة إليه، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[1] والإمام عليه السلام هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، فلا بد للمنتظرين لفرجه والطالبين لصلته وأداء حقه أن يكونوا مجتمعين على نصرته.

ومن الواضح أن اتفاق الكلمة عليه عليه السلام من أهم أسس الانتظار للفرج؛ لأنه القاسم المشترك الذي يجمع القلوب والنفوس، وأما غيره فهي في الغالب لا تعدو أن تكون من شؤون الدنيا، أو تكون من القواسم المؤقتة، وأما محبة الإمام ونصرته فهي المحور الوحيد الذي يكاد يجزم فيه المؤمنون بأنه منزه عن المطامع والرغبات، ومطهر من آفات الدنيا ونوازع النفس والشيطان، وتؤكد الأخبار الشريفة أن من أهم وصايا الأئمة عليهم السلام كانت وحدة كلمة المؤمنين الموالين وعدم تفرقهم، فإن وحدتهم تدخل السرور على حجج الله، وتفرقهم يدخل عليهم الأذى والحزن[2].

بل كشف الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه للشيخ المفيد قدس سره أن تفرق الموالين من أهم موانع لقاء الإمام عليه السلام والتشرف بحضوره، كما ورد في التوقيع المبارك الموجه إليه وجاء فيه: «ولو أن أشياعنا وفقهم الله لطاعته

١ - سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

٢ - انظر مكيال المكارم: ج٢، ص٢٩٨.

على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا»[١] وورد فيه أيضاً: «فما يحبسنا عنهم إلاّ ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[٢] وفي التوقيعين الشريفين إشارة إلى عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن اجتماع القلوب بالوفاء بالعهد هو عهد الإمامة والولاية، فقد دلت الأخبار على أن شيعتهم ومنذ عالم الذر عاهدوهم على المحبة والولاية والنصرة كما مر عليك بحثه، إلاّ أن مطامع الدنيا أنست بعضهم ذلك العهد، وصرفتهم إلى شؤونهم فخاضوا اللجج، وسفكوا المهج طلباً لملذاتها وزخرفها وزبرجها، فصار سبباً لبعدهم عن الإمام عليه السلام وحرمانهم من لطفه؛ بداهة أن لقاء الإمام لطف إلهي لا ينزل إلاّ على المحل القابل.

وهذا يدلنا على أن المنتظرين للفرج لا يمكنهم أن يحظوا بنظرة كريمة منه ماداموا متشاغلين بالدنيا، كما يدلنا على أن وظيفتهم تجاه الإمام عليه السلام هو العمل على إعادة الأمور إلى نصابها بالدعوة إلى الحق وجمع الكلمة على التقوى وتوحيد القلوب على نصرة الإمام صلوات الله عليه والسعي لأجله.

الحقيقة الثانية: أن فعل المعاصي والذنوب وارتكاب القبائح الأخلاقية من أهم موانع اللقاء بالإمام عليه السلام، وبذلك تكتمل حلقة اللقاء، وهي وحدة

١ - بحار الأنوار: ج٥٣، ص١٧٧.
٢ - بحار الأنوار: ج٥٣، ص١٧٧، ح٨.

القلوب وهو في رتبة المقتضي والقابلية في القابل واجتناب المكروهات التي تسيء إلى الإمام وتجرح فؤاده، وهي في رتبة رفع المانع.

والمراد من قوله عليه السلام: «فما يحبسنا عنهم» أي يمنعه عليه السلام من الظهور لشيعته ليحظوا بلقائه، وهذا الظهور يراد به اللقاء بالإمام في زمن الغيبة لا الظهور الإلهي؛ لأن ظاهر التوقيع أن اللقاء والحبس أمره بيد الإمام عليه السلام، بينما الظهور الإلهي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً فأمره وأذنه بيد الله سبحانه كما نصت الأخبار على ذلك، وتدل على أن الله سبحانه يصلح أمر المهدي في ساعة، وأمروا عليهم السلام بالدعاء له بالفرج.

الحقيقة الثالثة: أن اللقاء بالإمام عليه السلام في زمن الغيبة أمر مسموح لكل أحد ولكن بشرط وجود الاستعداد والقابلية النفسية والقلبية والعملية على ما عرفت تفصيله.

ومن الواضح أن إيجاد القابلية عند العباد أمر اختياري بيد كل أحد أن يفعله ويلتزم به، فلو قصروا في ذلك يحرمون من اللقاء بإمامهم عليه السلام، وبهذا يمرون بظروف قاسية تطهرهم وتنقيهم من آثامهم ومعاصيهم لينالوا رحمة الله سبحانه وشفاعة آل محمد عليهم السلام في آخرتهم، ويحظوا بالفوز والدرجات العالية في الجنان.

العمل الخامس: تعظيم الشعائر التي تحيي أمرهم كالشعائر الحسينية والفاطمية بإقامة مجالس العزاء والحضور فيها والبكاء على مصيبة العترة المظلومة عليهم السلام، فإن ذلك من تقوى القلب، والدمعة التي تذرف من عين الموالي على الحسين عليه السلام تغسل الذنوب، وتطهر النفس، وتوجب رضا

النبي صلى الله عليه وآله والصديقة الطاهرة عليها السلام ومولانا الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف، وقد أكدت الروايات الشريفة على أن البكاء على الحسين عليه السلام من أهم وسائل القرب إلى الله، بل هو من أجلى مصاديق أداء حق الإمام عليه السلام، فقد روى ابن قولويه بإسناده عن الصادق عليه السلام حديثاً طويلاً جاء فيه: «وما من عين أحب إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلاّ وقد وصل فاطمة وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأدى حقنا»[1] ويتضمن الحديث الإشارة إلى حقائق عديدة:

الحقيقة الأولى: أن البكاء على الحسين عليه السلام من كل أحد مقبول ومحسوب، وهو إسعاد لفاطمة عليها السلام وصلة لرسول الله صلى الله عليه وآله بغض النظر عن عقيدة الباكي ونيته ومعتقده، فإن من تألم للحسين عليه السلام وتوجع لمظلوميته وبكى عليه ينال ذلك الشرف العظيم، ويدل عليه قوله: «ما من باك يبكيه» فإن حذف المتعلق والإثبات بعد النفي يدل على العموم.

الحقيقة الثانية: أن البكاء على الحسين عليه السلام من أسباب الصلة بالنبي صلى الله عليه وآله والصديقة الطاهرة عليها السلام، كما أنه من أسباب الصلة بسائر الأنبياء والأئمة؛ لأن في الحسين عليه السلام اجتمعت كل رسالات الأنبياء وأهدافهم، وفيه تلخصت ظلاماتهم، كما تشهد له النصوص نظير زيارة وارث التي يقر فيها الزائر بوراثة الحسين عليه السلام لسائر الأنبياء ورسالاتهم الإلهية.

الحقيقة الثالثة: أن صلة النبي صلى الله عليه وآله والزهراء عليها السلام وإن كان من جهة العبد

---

١ - انظر كامل الزيارات: ص١٦٨، ح٨، وفي الحديث تفاصيل كثيرة ذات فوائد جمة ينبغي مراجعتها.

إلاّ أن مكانتهم وأخلاقهم الإلهية ونفوسهم القدسية تأبى أن يبكي العبد لمظلوميتهم ويصلهم بهذا القدر من المحبة والتعاطف والنصرة ولا يبادلونه بما يليق بشأنه من الأجر والثناء والتوفيق والرضا، ومن هنا قلنا إن البكاء على الحسين عليه السلام وتعظيم شعائره يعد من أقرب الطرق إلى الله سبحانه وأهمها.

ويشهد الوجدان والوقائع الخارجية بأن الذين نصروا الحسين عليه السلام - ولو بدمعة، أو ببيت من شعر، أو ببعض المال ينفقونه، أو بمسيرة في عزاء لأجله وتعظيماً لشأنه - نالوا الكثير من العنايات الإلهية في حياتهم الشخصية والاجتماعية، ووصلوا إلى عالي الدرجات ليس في الدنيا فقط بل في الآخرة.

الحقيقة الرابعة: أن البكاء على الحسين عليه السلام لا يؤدي حق النبي صلى الله عليه وآله وفاطمة عليها السلام فقط ، بل صاحب الأمر عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام، وذلك لما عرفت من أن حق الإمام عليه السلام هو المعرفة والمحبة والطاعة، والبكاء من أظهر العلامات الدالة عليها، ودموع العين لا تهمل إلاّ على المحبوب الذي طفحت في حبه ومعرفته النفس.

كما أن البكاء يتضمن معنى المواساة والمشاركة في الهم والأذى لكل من يهمه أمر الحسين عليه السلام، فما بالك بوريثه والمنتصر له؟

ومن أظهر مصاديق الصلة بالإمام عليه السلام زيارة قبر الحسين عليه السلام كما في بعض الروايات[1]، وفي بعضها الآخر ورد التأكيد على أنهم عليهم السلام يدعون لزواره، ويخلفون عليهم بمزيد الرحمة والعناية الربانية.

ففي رواية عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك

١ - انظر كامل الزيارات: ص٢٤٥، ح١.

إن أباك كان يقول: في الحج يحسب له بكل درهم أنفقه ألف درهم فما لمن ينفق في المسير إلى أبيك الحسين عليه السلام؟ فقال: «يا بن سنان! يحسب له بالدرهم ألف وألف حتى عدّ عشرة، ويرفع له من الدرجات مثلها، ورضا الله تعالى خير له، ودعاء محمد صلى الله عليه وآله ودعاء أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام خير له»[1] وقريب منه ورد في خبر صفوان الجمال عن الصادق[2] عليه السلام.

وفي رواية معاوية بن وهب أنه سمع الصادق عليه السلام يدعو ويناجي ربه، ويقول: «اغفر لي ولأخواني وزوّار قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم رغبة في برنا، ورجاء لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيك صلى الله عليه وآله، وإجابة منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدونا أرادوا بذلك رضاك فكافئهم عنا بالرضوان، واكلأهم بالليل والنهار، واخلف على أهاليهم وأولادهم الذين خلفوا بأحسن الخلف ... اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا، وخلافاً منهم على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تتقلب على حفرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا، اللهم إني أستودعك تلك الأبدان وتلك الأنفس حتى توافيهم من الحوض يوم العطش»[3].

ومقتضى الجمع الدلالي بين هذين الحديثين والحديث السابق يوصلنا إلى

١ - كامل الزيارات: ص٢٤٧، ح٥.
٢ - كامل الزيارات: ص٢٤٧- ٢٤٨، ح٦.
٣ - كامل الزيارات: ص٢٢٨- ٢٢٩، ح٢.

أن زوار الحسين عليه السلام يختلفون في مراتبهم ودرجاتهم بحسب درجة المعرفة والنية، فمرتبة الصلة برسول الله والأئمة عليهم السلام وإسعاد فاطمة والدعاء له ينالها الزائر بالزيارة والحضور عند الإمام والبكاء عنده.

وأما الزيارة التي تقترن بالعناء وإشخاص الأبدان بقصد إظهار المحبة والبر بالأئمة والطمع فيما عند الله من الأجر والثواب والطاعة لأمر الأئمة عليهم السلام بزيارة الحسين عليه السلام والحضور عنده وإظهار التبري من أعدائهم الذين نصبوا لهم العداء وأزاحوهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها يسمو فيها الزائر درجات عالية من الفضل والكرامة حتى ينال دعاء الإمام الصادق عليه السلام بالرحمة والرضوان، ويؤكد الحديثان على حقائق عديدة أخرى:

الحقيقة الأولى: أن المال الذي ينفقه الزائر في طريق زيارة الحسين عليه السلام عظيم البركة، وهو معوض عليه بأمر الله الرزاق، فيبدله الواحد بعشرة ملايين[1]، فما بالك ببذل الجهد والتعب والعناء وبذل الجاه والسمعة في هذا السبيل؟

الحقيقة الثانية: أن جزء كبيراً من الأذى ينال أنصار الحسين عليه السلام الذين يحبون شعائره، ويشخصون لزيارته، وهو لا ينفك عنهم على مر العصور والأزمان كما يشير إليه قوله: «إن أعداءنا عابوا عليهم ذلك» والتعييب يدل بالدلالة التضمنية على ثلاثة أصناف من الأذى:

الأول: التعييب النفسي بواسطة الذم والانتقاص لأجل التثبيط عن رغبة الارتباط وإظهار المحبة والشخوص إلى الزيارة.

الثاني: التعييب الفكري عبر التشكيك بالزيارة أو بالمزور أو بثوابها. هذا في

١ - انظر عدة الداعي: ص١١٧؛ المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٣٤٧.

بعدها السلبي، وربما يتخذ شكلاً آخر لا يقل خطورة وهو إفراغ الزيارة من محتواها، وذلك بأن يقوم المشكك بترغيب الزائرين بالرفاه في طريق الزيارة، بما يجعلها سفرة سياحية لا عبادية، فبعضهم يحث الزائر الذي يرغب بالمشي لزيارة الحسين عليه السلام بأن يركب السيارة الفارهة أو الطيارة والانشغال بالطعام الطيب ونحو ذلك، ويدعو من يريد أن يواسي بدموعه مثلاً أن يواسيه بطعام أو ثوب أو ثواب فقط لا بمثل الحزن والبكاء واللطم وأمثالها من مظاهر أشد في المواساة، وبعضهم ينتقص من الزائر ويعده قاصراً، أو يتهمه بالتخلف والجهل، أو يستهزئ به.

الثالث: التعييب الاجتماعي وتعريض الزائر إلى الضغط الروحي وإيقاعه في حرج الرأي العام أو العزلة الاجتماعية، وذلك عبر المطاردة والمراقبة والمحاسبة والمنع الجسدي إن أمكن، وتؤكد وقائع التأريخ وقوع هذه الأساليب في الأزمنة الغابرة، كما هي تقع في الأزمنة الحاضرة، بعضها تصدر من أعداء للحسين عليه السلام وشيعته، وبعضها من المحبين الذين لم يدركوا مقامات الزائر وحكمة أهل البيت عليهم السلام في ترسيخ قضية عاشوراء بما فيها من أساليب وشعائر إلهية عظيمة في ضمير الأمة، أو غرتهم الدنيا فوجدوا مصالحهم تكمن في منعها ومحاربتها.

الحقيقة الثالثة: أن المطلوب في طريق زيارة الحسين عليه السلام ومواساته الصراخ والعويل لا الهمس والهدوء؛ إذ قال الصادق عليه السلام: «اللهم ارحم الصرخة التي كانت لنا»[1] والصرخة هي الصيحة الشديدة عند المصيبة[2]، وتشمل

١ - الكافي: ج٤، ص٥٨٣، ح١١.

٢ - لسان العرب: ج٣، ص٣٣،(صرخ)؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٥٦٩، (صرخ)؛

عرفاً البكاء العالي والإيذاء والهتاف في أثناء العزاء ونحو ذلك من مظاهر. نعم يشترط أن تكون الغاية منها لهمعليهم السلام إظهاراً لحبهم أو مواساة لمصائبهم.

ولا تخلو هذه الفقرة من الإشارة إلى ظهور مولانا الحجة عجل الله تعالى فرجه؛ لأنه يصرخ لهم وينتقم من أعدائهم، وشعاره الميمون: «يا لثارات الحسين» وبذلك يظهر وجه الترابط الوثيق بين انتظار الفرج ومواساة الحسينعليه السلام في مصائبه وأحزانه الذي اجتمعت فيه أحزان سائر الأنبياء والرسالات السماوية.

الحقيقة الرابعة: قولهعليه السلام: «اللهم إني أستودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى توافيهم على الحوض يوم العطش» يتضمن إشارة صريحة إلى أن نفوس الزائرين والمواسين للحسينعليه السلام لا تتعرض للأذى والعذاب في البرزخ، كما أن أبدانهم لا تتلف في القبر؛ لأنها وديعة الإمامعليه السلام عنده سبحانه، ولا شك في أن الله سبحانه لا يرد للإمام طلباً، كما أنه أمين على الودائع. نعم يظهر من الرواية الشريفة أن ذلك من خصوصيات الزائرين العارفين بهم وبمقاماتهم، ويواسونهم بهذا القصد والداعي.

هذا وهناك وظائف أخرى عديدة ينبغي على المنتظرين للفرج الالتزام بها نتركها لمظانها من المباحث المختصة بذلك[1].

والحاصل: إن انتظار الفرج له بعدان إيجابي وسلبي، والذي تدل عليه الأخبار الشريفة ويقضي به العقل وجرت عليه السيرة هو الأول، وهو

مجمع البحرين: ج٢، ص٤٣٧، (صرخ).

١ - للمزيد من ذلك راجع كتاب مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم.

يتضمن إصلاح النفوس وتربيتها وتقويمها شخصياً واجتماعياً ليكون صاحبها في مصاف أنصار المهدي عجل الله فرجه في العلم والعمل، وأما الثاني فهو لا يعدو أن يكون دعوى فارغة لا يعززها قول أو عمل.

ومن هنا عدت الروايات البعد الإيجابي من الانتظار في مصاف أصول الدين التي يقوم عليها معتقد العبد ويدين به، وأعطت للمنتظر للفرج مزايا وكرامات إلهية عظيمة، وذلك كنتيجة طبيعية لما يفعله العبد ويقدمه لإمامه عليه السلام من أداء للحقوق والتزام بالوظائف الشرعية والإنسانية المناطة به وقد قالوا عليهم السلام: «من لزمنا لزمناه»[1] ولازم هذا التلازم بين الطرفين هو الرقي المعنوي والمادي في البعدين الديني والدنيوي.

كما أن التلازم المذكور من أكبر أسرار التوفيق والنجاح وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة كما ستعرفه في مباحث المعاد، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلّى الله على سيدنا ونبيّنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم من الجن والإنس أجمعين إلى قيام يوم الدين.

يوم الاثنين المصادف ١٢ شعبان المعظّم
من عام ١٤٣٤هـ كربلاء المقدسة
فاضل الصَّفَار

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٧٢، ح٦٣؛ بحار الأنوار: ج٢، ص١١٥، ح١١.

الفصل الرابع: خصائص الإمام المهدي عليه السلام ومقاماته الإلهية ٢٢١
التمهيد ٢٢٣
المبحث الأول: في وراثة الإمام عليه السلام وخلافته للأنبياء عليهم السلام ٢٢٦
المطلب الأول: في حقيقة العقيدة بالمهدي عليه السلام ٢٢٦
المطلب الثاني: في وراثة المهدي عليه السلام ٢٣١
المطلب الثالث: خلافة المهدي عليه السلام ٢٥٩
المبحث الثاني: في خصائص الإمام المهدي عليه السلام وآثارها التكوينية ٢٧٢
المطلب الأول: في ولايته على الزمان ٢٧٣
المطلب الثاني: في ولايته على العصر ٢٩٣
المطلب الثالث: في ولايته عليه السلام على الأمر ٣٠٥
الفصل الخامس: في واجبات الأمة تجاه الإمام عليه السلام ٣١٥
التمهيد ٣١٧
المبحث الأول: في الوظائف العامة ٣٢٠
المطب الأول: في وجوب المعرفة ٣٢٠
المطلب الثاني: في وجوب المحبة (المودة) ٣٢٩
المطلب الثالث: في وجوب إطاعة الإمام عليه السلام ٣٦٢
المبحث الثاني: في الوظيفة الخاصة في عصر الغيبة ٣٩٣
المطلب الأول: في أهمية الانتظار ووجوبه ٣٩٣
المطلب الثاني: في معنى انتظار الفرج ٤٠٢
المطلب الثالث: في واجبات الانتظار ٤٠٦
المصادر ٤٥٧